الدكتور أحمد سليم الحمصي

ابن زُمْرَك الغرناطيّ

٧٣٣ ـ ٧٩٦ هـ / ١٣٣٣ ـ ١٣٩٣ م

سيرته وأدبه



ابن زُمْرَك الغرناطيّ

الطبعة الأولى

١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

مؤسسة الرسالة بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف: ٣١٩٠٣٩ - ٢٤١٦٩٢ ص.ب: ٧٤٦٠ برقياً: بيوشران

دار الإيمان للطباعة والنشر والتوزيع - طرابلس - لبنان
هاتف: ٦٢٨٥٨٢ - ٦٢٩٢٨٨ - ص.ب ٥٧٨ - برقياً: رضاكو

الدكتور أحمد سليم الحمصي

ابن زُمْرَك الغرناطيّ

٧٣٣-٧٩٦هـ / ١٣٣٣-١٣٩٣م

سِيرتُه وأدَبُه

مؤسسة الرسالة
دار الإيمان

بسم الله الرحمن الرحيم

ابْنُ زُمْـرَك

المقَـدّمَـة

إذا كان يحسن بي أن أحدد أهم مصادر هذه الدراسة، وجب أن أذكر، قبل كل شيء، كتاب «أزهار الرياض في أخبار عياض»[1] للمقري[2] «ذلك المؤرخ الذي لا يكل ولا يمل وهو صاحب الفضل الذي لا يجحد»[3].

وقد انشأ المقري كتابه هذا، في أثناء إقامته بفاس بين سنة ١٠١٣هـ ١٦٠٤ ـ ١٦٠٥م وسنة ١٠٢٧هـ/١٦١٨م[4] وذكر فيه ترجمة القاضي أبي الفضل عياض بن موسى، القاضي الإمام المالكي، وخصص منه قسماً غير صغير لذكر قصائد ابن زمرك وموشحاته[5]، وأطال الحديث عنه بشكل

(١) المقّري: «أزهار الرياض في أخبار عياض» حققه مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة، الجزء الأول، ١٣٥٨هـ ١٩٣٩م، والجزء الثاني، ١٣٥٩هـ/١٩٤٠م.

(٢) هو أحمد بن محمد بن أحمد المقري القرشي، يكنى أبا العباس ويلقب بشهاب الدين. ولد بتلمسان سنة ٩٨٦هـ/١٥٧٨ ـ ١٥٧٩م. وتوفي بمصر أواسط سنة ١٠٤١هـ/أوائل سنة ١٦٣٢م. وهو مؤرخ أديب مشارك في علوم الكلام والحديث والتفسير. وله مؤلفات كثيرة أهمها: «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب» و«أزهار الرياض..» (راجع «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب»، دار صادر، تحقيق الدكتور إحسان عباس المجلد الأول، مقدمة المحقق، ص ٥ ـ ١٤).

(٣) غرسيا ـ غومس: «مع شعراء الأندلس والمتنبي»، تعريب الدكتور الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، الطبعة الثانية، ١٩٧٨م، ص ١٨٨.

(٤) المقّري: «نفح الطيب..»، الجزء الأول، مقدمة المحقق، ص ١١.

(٥) المقّري: «أزهار الرياض..»، الجزء الثاني، ص ٧ ـ ٢٠٦».

لافت، وأحس هو بهذه الإطالة، فقال يبررها:

«وإنما أطلت في كلام الرئيس ابن زمرك، رحمه الله تعالى، لوجوه أولها أن الذي ألّف الكتاب من أجله راغب في ذلك»[١].

ثم سرد بعد هذا وجوهاً أربعة أخرى ذكر فيها أن خوفه من ضياع ما كان مقيداً عنده من كلام ابن زمرك، واشتمال هذا الكلام على أمداح المصطفى، وعلى أوصاف الجهاد والخيل وغير ذلك من الغرائب، وولوع كثير من الناس بكلامه، كل هذا اضطره إلى جمع بعض أشعاره في هذا الكتاب.

فإذا عرفنا أن «أزهار الرياض. . .» يتضمن ألفين وأربعمائة وواحداً وثمانين بيتاً من شعر ابن زمرك، وخمسة عشر موشحاً أدركنا بالتالي، أهميته القصوى بالنسبة إلى هذه الدراسةالتي سوف تهتم، أكثر ما تهتم، لتحليل أدب الشاعر وتقويمه.

على أنه تجدر الإشارة إلى أن ما جمعه المقّري في كتابه كان قد نقل أكثره من سفر ضخم رآه في المغرب، وقد جمع فيه صاحبه السلطان ابن الأحمر[٢] شعر ابن زمرك وموشحاته[٣]، وسماه: «البقية والمدرك من شعر ابن زمرك»[٤]، «أما البقية فلما بقي بعد هلاكه، وتخطته الحوادث وشحّ الدهر بإمساكه، والمدرك: لأجل ما ترك في مبيضاته، ولم يخرجه في حياته»[٤].

---

(١) المقري: «أزهار الرياض. . .» الجزء الثاني، ص (٧ ـ ٢٠٦).

(٢) هو السلطان يوسف الثالث ابن أبي الحجاج يوسف الثاني ابن الغني بالله محمد الخامس وهو السلطان الثالث عشر لمملكة غرناطة، كان شاعراً أديباً، وله ديوان مطبوع. وهو غير الأديب إسماعيل بن يوسف بن محمد. . ابن الأحمر صاحب كتاب «نثير فرائد الجمان. .» (ديوان ملك غرناطة، تحقيق عبد الله كنون، مكتبة الأنجلو، مقدمة المحقق، ص ٤).

(٣) المقّري: «نفح الطيب. .»، ٧: ١٦٢.

(٤) المقّري: «أزهار الرياض. .»، ٢: ٢١. وقد ورد عنوانه أيضاً كالآتي: «البقية والمدرك من كلام ابن زمرك». (يراجع «أزهار الرياض. .» ٢: ١١).

ولو أن هذا الكتاب قد وصل إلينا ولم يفقد لكان، في الواقع، المصدر الأول والأهم لهذه الدراسة.

ثم إن المقّري قد نقل قسماً يسيراً من أشعار ابن زمرك، من كتاب «الإحاطة في أخبار غرناطة»[1] لصاحبه لسان الدين بن الخطيب[2]. وهو (أي المقّري) حين انشأ كتابه «نفح الطيب...»[3]، عاد إلى تضمينه شيئاً كثيراً من كلام ابن زمرك فنقل إليه من كتاب «أزهار الرياض...» ألفاً وتسعمائة وستة أبيات فضلاً عن الموشحات التي أعاد تدوينها بكاملها[4]. بالإضافة إلى ما تخلل هذه الأشعار من كلام تناول فيه المقّري شيئاً من سيرة الشاعر.

بهذا يتضح لنا أن كتاب «نفح الطيب..» يحمل الرتبة الثانية في الأهمية بعد «أزهار الرياض..».

ثم يأتي، بعد ذلك، كتاب «الإحاطة..»[5]، ويتضمن مائتين وسبعة وسبعين بيتاً، أورد منها المقّري في «أزهاره» و«نفحه» مائتين وثمانية وخمسين بيتاً.

(١) المجلد الأول حققه محمد عبد الله عنان ـ دار المعارف ـ سلسلة ذخائر العرب رقم ١٧. الجزء الثاني، الطبعة الأولى ـ مطبعة الموسوعات، ١٣١٩هـ.

(٢) هو ذو الوزارتين أبو عبد الله محمد بن عبد الله.. السلماني اللوشي المعروف بابن الخطيب والملقب بلسان الدين (٧١٣ ـ ٧٧٦هـ / ١٣١٣ ـ ١٣٧٤م)، تولى الكتابة عن السلطان أبي الحجاج يوسف الأول ثم تولى وزارة ابنه الغني بالله من بعده. ثم أحسّ بتحول مليكه عنه فلجأ إلى المغرب. وفي عهد السلطان أبي العباس أحمد حوكم وقتل. كان شاعراً وكاتباً وفقيهاً وطبيباً نسيج وحده في الشعر والنثر. وله مصنفات كثيرة في مواضيع شتى لعل أهمها كتاب «الإحاطة في أخبار غرناطة». وقد ترجمه كثير من المؤلفين أهمهم المقّري في «نفح الطيب..» (وبخاصة في جزئيه السادس والسابع) وابن الأحمر في «نثير فرائد الجمان..» ص (٢٤٢ ـ ٢٩٢).

(٣) الذي فرغ منه آخر ذي الحجة من سنة ١٠٣٩هـ/ أوائل آب ١٦٣٠م. (يراجع المقّري: «نفح الطيب..» الجزء الأول، مقدمة المحقق ص ١٥).

(٤) المقّري: «نفح الطيب..» الجزء السابع، ص ١٤٨ ـ ١٦٠ و١٦٦ و١٦٧ و١٧١ و٢٦٥ و٢٨٠ و٢٨١.

(٥) يراجع الجزء الثاني منه، ص ٢٢١ ـ ٢٣٧.

ولئن عجب المرء من ضآلة ما تضمنه كتاب «الإحاطة..» من شعر ابن زمرك، رغم تقدمه في الزمن بالنسبة إلى «أزهار الرياض..» و«نفح الطيب..»، فسرعان ما يزول عجبه حين يعلم أن ابن الخطيب قد انتهى من تأليف «الإحاطة..» في شعبان عام ٧٧٠هـ[١] (آذار ١٣٦٩م)، وأن ابن زمرك كان في السابعة والثلاثين من عمره، وأنه قد نظم معظم أمداحه بعد هذا التاريخ، وبخاصة بعد تسلمه منصب الوزارة، إثر فرار أستاذه ابن الخطيب إلى المغرب.

هذه هي أهم المصادر، في ما يتعلق بآثار ابن زمرك. أما في ما يتعلق بسيرته، فلا نجد، مع الأسف، مصدراً جامعاً كل عناصرها. وقد ورد شيء من سيرته في «الإحاطة..»[٢] و«الكتيبة الكامنة..»[٣] لابن الخطيب. ثم أخذ المؤلفون بعد ذلك، ينقلون ما ورد في الكتابين. على أن ما ورد فيهما لا ينقع غلة ولا يروي ظمأ. وسوف نرى في الفصل الذي أتحدث فيه عن ابن زمرك، أن ما وجدته من هذه السيرة لا يكفي لنستطلع أحواله كلها جميعاً.

أما المراجع التي تحدثت في موضوع ابن زمرك، سيرة وآثاراً، فأهمها ثلاثة: الأول بحث موجز لريجيس بلاشير بعنوان «الوزير الشاعر ابن زمرك وآثاره»[٤]. وقد استغرق البحث اثنتين وعشرين صفحة، ربعها على الأقل حواش وتعليقات. تحدّث في نهايته[٥] عن أغراض ابن زمرك في آثاره فألمّ بالغزل والتهنئة والاعتذاريات والخمريات والمدح والوصف إلماماً سريعاً.

---

(١) غرسيا ـ غومس: «مع شعراء الأندلس والمتنبي»، ص ١٨٨.

(٢) الجزء الثاني، ص ٢٢١ ـ ٢٣٧.

(٣) ابن الخطيب: «الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة» تحقيق د. إحسان عباس، دار الثقافة، ١٩٦٣م، ص ٢٨٢ ـ ٢٨٨.

(٤) Blachère, Régis: «Le Vizir - poète Ibn Zumruk et son œuvre», Annales de l'Institut d'études orientales» (A.I.E.O.), Faculté des lettres de l'Université d'Alger, tome II, année 1936, pp. (291 - 312).

(٥) بدءاً بالصفحة ٣٠٤ بالتحديد.

أما الثاني فهو دراسة قصيرة بعنوان «ابن زمرك شاعر الحمراء»، لغرسيا غومس، نشرت مع عدة دراسـات أخر في كتـاب بعنوان «خمسـة شعراء مسلمين»: سير ودراسات(١) وقد تناول في هذه الدراسة الحديث عن عصر ابن زمرك وسيرته وفنه ثم ختمها بالحديث عن نقوشه الشعريـة في قصر الحمراء.

ثم نصل أخيراً إلى المرجع الثـالث: «... ثم غربت الشمس»(٢) لمؤلفته الأديبة المصرية المعروفة سهير القلماوي التي تحدثت فيه عن غرناطة وملكها الغني بالله محمد ووزيره الشاعر ابن زمـرك، حديثـاً ملؤه التقديـر والاعجاب بالملك ووزيره. ولا يمكن أن يطلق على هذا الحديث لقب بحث أو دراسة، فهو لا يتصف برصانة البحثين الأولين وليست له، بالتالي، أهميتهما نفسها.

وإذا كان لكل من هؤلاء المؤلفين رأيه في تقويم الشاعر وتقويم أدبه فقد حاولت أن أدلي برأيـي بين هذه الآراء، لا حباً بالتفرد في الرأي، ولا رغبة في المخالفة بل إنطلاقاً من اقتناع تكوّن لدي بعد قراءة معمقة لآثار ابن زمرك. وبهذا يخرج هذا العمل مطبوعاً بطابع شخصي غير مقيد بآراء الغير. ولئن كان بين رأيـي وآرائهم شيء من صلة أو اشتراك أو تقارب فإنما هذا عامل تأكيد للجهد الشخصي لا عامل نفي له.

على أن ما دفعني إلى اختيار ابن زمرك موضوعاً لهذا الكتاب، أسباب متقاربة متشابهة تنحصر، حقاً، في سبب واحد. وهو أني قرأت كتباً تتحدث

---

(١) وهو بالاسبانية:

«Cinco poetas musulmanes: biografias y estudios».

عرّبه الدكتور الطاهر أحمد مكي ونشره تحت عنوان «مع شعراء الأندلس والمتنبي».

(٢) هو كتيب صغير من سلسلة «اقرأ» (رقم ٧٦)، صدر عن دار المعارف بمصر سنة ١٩٤٩م. وهو يتألف من مائة وإحدى وعشرين صفحة.

عن أدب الأندلس، لمؤلفين عرب[١]، فلاحظت أن أكثرهم قد بالغ في التدليل على تبعية الأدب الأندلسي وذيليته للأدب المشرقي فقلل من قيمته ولم يعطه أية أهمية. ثم قرأت كتباً في الموضوع نفسه، لمؤلفين أوروبيين، فوجدت أن أكثرهم قد بالغ في الانسياق وراء فكرة تؤكد على استقلال الأدب الأندلسي وانطباعه بالطابع الأيبيري. فقد زعم بعضهم أن المزاج الأندلسي استطاع أن ينفخ في قوالب الشعر العتيقة روحاً جديداً كتلك التي نفخها الفرس في هذه القوالب عينها في المشرق، وأكد أن ما نقع عليه في شعر الأندلسيين من رقة خاصة في الأحاسيس وعمق في العواطف، وما نلمسه لديهم من استجابة لمفاتن الطبيعة والفن وتصويرها بكثير من التلطف، كل ذلك لم يتأتَّ لهم إلاّ بتأثير مباشر من البيئة الأندلسية الأيبيرية[٢]. بل إن بعضهم رأى أن الحضارة التي امتدت حتى القرن الخامس عشر الميلادي في ظل الحكم العربي بالأندلس، يجب عدم التردد في تسميتها بـ «الحضارة العربية الاسبانية»، لأنها نشأت نتيجة مؤثرات مختلفة في شبه جزيرة ايبيريا نفسها[٣].

ولئن كان هناك من يعترض على هذه التسمية تعصباً للعرب فإنه لن يكتفي، حتماً، بالاعتراض بل سيثور غضباً عندما يسمع بَالِنْثِيَا يقول عن ابن حزم أنه كان «اسبانياً خالصاً»[٤].

---

(١) أبي الخشب، إبراهيم علي: «تاريخ الأدب العربي في الأندلس»، دار الفكر العربي، الطبعة الأولى، ١٩٦٦م، ص ١٧٦، وخالص، د. صلاح: «اشبيلية في القرن الخامس الهجري»، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٥، ص ٨٥ وأمين، أحمد: «ظهر الإسلام»، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٦٢م، الجزء الثالث، ص ١٠٤ و ١٠٥.

(٢) بروكلمان، كارل: «تاريخ الشعوب الإسلامية»، تعريب: حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الأولى، ص ٤ و ١٥٩ و ١٦٠.

(٣) ليفي - بروفنسال: «حضارة العرب في الأندلس»، تعريب: ذوقان قرقوط دار مكتبة الحياة، بيروت، ص ٩.

(٤) بالنثيا: «تاريخ الفكر الأندلسي»، تعريب: حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الأولى، ص ٧٦.

وهكذا وقعت على رأيين مختلفين حول موضوع الأدب الأندلسي، بل يكادان يكونان متناقضين. فأحببت أن أدرس هذا الأدب، من خلال دراستي لأصحابه، وأن أتعمق فيـه لأرضي فضولي من جهـة، وأطلع، من جهة أخرى، وعن كثب، على جزء من أدبنا العربي، لم يخصص له في الدراسة الثانوية حيّز ذو بال.

ولهذا قمت بدراسة شعر الخمر في الأندلس في رسالة دبلوم الدراسات العليا، وأدركت بعدها، أن الرأيين السابقين، وإن كان كل منهما يحمل جزءاً من الحقيقة، يتضمنان شيئاً من المبالغة. فمما لا يمكن إنكاره أن الأندلسيين قد قلدوا المشارقة في أشعارهم، وبخاصة في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي)، ذلك بأن الثقافة الأندلسية، لم تكن، في البدء، إلّا امتداداً للثقافة العربية في المشرق. وهذا التقليد كان واضحـاً وواسعاً بحيث أغـاظ ابن بسام[1] ودفعه إلى أن يقول في مقدمة كتابه «الذخيرة. . .»:

«إلّا أن أهل هذا الأفق أَبَوْا إلّا متابعة أهل الشرق، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة رجوع الحديث إلى قتادة، حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب أو طن بأقصى الشام والعراق ذباب، لَجَثَوْا على هذا صنماً، وَتَلَوْا ذلك كتاباً محكماً، وأخبارهم الباهرة وأشعارهم السائرة مرمى القصية ومناخ الرذيّة، لا يعمر بها جنان ولا خلد، ولا يصرف فيها لسان ولا يد، فغاظني منهم ذلك وأنفت مما هنالك. .»[2].

غير أن الأدباء الأندلسيين سـرعان مـا أحسّوا بـأندلسيتهم وأدركـوا

(١) هو أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني الأندلسي (؟ ـ ٥٤٢هـ / ؟ ـ ١١٤٧م)، مؤرخ وأديب أندلسي معروف. له كتاب «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة». (يراجع ياقوت الحموي: «معجم الأدباء»، مطبوعـات دار المأمون، الجزء الثاني عشر الطبعة الأخيرة، ص ٢٧٥. و«المنجد في الاعلام»، ص ٨).

(٢) ابن بسام: «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة»، تحقيق د. إحسان عبـاس، دار الثقافـة، بيروت، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، القسم الأول، المجلد الأول، ص ١٢.

واقعهم، فراحوا يسيرون، مع تقدم الزمن، في طريق التطور الصحيح. وحاولوا، بنجاح ظاهر، أن ينتقلوا من التقليد إلى المنافسة. فزادوا في شعرهم الوجداني مما استدعته الحضارة من التوسع في الخمريات وإتقان الوصف بعامة. فنبغ منهم شعراء كثيرون واضطروا، تحت ضغط المنافسة، إلى أن يطلقوا على نوابغهم ألقاب شعراء المشرق وكناهم: فكان غالب الأندلسي يكنى أبا تمام، وابن زيدون يلقب بالبحتري، وابن هانىء الأندلسي بالمتنبي وحمدونة بنت زياد المؤدب بخنساء المغرب، وابن خفاجة بصنوبري الأندلس، وأبو بكر المخزومي بالمعري الثاني.. ولكن ألا يشكل هذا بحد ذاته، منتهى التقليد؟ نعم، ولكنه تقليد رائع، أوصلهم في النهاية إلى اصطناع الجديد في الوصف والغزل والخمر والمجون. فتفننوا في أوصاف شتى حتى فاقوا المشارقة في بعضها كوصف الطبيعة الناعمة والمدن العامرة، وبرعوا في وصف مجالس اللهو والغناء والرقص والشراب وآلته، بحيث استطاعوا أن يخرجوا من دائرة تقليدهم أبا نواس ويأتوا بمعان جديدة لا نجدها عند أمير الشعر الخمري نفسه(١).

من هنا، كان الكلام على الأدب الأندلسي بوصفه أدباً منمازاً عن أدب المشارقة، والكلام عليه بوصفه صورة ممسوخة عن أدب المشرق، سواءً في مجانبة الصواب.

وحين قررت متابعة التحصيل العالي لنيل شهادة الدكتوراة، خطر لي أن أقوم بدراسة تحليلية يكون موضوعها: «التقليد والتجديد في الأدب الأندلسي»، إلّا أنني أدركت فوراً أن القيام بهذ الدراسة فوق طاقتي، لأنها تتطلب خبرة طويلة وتخصصاً واسعاً في الأدب الأندلسي. فعزمت على هذا التخصص ونويت أن يكون موضوع أطروحتي دراسة شخصية أدبية غير

(١) الحمصي، أحمد: «شعر الخمر في الأندلس»، رسالة دبلوم الدراسات العليا، ص ١٤٥ - ١٦١.

مشهورة. وكنت قد سمعت بابن زمرك آخر الشعراء الأندلسيين وعرفت قصة غدره بأستاذه لسان الدين، فأثار هذا الشاعر فضـولي وأحببت أن يكون موضوع هذا الكتاب.

ولقد كنت أعرف، مسبّقاً، أن هذه الدراسة سوف تتطلب مني عناءً كبيراً لأني أريد أن أركز فيها على جديد ابن زمرك في ميدان الشعر. ولذلك حاولت جاهداً، أن أجمع كل ما وقعت عليه من شعره. وقد أنبأتني القراءة الأولى لما جمعته، أن شعره في أكثره تقليدي، فأردت أن تكون دراستي لهذا الشعر قريبة من الدراسات التقليدية البحتة التي تنظر في الأغراض ومضامينها وتبين ما تتصف بها من خصائص فنية، وأن تكون بعيدة، قدر الإمكان، من الدراسات الحديثة التي تُعنى بالبنيويـة القائمـة على التحليـل الألسني، أو بالتحليلية المعوّلة على التحليل النفسي العاكس عُقدَ المؤلف ونزعاته الحياتية، أو بالنقد الاجتماعي الرامي إلى تحليل الأعمال الأدبية تحليلاً اجتماعياً. على أني لا أحب أن أطلق على الدراسة الأدبية، أياً كان نوعها، صفة القدم أو الحداثة، طالما أنها تقوم، أولاً وأخيراً، على التحليل. ولئن صرف رواد علم اللغة الحديث قدراً كبيراً من جهودهم للمشاركة في إقامة علم الأسلوب، فـوجهوا البحث اللغـوي من المناحي التـاريخية والمقـارنة إلى منحى درس الخصائص التركيبية وخصائص الكلمات، ولئن قامت هناك مدارس للدرس الصوتي وبحث الطوابع الاجتماعيـة للأسلوب ودراسـة مستويـات السياق وخصائص التعبير اللغوي... فكل هذا لا يجعل من الدراسة الحديثة شيئاً مغايراً للدراسة القديمة أو مختلفاً عنها اختلافاً كبيراً وبخاصة إذا عرفنا أن علم الأسلوب الأدبي يقوم على مزيج من نتائج علم اللغة الجديد ومقررات علم البلاغة القديم.

ولسوف أعرض لأغراض ابن زمرك جميعها بالتحليل والنقد والدراسة المسهبة بهدف استخلاص مميزات النتاج الأدبي لشاعر وصف بالتقليـد كما

وصف بالإجادة، علّ هذا العمل يعدّ تكاملاً لدراسة الأعمال الأدبية لسائر الشعراء العرب.

وغنيٌّ عن البيان أن ألفين من الأبيات وبضعة عشر موشحاً وعدة رسائل تكفي بلا ريب، لتحقيق هدف هذه الدراسة. وإلّا فإني أعرف أن لابن زمرك آثاراً أدبية أخرى لم أقع عليها في المصادر الباقية إلى اليوم، إذ امتدت إليها يد الدهر ـ وربما يد الإنسان أيضاً ـ بالإتلاف أو الاخفاء أو التضييع، كما حصل لكتاب «البقية والمدرك من شعر ابن زمرك» الذي جمع فيه صاحبه ديوان ابن زمرك، ونقل منه المقّري، كما ذكرت سابقاً، فقرات طويلة في «أزهاره» و«نفحه». ومن هذه الفقرات ما ذكره السلطان ابن الأحمر(١) من أنه وقف «على رقعة من رقاعه (أي من رقاع ابن زمرك) وهو يبدىء فيها ويعيد ويقول:

«خدمته (أي خدمت الغني بالله) سبعاً وثلاثين سنة، ثلاثاً بالمغرب، وباقيها بالأندلس، أنشدته فيها ستاً وستين قصيدة في ستة وستين عيداً، وكل ما في منازله. . .»(٢).

فإذا صح هذا القول، تبين لنا بعملية بسيطة أن ابن زمرك نظم بضعة آلاف من الأبيات، ذلك بأن قصائده المدحية طويلة عادة، وهي تتجاوز، أحياناً كثيرة المائة بيت.

وهنا، لا بدّ من أن أذكر بعض الإيضاحات حول هذه الدراسة فأقول: إنـي جمعت ألفاً وأربعمائة وثمانية وسبعين بطاقة تضمنت من النثر شيئاً غير يسير ومن شعر ابن زمرك ستين مقطعة شعرية(٣) واثنتين وخمسين قصيدة(٤)

---

(١) سبق التعريف به في صفحة ٦ من هذه الدراسة.

(٢) المقّري «نفح الطيب. .»، ٧: ١٦٧.

(٣) تراوح عدد أبياتها بين بيت واحد وستة أبيات بحيث كان مجموعها مائتين واثنين.

(٤) تراوح عدد أبياتها بين سبعة أبيات ومائة واثنين وسبعين بيتاً بحيث كـان مجموعهـا ألفين وأربعمائة واثني عشر بيتاً.

مع الإشارة إلى أن بعض المقطعات أو القصائد القصيرة كانت في الأصل قصائد طويلة، ولكن المقّري اجتزأ منها ما أراده وأعجبه.

وقد استطعت أن أجمع لابن زمرك ألفين وأربعة عشر بيتاً وخمسة عشر موشحاً وثلاث رسائل ومقطوعتين نثريتين. فأما القصائد فمنها ثلاث وعشرون قصيدة على بحر الطويل[١] وثلاث وعشرون قصيدة على بحر الكامل[٢] وخمس قصائد على بحر البسيط[٣] ومنها مسمّطة من أربعة عشر سمطاً. وأما المقطعات فقد نظمت على الكامل والطويل والبسيط والرمل والخفيف والمجتث والوافر والسريع والمتقارب.

ولقد قمت، بعد إجراء إحصاء دقيق لما جمعته، بوضع سبعة جداول مفصلة[٤] تهدف إلى زيادة الإيضاح وتسهيل الكشف عن جميع نواحي هذه الدراسة.

ولا بدّ من التأكيد على أن الجدول الخامس المتضمن أهم الأحداث والماجريات الواقعة في العصر النصري الثاني، قد استغرق عمله وقتاً طويلاً إذ حرصت على أن يأتي دقيقاً وشاملاً، قدر استطاعتي، لأنه يلخص أحداث مائة عام من عمر الأندلس، وهو، في الواقع، جزء متمم للحالة السياسية في مملكة غرناطة.

يتألف هذا الكتاب من قسمين وخاتمة بالإضافة إلى هذه المقدمة التي تحدثت فيها عن أهم المصادر والمراجع التي تناولت ابن زمرك وشعره بالترجمة والدراسة.

فأما القسم الأول فمن بابين، أتحدث في الباب الأول منهما عن أحوال

---

(١) مجموعها ألف وسبعة وثمانون بيتاً.
(٢) مجموعها ألف وثلاثة وأربعون بيتاً.
(٣) مجموعها مائتان وثمانية وستون بيتاً.
(٤) راجع الصفحات ٢٤٧ ـ ٢٦٩ من هذه الدراسة.

البيئة في مملكة غرناطة، مبتدئاً بالحالة العمرانية وممهداً لها بالحديث عن الوضع الجغرافي للمملكة، ثم أتابع الحديث عن المباني التي شيّدها بنو نصر، وأتوسع في الكلام على قصر الحمراء الذي كان مقراً للغني بالله ولوزيره ابن زمرك، وكانت جدرانه بيوتاً مجصصة لأبيات أبي عبد الله الشعرية.

ثم أتبع هذا الحديث، بحديث عن الحالة السياسية في عصر الازدهار (القرن الثامن الهجري ـ الرابع عشر الميلادي) فأعدد الملوك المتعاقبين على عرش غرناطة في تلك الحقبة من الزمن وأشير إلى ماهية السياسة المتبعة في الداخل والخارج وإلى فترات الحرب والاستقرار وإلى معاهدات الصلح والصداقة بين المملكة وجيرانها وإلى الصراع والمنافسة بين أبناء الأسرة الحاكمة.

ثم أختم الباب الأول بالحديث عن الحالة الفكرية السائدة في غرناطة فأنطلق في الكلام على النهضة الأدبية في ذلك القرن وعلى تشجيع بني نصر للأدباء، معدداً أسماء نخبة من شعراء العصر وكتّابه ولغوييه وعلمائه وأطبائه وأسماء بعض مؤلفاتهم، من غير أن أنسى الحدث الكبير الذي تمّ على يد يوسف الأول وأعني به إنشاء المدرسة اليوسفية وتأمين أفضل الأساتذة الأكفاء لها.

أما الباب الثاني فأخصصه لبيان سيرة ابن زمرك فأصحح لفظ لقبه (ابن زمرك) وأتكلم على نسبه ومولده ودراسته وشيوخه ومناصبه التي تدرج فيها من الكتابة في الديوان إلى الوزارة. ثم أتطرق إلى تاريخ وفاته ـ وحوله خلاف كبير وأقوال متضاربة ـ فأحاول أن أحدده إنطلاقاً من بعض الوقائع الثابتة التي أكدها السلطان يوسف الثالث والمقّري، ثم ألمح إلى تلاميذه وأتحدث عن صفاته وأخلاقه وأسرد لمعاً من أخباره وأنهي هذا الباب بالكلام على آثاره.

وأما القسم الثاني ـ وهو لب الكتاب ـ فمؤلف من فصول خمسة،

أتناول في الفصل الأول منها الحديث عن نثره وأخصص الفصل الثاني بالكلام على شعره فأقسمه إلى مباحث خمسة: الأول في موشحاته والثاني في شعره المدحي من «مولديات» و«غنيات» ورثاء وفخر، والثالث في وصفه والرابع في غزله والخامس في المسحة الصوفية في شعره.

في الفصل الثالث أتناول فنية ابن زمرك بالدراسة فأتحدث عن تأثره بفنية من سبقوه، وعن أسلوبه في النظم وعن البحور التي نظم عليها قصائده وقوافيها، وعن الجوازات الشعريـة الواردة فيهـا، وعن الألفاظ والتـراكيب والوجوه البلاغية بشكل مفصل.

في الفصل الرابع أعرض سقطاته العروضية واللغوية والنحوية.

في الفصل الخامس - وهو أهم ما في الدراسة كلها - أتحدث عن التقليد عند الشاعر وأعطي أمثلة كافية عليه. ثم أقسم التجديد عنده إلى تجديد جزئي وابتكار، محاولاً أن أذكر، حصراً، الأبيات المتضمنة معانيـه المبتكرة.

ثم أخلص من هذا كله، إلى خاتمة أبين فيها منزلة الشاعر وأعطي رأيـي فيه وأسرد آراء النقاد القدامى والجدد في شعره وأؤكد على تمثيله عصره وعلى أهمية شعره الذي يتضمن أبياته المبتكرة الرائعة التي تكفي، وحدها، لوضعه في مصاف كبار الشعراء الأندلسيـين.

القسم الأول

الباب الأوّل

مملكة غرناطة

الفصل الأول : الحالة العمرانية

الفصل الثاني : الحالة السياسية.

الفصل الثالث : الحالة الفكرية.

الباب الثاني

سيرة ابن زمرك

الباب الأوّل
مملكة غرناطة

الفصل الأوّل
الحالة العمرانيّة

لا أود الدخول في مَهْمَهِ الحديث عن الأندلس الكبرى ولا عن أصل اسم غرناطة، ولا عن حروب الاسترداد «La Reconquista»[1] التي سبقت قيام مملكة غرناطة والتي تم بموجبها الاستيلاء على معظم مدن الأندلس، إنما أود أن أتعرف على أهم أحوال هذه المملكة، وبخاصة أحوالها العمرانية والسياسية والفكريةالتي سادت فيها إبّان القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي). لأن هذا التعرف سيساعدنا على فهم أوضح لنتاج ابن زمرك الأدبي، وبالتالي على تقويم أصح لهذا النتاج.

ولا بأس، قبل ذلك، في أن أذكر لمحة جغرافية عن هذه المملكة فأقول: عندما افتتحت الأندلس لم تكن غرناطة إلّا مدينة صغيرة من أعمال ولاية ألبيرة. إلّا أنه، بعد انهيار الخلافة الأموية، عاث البربر في نواحي

---

(١) بدأت هذه الحروب من جانب اسبانيا عقب الفتح الإسلامي بقليل في حمى الجبال الشمالية واستطاعت منذ منتصف القرن الثامن الميلادي (القرن الثاني الهجري) أن تدفع حدودها تباعاً نحو الجنوب. وحينما انهارت الدولة الإسلامية القوية ونشأت دول الطوائف، كانت طليطلة أول قاعدة إسلامية عظيمة تسقط في يد اسبانيا وذلك في صفر ٤٧٨هـ/أيار ـ حزيران سنة ١٠٨٥م. ولقد اشتدت حروب الاسترداد وقويت بشكل ملحوظ في أواسط القرن الثالث عشر الميلادي (أواسط القرن السابع الهجري) عقب سقوط القواعد الأندلسية الكبيرة.

(عنان، محمد عبد الله: «نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين»، مطبعة لجنة التأليف والنشر بالقاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٦٨هـ/١٩٤٩م، ص ٦٩ و٧٤).

ألبيرة، فتهدمت وخربت فحلّ محلّها مدينة غرناطة، وأصبحت قاعدة الولاية، فغلب على هذه الأخيرة اسم ولاية غرناطة. وهذه الولاية لم تصبح مملكة إلاّ منذ أوائل القرن السابع الهجري (أوائل القرن الثالث عشر الميلادي)، حين سقط أكثر مدن الأندلس[١].

وكانت هذه المملكة تضم مدناً وقرى كثيرة لعل أهمها: ألمرية ومالقة ووادي آش وبسطة والمنكب وشلوبانية ولوشة وبرشانة وبرجة وأندرش وبلش ورنده، بالإضافة إلى منطقة جبل طارق والجزيرة الخضراء وطريف[٢].

وكانت غرناطة المدينة معتدلة في أكثر أحوالها، وهي تبعد عن قرطبة مسافة خمسة أيام[٣]، ولشبهها بدمشق الشام لقبت بدمشق الأندلس[٤]. ذلك بأنها كانت مليئة بالخضر والفواكه الطيبة والثمر المدخر. وقد كثرت فيها البساتين والكروم والجنات حتى بلغ عدد هذه الأخيرة المائة في القرن الثامن الهجري (القرن الرابع عشر الميلادي) وفقاً لما ذكره ابن الخطيب[٥]. ولعل أشهر هذه الجنان: جنة العريف وجنة ابن عمران ومدرج نجد ومدرج السبيكة.

---

(١) ابن الخطيب: «الإحاطة..»، ١: ٩٩ وما بعدها. وعنان، محمد عبدالله: «نهاية الأندلس..» ص ٢١ وما بعدها.

(٢) ابن الخطيب: «الإحاطة..»، ١: ٩٩ وما بعدها. وعنان، محمد عبد الله: «نهاية الأندلس..»، ص ٢١ وما بعدها.

(٣) القلقشندي: «صبح الأعشى في صناعة الانشا»، نسخة مصوّرة عن الطبعة الأميرية، مطابع كوستا توماس وشركاه بالقاهرة، وزارة الإرشاد والثقافة، المؤسسة المصرية العامة، ٥: ٢١٤.

(٤) ذكر القلقشندي في «صبح الأعشى..»، ٥: ٢١٤ أن غرناطة «تشبه دمشق الشام، وتفضل عليها بأن مدينتها مشرفة على غوطتها وهي مكشوفة من الشمال» وذكر المقّري في «نفح الطيب..» أن غرناطة نزل بها أهل دمشق، وسمّوها باسمها لشبهها بها في القصر والنهر والدوح والزهر، والغوطة الفيحاء، وهذه مناسبة قوية العرى شديدة». (١: ١١٧ و١٤٦ و١٤٧ و١٧٦ و٣: ٢١٧ و٢١٨). وقد ذكر ابن سعيد في كتابه «المغرب في حلى المغرب» ج ٢ ص ١٠٢ عن «مسهب» الحجاري «أنها وإن سميت دمشق الأندلس، أحسن من دمشق...».

(٥) ابن الخطيب: «الإحاطة..»، ١: ١٢٢.

ولم يكن لجنانها مثيل في الحسن وطيب التربة، والتفاف الأشجار وكثرة المياه: فقد كان جبل شُلَيْر «Sierra Nevada»[١] قريباً منها، تنبجس من سفوحه العيون الكثيرة وينساب منه ثلاثون نهراً أهمها نهر شنيل أو سنجيل «Genil»[١] الذي يخترق فرعه المسمّى حدره أو هدره «Darro» غرناطة[١]. وكانت ضفتاه محفوفتين بالنبات والظلال وهو مسجور بالماء الرقراق المتأتي من ذوب الثلج الذي كان يتراكم على جبل شلير دائماً، ويغطي ساحات غرناطة في فصل الشتاء. من هنا صح هواء غرناطة فصحَّت جسوم أهلها وخشنت بشراتهم[٢].

وغرناطة المدينة كانت تضم في قسمها الشرقي متنزه السبيكة، وقصر الحمراء، وعدة أرباض يسكنها وجهاء القوم. وكانت تضم في قسمها الغربي حي القصبة وربض البيازين[٣]، وهو أكبر أحياء غرناطة وأوفرها عمراناً. كان يشتمل على أكثر الأسواق التجارية، وفيه يقوم الجامع الأعظم[٤]، وهو من أبدع الجوامع وأحسنها منظراً، أحكم بناؤه، وقام سقفه على أعمدة حسان، وجرى داخله الماء[٥].

---

(١) «جبل شلير المذكور طود شامخ، لا ينفك عنه الثلج شتاء ولا صيفاً، فهو لذلك شديد البرد، ويؤثر برده بغرناطة في الشتاء لقربه منها إذ ليس بينه وبينها سوى عشرة أميال». «أما شنيل فينحدر من جبل شلير بجنوبيها ويمر على غربي غرناطة إلى فحصها، يشق فيها أربعين ميلاً بين بساتين وقرى وضياع كثيرة البيوت..». «وأما حدره فينحدر من جبل بناحية واداياش شرقي شلير.. يقدّ المدينة نصفين وعليه خمس قناطر.. وعلى القناطر أسواق ومبان محكمة» (القلقشندي: «صبح الأعشى..»، ٥: ٢١٥).

(٢) ابن الخطيب: «الإحاطة..»، ١: ١٠٣ وما بعدها.

(٣) هو الحي الذي كان يسكنه البياسيون الذين أزاحهم المسيحيون عن وطنهم بياسة واستقروا هناك (فون شاك: «الفن العربي في اسبانيا وصقلية»، تعريب د. الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، ١٩٨٠م). «وهو ربض كثير العمارة، مستقل بحكامه وقضاته ويخرج منه خمسة عشر ألف مقاتل» (القلقشندي: «صبح الأعشى..»، ٥: ٢١٤).

(٤) المقّري: «نفح الطيب..»، ١: ١٥٠.

(٥) القلقشندي: «صبح الأعشى..»، ٥: ٢١٤.

وكان لغرناطة ثلاثة عشر باباً منها باب ألبيرة، وهو أضخمها، وباب الرملة وباب الفخارين... وكانت مساجدها لا تحصى[١]. على أن خطط غرناطة، أيام بني نصر، لم تُدرس بعد دراسة تخطيطية تاريخية وافية. فقد عالج سيكو دي لوسينا، بغير كثير من الدقة، دراستها، كما ذكر لِيفي ـ بروفِنْسَال في محاضراته[٢].

ولئن كان حيّوس بن ماكسن الصنهاجي هو الذي بنى قصبة غرناطة وأسوارها، ثم زاد في عمارتها ابنه باديس من بعده[٣]، فلقد أصبحت في عهد بني نصر مدينة مليئة بالأبنية الفخمة، عامرة بالقصور البديعة، كقصر جنة العريف الذي كان محطة صيفية لملوك غرناطة، وقصر شنيل القائم على مقربة من نهر شنيل. إلّا أن أبدع هذه القصور جميعاً، هو قصر الحمراء الذي ما زال، حتى اليوم، يمثل أروع الآثار العربية في اسبانيا. ولقد كان يؤلف في القرن الثامن الهجري (القرن الرابع عشر الميلادي) مدينة حقيقية مستقلة، تشرف على أحياء غرناطة المنخفضة[٢].

ولا بدّ، هنا، من وقفة قصيرة، أتحدث فيها عن هذا القصر. وذلك لسببين هامين، كل منهما كاف ليكون دافعاً إلى الحديث عنه بشيء من التفصيل. أولهما أن هذا القصر قد نال شهرة ضخمة غير عادية لفرادته وروعته[٤] ولكونه رمزاً لجانب واسع من الحضارة الإسلامية، حتى أصبح قبلة الرواد من سكان المعمورة، وغدا مادة دسمة وغرضاً مقصوداً لكثير من الكتاب والشعراء والفنانين والمفكرين[٥]. وثانيهما أن هذا القصر ضمّ بين

---

(١) القلقشندي: «صبح الأعشى..»، ٥: ٢١٤.

(٢) ليفي ـ بروفنسال: «محاضرات عامة في أدب الأندلس وتاريخها»، ص ٦٦ و ٦٧.

(٣) المقّري: «نفح الطيب..»، ١: ١٥٠.

(٤) ذكر بالنثيا في محاضرته المنشورة في كتاب «دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة» للدكتور الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، الطبعة الأولى، ١٩٨٠م، ص ٢٢٣ أنه «ليس للحمراء مثيل في كل المعمار المدني القائم في العالم الإسلامي».

(٥) من وحي هذا القصر ألف الكاتب الفرنسي المعروف شاتوبريان (١٧٦٨ ـ ١٨٤٨) كتابه «آخر =

جدرانه ملوك غرناطة ورجالاتها العظام، ومنهم ابن زُمْرَك، موضوع هذا الكتاب. فضلاً عن أن هذه الجدران حملت، وما تزال تحمل حتى اليوم، نقوشاً لأبيات شعرية كان ابن زُمْرَك، ذاته، أبرز أصحابها.

أما سبب تسميتها بالحمراء فقد وقع حوله اختلاف. فمن الكتّاب من زعم أنها سميت كذلك «لأن اللون الأحمر كان يكسو جدرانها»(١). ومنهم من قال إن السبب هو لون تربة أرضها التي أنشئت عليها(٢). وهناك رأي يقول إن هذا الاسم يرجع إلى لون الآجر الأحمر الذي بنيت به الأسوار الخارجية. وأنكر رابع هذا الرأي، لأنه «ثبت أن هذا اللون الأحمر الذي تبدو به الأسوار، يرجع إلى العصر الحديث، وأنه من صنع الاسبان»(٣). كما أنكر خامس أن يكون لهذه التسمية علاقة باسم بني الأحمر وذلك لأن قيام الحمراء يعود إلى القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)(٤). فقد أشارت الرواية الأندلسية إلى قلعة تسمى قلعة الحمراء بنيت فوق الهضبة الواقعة على ضفة

= بني سراج» «Les aventures du dernier Abencérage» ووضع الكاتب الأميركي واشنطن ايرفنغ (١٧٨٣ ـ ١٨٥٩) كتابه «الحمراء» «The Alhambra»: Irving ولحّن الموسيقي الاسباني الكبير مانويل دي فالا De Falla (١٨٧٦ ـ ١٩٤٦) «ليال في حدائق الأندلس». وأبدع الشاعر والكاتب الاسباني فرديريك غرسيا لوركا «Garcia - Lorca» (١٨٩٨ ـ ١٩٣٦) مؤلفه «رومانسيرو جيتانو» «Romancero Gitano» ونظم الشاعر الفرنسي تيوفيل غوتييه «Gautier» (١٨١١ ـ ١٨٧٢) بعض أجمل قصائده. (ليفي ـ بروفنسال: «محاضرات عامة في أدب الأندلس وتاريخها»، ص ٥٧ و ٥٨. والقلماوي، سهير: «... ثم غربت الشمس»، ص ٢٧).

(١) فون شاك: «الفن العربي في اسبانيا وصقلية»، ص ١٥٦.

(٢) بول، ستانلي: «قصة العرب في اسبانيا»، تعريب: علي الجارم بك، مطبعة المعارف، ١٩٤٤م، ص ١٨٦.

Lane - Poole, Stanley: «The Moors in Spain» (M.S.), London, 1920. Page 221.

(٣) عنان، محمد عبد الله: «الآثار الأندلسية الباقية في اسبانيا والبرتغال»، مؤسسة الخانجي بالقاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، الطبعة الثانية، ١٣٨١هـ/١٩٦١م، ص ١٩٠.

(٤) يذكر محقق كتاب «كناسة الدكان» لابن الخطيب، ان المسلمين الأولين هم الذين انشأوا القلعة الحمراء على تل السبيكة في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي)، وذلك في الصفحة ٥٩ منه.

نهر حدرّه اليسرى. ثم لما تولى باديس بن حيوس حكم غرناطة انشأ سوراً حول هذه الهضبة، وانشأ داخل السور قصراً سمّي بالقصبة الحمراء[١].

وحين أحكم محمد بن الأحمر، مؤسس المملكة، سيطرته على غرناطة انشأ حِصناً جديداً داخل السور كما أنشأ قصراً ملكياً. ثم توالت الإنشاءات على يد أولاده وأحفاده من بعده. ولم يكتمل الإنشاء الحقيقي لمباني الحمراء إلاّ في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) على يد أبي الحجاج يوسف الأول، سابع ملوك بني نصر، وعلى يد ابنه محمد الخامس الذي أتم ما بناه أبوه وأضاف إنشاءات جديدة أخرى.

ويتألف قصر الحمراء من أجنحة كثيرة أولها فناء الريحان «Patio de los Arrayanes»، وهو فناء كبير واسع تتوسطه بركة من الماء تظللها أشجار الريحان، وفي زوايا هذا الفناء، وعلى أفريزه الرخامي الأوسط، نُقشت آياتٌ من القرآن الكريم، وعباراتٌ تتضمن أدعية وتوسلاتٍ، وأبياتٌ شعرية تمدح من استرد الجزيرة الخضراء. ومطلع هذه الأبيات:[٢].

١ - تَبـارَكَ مَنْ وَلَّاكَ أَمْـرَ عِبـادِهِ فَأَوْلَى بِكَ الإِسْلَامُ فَضْلاً وَأَنْعُمَا
٢ - فَكَمْ بَلْدَةٍ لِلكُفْرِ صَبَّحْتَ أَهْلَهـا وَأَمْسَيْتَ في أَعْمَـارِهِمْ مُتَحَكِّمَـا[٣]

(١) عنان، محمد عبد الله: «الآثار الأندلسية الباقية...»، ص ١٨٩ و ١٩٠.

(٢) عدد كبير من أبيات هذه القصيدة جار عليه الزمن، اليوم، فلا يمكن قراءتها بسهولة (فون شاك: «الفن العربي في اسبانيا وصقلية»، ص ١٦٦ و ١٦٧. وعنان، محمد عبد الله: «الآثار الأندلسية الباقية..»، ص ١٩٣ و ١٩٤).

(٣) بعد هذا البيت، توجد أبيات ثلاثة غير مقروءة. وقد ذكرها لافوانتي القنطرة D. Emilio Lafuente y Alcantara في كتابه: «النقوش العربية في غرناطة»:
«Inscripciones arabes de Granada» (I.A.G.), Madrid, 1859.
ص ٩٤ و ٩٥ و ٩٦ وهي التالية:
«وَطَوَّقْتَهُمْ طَوْقَ الإِسَارِ فَأَصْبَحُوا بِبَـابِكَ يَبْنُـونَ الْقُصُـورَ تَخَـدُّمَـا
وَفَتَّحْتَ بِـالسَّيْفِ الْجَـزِيـرَةَ عُنْـوَةً فَفَتَّحْتَ بَـاباً كَـانَ لِلنَّصْرِ مُبْهَمَـا
وَمِنْ قَبْلِهَا اسْتَفْتَحْتَ عِشْرِينَ مَعْقِلاً وَصَيَّـرْتَ مَا فِيهَـا لِجَيْشِـكَ مَغْنَمَـا»

ومنها عن يمين الباب الشمالي المؤدي إلى البهو المجاور:

٣ ـ وَلَـوْ خُيِّرَ الإِسْـلامُ في ما يُـريدُهُ لَمَـا اخْتَارَ إلاَّ أَنْ تَعيشَ وَتَسْلَمَـا
٤ ـ لَقَـدْ لاَحَ أَنْوارُ الجَـلالِ بِبـابِـكَ يَفْتَـرُّ منهـا النَّدى بِشْـراً وَأَنْسُمَـا
٥ ـ وَتِلْكَ آثـارُهـا في كُـلِّ مَكْـرُمَـةٍ أَبْدى وَأَوْضَحُ بَـدْرٍ إذا انْتَظَمَـا[1]

ومنها عن يسار الباب:

٦ ـ فَيا ابْنَ العُلَى والحِلْمِ وَالبَأْسِ والنَّدى وَمَنْ فاقَ آفاقَ النُّجوم إذا انْتَمى
٧ ـ طَلَعْنَ بِأُفْقِ المليكِ نُـوراً وَرَحْمَةً لِيَجْلُوَ مَا قَدْ كَانَ بالـظُّلْمِ أَظْلَمَا
٨ ـ فَأَمَّنْتَ حَتَّى الغُصْنَ مِنْ نَفْحَةِ الصَّبَا وَأَرْهَبْتَ حتَّى النَّجْمَ في كَبِدِ السَّمَا
٩ ـ فَإِنْ رَعَشَتْ زُهْرُ النُّجـومِ فَخيفَةً وإنْ سالَ غُصْنُ البانِ شُكْرَكَ يَمَّمَا[2]

وقبل أن أحاول تحديد صاحب هذه القطعة، تجب الملاحظة هنا، أن هذه الأبيـات مليئة بـالأخطاء اللغـوية والعـروضية (الأبيـات الرابـع والخـامس والسابع). ويرجع هذا، كما يؤكد محمد عنـان إلى «أن كثيراً من نقـوش الحمراء الحالية هي من صنع محدث، نقلت بالرسم عن النقوش القديمة تحت إشراف الأثريين الاسبان، وتسربت إليها عند النقل أغلاط كثيرة»[3].

أما صاحب هذه الأبيات، فهو أحد اثنين لا ثالث لهما، وهما ابن الخطيب وابن زمرك. ذلك أننا نعرف أن هذه الأبيات قيلت في مدح من استرد الجزيرة الخضراء. ولقد كانت هذه الجزيرة قد سقطت بأيدي الاسبان في ذي القعدة سنة ٧٤٤هـ/آذار سنة ١٣٤٤م[4]. ثم حاصر محمد الخامس

(١) لافوانتي القنطرة: «I.A.G.»، ص ٩٥.
(٢) نفسه، ص ٩٦.
(٣) عنان، محمد عبد الله: «الآثار الأندلسية الباقية..»، ص ١٩٣.
(٤) الناصر السلاوي: «الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى»، المجلد الأول، الجزء الثاني، ص ٦٧. وابن الخـطيب: «كنـاسـة الـدكـان..»، ص ١٦٤. والقلقشنـدي: «صبـح الأعشى..»، ٥: ٢٦٢. ومجلة تطوان، مجلة الأبحاث المغربية الأندلسية، العـدد الثامن، السنة ١٩٦٣، ص ١٩٤.

هذه الجزيرة حتى الاستسلام، وذلك عام ٧٧٠هـ / ١٣٦٩م[١]. في ذلك الوقت كان ابن الخطيب وزير محمد الخامس وكان ابن زمرك أمين سره وكاتبه، وهما أكبر شاعرين في عصرهما. نستنتج من هذا كله، أن الأبيات من نظم أحدهما، لأنه من غير المعقول أن يأتي شاعر أقل منهما مرتبة ليمدح السلطان بقصيدة تنقش على جدران الحمراء!.

أيهما، إذاً، صاحب هذه الأبيات المنقوشة؟.

قد يخطر بالبال، أول الأمر، أن ابن الخطيب المستبد بأمر الدولة عهد ذاك، هو صاحبها، إلاّ أنني أرجح أن تكون لابن زمرك. وذلك لأني عشت ردحاً بين قصائده، وأصبحت أعرف أسلوبه، وأدرك روح نظمه. والأبيات المنقوشة أتت تحمل طابعه وأسلوبه، ويكفي، للتأكيد على هذا، أن أستشهد ببعض أبياته الشبيهة بالأبيات المذكورة معنىً وأسلوباً. قال:

«تَبَارَكَ مَنْ أَبْدَاكَ في كُلِّ مَظْهَرٍ..»[٢]
«وَأَعَـزَّ مَـنْ وَلاَّهُ أَمْـرَ عِبَـادِهِ..»[٣]
«كَمْ بَلْدَةٍ للكُفْر قَدْ عَوَّضْتَ مِنْ..»[٤]
«فَكَمْ مَعْقِلٍ للكُفْرِ صَبَّحْتَ أَهْلَهُ..»[٥]

وقد أكد الدكتور الطاهر أحمد مكي أن ابن زمرك هو صاحب الأبيات، ولكنه اعتمد في تأكيده هذا، على تعليل خاطىء إذ قال:

---

(١) الناصر السلاوي: «الاستقصا..»، ص ١٣١. و:

Derek, W. Lomax: «The Reconquest of Spain» (R.S.), New York, 1978, p. 168.
«Journal Asiatique» (J.A.), série 9, tome 12, p. 443.

(٢) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٣٢ و«نفح الطيب..»، ٧: ٢٢٥.
(٣) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٠٠.
(٤) نفسه، ٢: ١٠١.
(٥) نفسه، ٢: ٦٧. و «نفح الطيب..»، ٧: ١٩١.

«الواقع أن هذه الأبيات جزء من قصيدة تبلغ ٩٠ بيتاً، لابن زمرك، أنشدها السلطـان في ليلة ميلاد رسول الله، ﷺ، عقب ما فرغ من البنية الشهيرة ببابه، ويذكر المقّري أن لسان الدين سرد هذه القصيدة بطولها، ولكن المقرّي لم يورد منها غير بيتين هما مطلعها، وكذلك فعل لسان الدين ابن الخطيب في كتابه «الإحاطة..» ولعل إشارة المقّري كانت وهماً منه، أو لعله رآها كاملة فيما لم يصلنا من مخطوطات ابن الخطيب، أو فيما لا يزال مخطوطاً، والبيتان هما:

«تَـأَمَّـلَ أَطْـلاَلَ الهَـوَى فَتَـأَلَّمَـا وَسِيمَا الجَوَى وَالسُّقْمِ مِنْهَا تَعَلَّمَا
أَخُو زَفْرَةٍ هَاجَتْ لَهُ نَـارُ ذِكْرَةٍ فَأَنْجَدَ فِي شِعْبِ الغَرَامِ وَأَتْهَمَا»[١]

فإذا كان يعترف، هو نفسه، أن المقّري وابن الخطيب لم يدوّنا في كتابيهما، من ميمية ابن زمرك، إلاّ البيتين اللذين ذكرهما[٢]، فكيف بالله عرف أن الأبيات المنقوشة جزء من الميمية؟؟ أغلب الظن أنه اعتمد في تعليله على أن هذه الأبيات منظومة على بحر الميمية (وهو الطويل) وعلى رويها (وهو الميم المفتوحة).

فإذا كان هذا دليله الوحيد، ولا يبدو في قوله دليل آخر، فأعجبْ به من دليل!! ذلك بأننا نستطيع، تأسيساً على هذه الحجة الواهية، أن ننسب كل بيت نظمه ابن زمرك على بحر الطويل وروى الميم المفتوحة، إلى تلك الميمية التي لم يذكر منها المقّري ولا ابن الخطيب ألاّ بيتين اثنين على وجه التأكيد[٢].

أضف إلى هذا، أن الميمية ثنائية المناسبة، إذ نظمها ابن زمرك «عقب مَا فرغ (أي الغني بالله) من البنية الشهيرة ببابـه»[٢]، لا عقب استرداده

(١) فون شاك: «الفن العربي في اسبانيا وصقلية..»، حاشية الصفحة ١٦٧.
(٢) المقّري: «نفح الطيب..»، ٧: ١٥٤. وابن الخطيب: «الإحاطة..»، ٢: ٢٣٠.

الجزيرة الخضراء، وأنشده إيـاها في ليلة ميلاد رسول الله، ﷺ»[١]، لا في ليلة عادية. ولقد كان من عادة ابن زمرك أن يشغل في أكثر أبيات مولدياته بمدح الرسول، عليه الصلاة والسلام. وأضرب مثلاً على هذا، مـولديتـه الهمزية الثنائية المناسبة، والبالغة ستة وسبعين بيتاً، فليس فيها سوى ستة وعشرين بيتاً في وصف «المشور الأسنى» وفي مدح الغني بالله[٢]. على أن له مولديتين لم يذكر الغنيّ بالله إلاّ في ثلاثة أبيات منها[٣].

وإذا كان الأمر كذلك، فكيف يتسنّى لابن زمرك أن ينظم قصيدة ثلاثية المناسبة، من تسعين بيتاً، يمدح فيها الرسول، عليه الصلاة والسلام، ويصف البنية الشهيرة بباب السلطان، ويمدح هذا الأخير، ثم يفرغ بعد ذلك كله لوصف معركة الجزيرة وحصارها، وانتصار الغني بالله فيها واستردادها، مع ما يشكله هذا الاسترداد من حدث هام، يفوق بأهميته سائر الأحداث السياسية في ذلك العهد، لأنه يدغدغ أمل الغرناطيين في استرجاع ما استرده الاسبان من مدن أندلسية[٤].

إنه حدث يستحق قصائد طويلة أو على الأقل قصيدة واحدة كاملة. وأغلب الظن أن هذا ما فعله ابن زمرك. إذ لعله نظم قصيدة غير الميمية، يصف فيها انتصار الغني بالله، ثم اختير بعض أبياتها لتنقش على جدران الحمراء، فكانت هذه الأبيات التي نحن بصدد الكلام عليها.

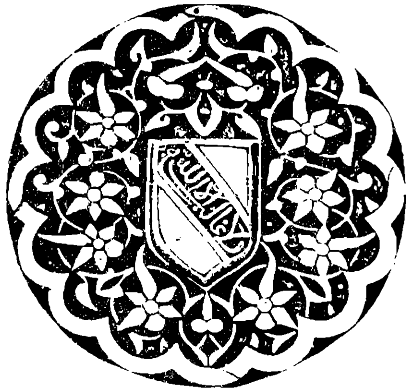
---

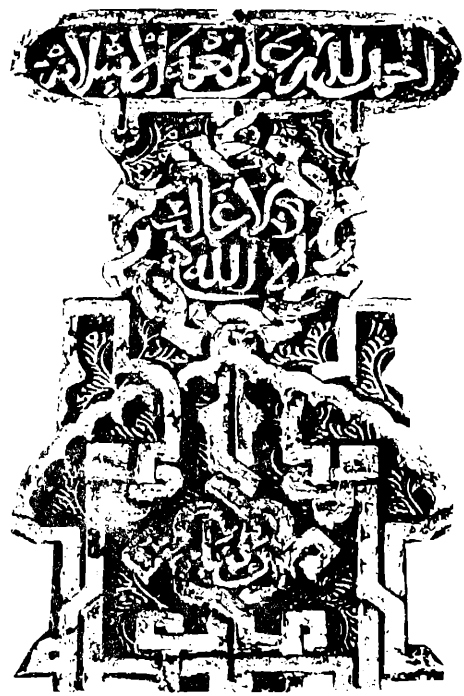
(١) المقرّي: «نفح الطيب. .»، ٧: ١٥٤. وابن الخطيب: «الإحاطة. .»، ٢: ٢٣٠.

(٢) المقّري: «أزهار الرياض. .»، ٢: ٤٧ ـ ٥١. و«نفح الطيب. .»، ٧: ١٧٩ ـ ١٨٣.

(٣) أولاهما حائية من سبعة وسبعين بيتاً على بحر البسيط. (المقّـري: «أزهار الـرياض. .»، ٢: ٥١ ـ ٥٥). وثـانيتهما مـوشحة بـائية المطلع عـلى بحـر السـريـع. (المقّـري: «أزهـار الرياض. .»، ٢: ٢٠٥ و٢٠٦. و«نفح الطيب. .»، ٧: ٢٨٠ و٢٨١).

(٤) لم يفارق الغرناطيين الأمل في استرجاع الأندلس. فقد كان يسود تفكيرهم المنطق التالي: انهم فتحوا اسبانيا وهم لا يملكون فيها شبراً من الأرض. فكيف لا يسترجعون ما فقدوه وهم يملكون غرناطة. (المرابط، جواد: «عبر وعبرات من دمشق الأندلس»، دار العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م، ص ٧ و٨).





«الحمد لله على نعمة الإسلام»
«ولا غـالـب إلّا الله» «ربنـا الله»

«Alhambra et le Généralife»
Ricardo Villa - Real y
Miguel Sanchez.
Traduction :Fernande et Marie Laffranque - Granada. p. 5.
«Tout Granada», p. 25.

ونعود بعد هذا، إلى متابعة وصف قصر الحمراء، فنأتي إلى قاعة السفراء أو قاعة قمارش «Sala de los Embajadores» وهي أعظم قاعات الحمراء وأفخمها، لسعتها وارتفاع سقفها الذي حفرت زخارفه على شكل نجوم. وقد نقش في عقد باب هذه القاعة، وفي بعض جوانبه، عبارات الحمد وأبيات شعرية مختلفة، بالإضافة إلى شعار بني نصر: «ولا غالب إلّا الله»، هذا الشعار الذي تكرر نفسه بشكل شامل ومنتظم في أعمال التزيين المجصص لجميع مباني الحمراء(١).

وفي الممر الذي يوصل إلى هذه القاعة توجد مشكاتان، نقش حول المشكاة الأولى الواقعة على اليمين، الأبيات الآتية:

أَنَـا مَـحْـلَاةُ عَـرُوسٍ ذَاتُ حُـسْـنٍ وَكَـمَـالِ
فَـانْـظُرِ الإبْـرِيـقَ تَعْـرِفْ فَضْـلَ صِـدْقِي فِي مَقَـالِ
وَاعْـتَـبِـرْ تَـاجِـي تَـجِـدْهُ مُـشْـبِـهـاً تَـاجَ الـهِـلَالِ
وَابْـنُ نَـصْـرٍ شَـمْسُ فَلْكٍ فِـي ضِـيَـاءٍ وَجَـمَـالِ
دَامَ فِـي رِفْـعَـةِ شَـانٍ آمِـنـاً وَقْـتَ الـزَّوَالِ

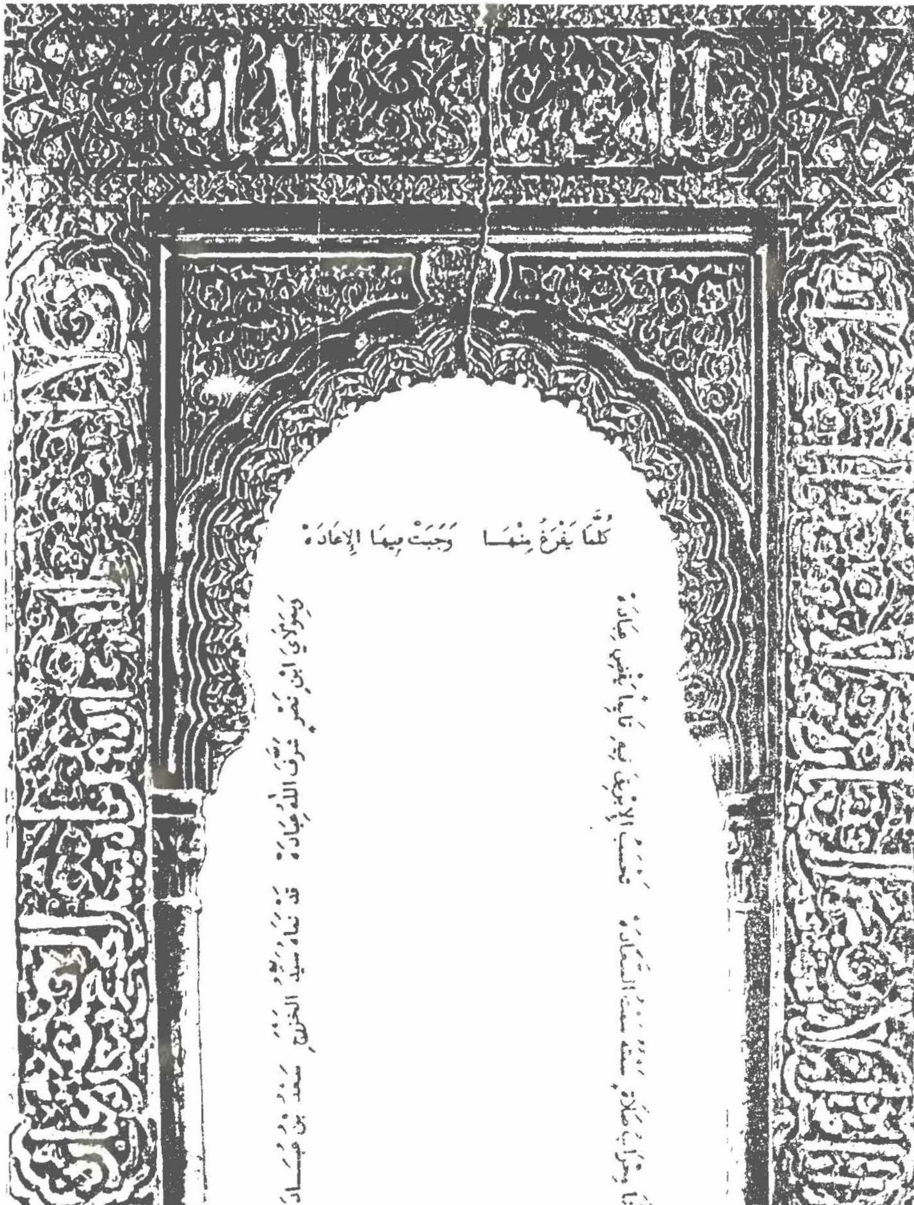
ونقش حول المشكاة الثانية الواقعة على اليسار:

أَنَـا مِـحْـرَابُ صَـلَاةٍ سَـمْـتُـهُ سَـمْـتُ الـسَّـعَـادَهْ
تَـحْـسَـبُ الإبْـرِيـقَ فِـيـهِ قَـائِـمـاً يَـقْـضِـي عِـبَـادَهْ
كُـلَّـمَـا يَـفْـرَغُ مِـنْـهَـا وَجَـبَـتْ فِـيـهَـا الإعَـادَهْ
وَبِـمَـوْلَايَ ابْـنِ نَـصْـرٍ شَـرَّفَ الـلَّـهُ عِـبَـادَهْ
قَـدْ نَمَـاهُ سَيِّـدُ الخَزْ (م) رَجِ سَـعْـدُ بْنُ عُـبَـادَهْ(٢)

(١) فون شاك: «الفن العربي في اسبانيا وصقلية»، ص ١٦٨ ـ ١٧١. وعنان، محمد عبد الله: «الآثار الأندلسية الباقية..»، ص ١٩٦ ـ ١٩٨.

Piquet, Victor: «L'Espagne des Maures» (E.M.), Paris, 1945. Page 217.

(٢) لافوانتي القنطرة: «I.A.G.»، ص ٩٨ و ٩٩. وبيكيه، فيكتور: «E.M.» ص ٢١٧.



(خمسة أبيات منقوشة حول المشكاة الواقعة على يسار قاعة السفراء. تراجع في أسفل الصفحة السابقة).

«L'Alhambra: Le Palais Royal», photo N° 11.

ومع أن أحداً لم يذكر اسم صاحب هذه الأبيات إلّا أني أرجح كونها لابن زمرك. فقد ذكر المقّري في «أزهاره» و«نفحه» مقطوعتين تشبهان إلى حد كبير، هاتين القطعتين المنقوشتين من حيث المعنى والألفاظ والوزن(١).

ثم نأتي بعد ذلك، إلى قاعة الأختين «Sala de las dos Hermanas» وربما سميت كذلك لوجود حنيتين فيها أو لأن أرضها مرصوفة بقطعتين من المرمر فريدتين في ضخامة الحجم. وقد نقشت حول جدرانها أبيات مقتبسة من قصيدة لابن زمرك، يصف فيها الحمراء(٢). وسأذكرها كلها، مضطراً، لأقارن بينها وبين يائيته في وصف دار الملك:

١ ـ أَنَا الروضُ قد أَصْبَحْتُ بالحُسْنِ حَالياً   تَأَمَّلْ جَمَالي تَسْتَفِدْ شَرْحَ حَالِيَا
٢ ـ أُباهي من المولَى الإمامِ مُحَمَّدٍ   بِأَكْرَمِ مَنْ يأتي ومن كانَ مَاضِيَا
٣ ـ ولِلَّهِ مبنَاهُ الجَمِيلُ فَإِنَّهُ   يفوقُ على حكمِ السُّعودِ المَبَانِيَا
٤ ـ فَكَمْ فيهِ للأبصارِ مِنْ مُتَنَزَّهٍ   تَجِدُّ به نفسُ الحليمِ الأمانِيَا
٥ ـ تبينُ لَهُ خُمْسُ الثُّرَيَّا مُعِيذَةً   وَيُصْبِحُ مُعْتَلُّ النَّواسِمِ رَاقِيَا
٦ ـ بهِ القُبَّةُ الغَرَّاءُ قَلَّ نَظِيرُهَا   تَرَى الحُسْنَ فيهَا مُسْتَكِنّاً وَبَادِيَا

(١) «.. وقال مما رسم في طيقان الأبواب بالمباني السعيدة التي ابتناها الغني بالله، رحمه الله تعالى:

أَنَا تَاجُ كَهِلَالِ   أَنَا كُرْسِيُّ جَمَالِ
يَنْجَلِي الإبريقُ فيهِ   كَعَرُوسٍ ذي اخْتِيَالِ
جُودُ مَوْلَانَا ابْنِ نَصْرٍ   قَدْ حَبَانِي بِالكَمَالِ»

(المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٣٩. و«نفح الطيب..»، ٧: ٢٢٩). «.. وفي قصر الغني بالله قالَ:

أيُّ قَوْسٍ ذي جَمَالٍ   سَهْمُهُ سَهْمُ السَّعَادَهْ
مَلِكُ الإبْرِيقِ فِيهِ   عَوَّدَ الإحْسَانَ عَادَهْ
ذُو صَلَاةٍ مِنْ صِلَاتٍ   كُلُّهَا دَأْباً مُعَادَهْ»

(المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٤٠. و«نفح الطيب..»، ٧: ٢٢٩ و ٢٣٠).

(٢) فون شاك: «الفن العربي في اسبانيا وصقلية»، ص ١٧٣ و ١٧٤. وعنان، محمد عبد الله: «الآثار الأندلسية..»، ص ١٩٨ و ١٩٩.





«تَمُدُّ لَـهَا الْجَوْزَاءُ كَفَّ مُصَافِحٍ وَيَدْنُوا لَهَا بَدْرُ السَّمَاءِ مُنَاجِيَـا»

(المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢ : ٧٢).

41 - Poème en Thuluth andalou, sculpté sur un médaillon en stuc de la Salle des Deux - Sœurs du palais royal de l'Alhambra, à Grenade. L'inscription, dont l'auteur est l'illustre poète et homme d'État arabe Ibn Zamrak (mort en 1393), célèbre la beauté de la résidence de l'Alhambra: *Les Gémeaux lui tendent une main amicale pour la saluer, la lune céleste attire auprès d'elle une affection murmurée.*

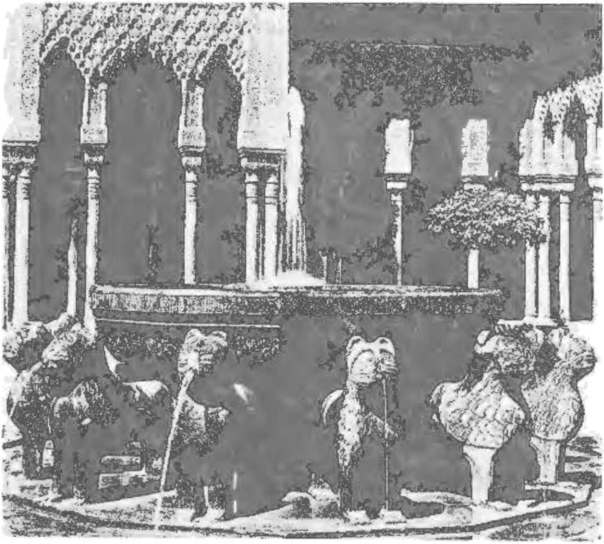
Safadi, Yasin Hamid: «Calligraphie Islamique», (C.I.), Paris, p. 57.

٧ - تَمُدُّ لَهَا الجَوْزَاءُ كَفَّ مُصَافِحٍ   وَيَدْنُو لها بَدْرُ السَّمَاءِ مُنَاجِيَا(١)
٨ - وَتَهْوَى النُّجُومُ الزُّهْرُ لَوْ ثَبَتَتْ بِهِ   وَلَمْ تَكُ فِي أُفْقِ السَّمَاءِ جَوَارِيَا
٩ - وَلَوْ مَثَلَتْ فِي سَاحَتَيْهَا وَسَابَقَتْ   إلى خِدْمَةٍ تُرْضِيهِ مِنهَا الجَوَارِيَا
١٠ - وَلاَ عَجَبٌ أَنْ فَاتَتِ الشُّهْبَ في العُلَى   وَأَنْ جَاوَزَتْ فِيهَا المَدَى المُتَنَاهِيَا
١١ - فَبَيْنَ يَدَيْ مَوْلاَيَ قَامَتْ لِخِدْمَةٍ   وَمَنْ خَدَمَ الأَعْلَى اسْتَفَادَ المَعَالِيَا
١٢ - بِهَا البَهْوُ قَدْ حازَ البَهَاءَ وَقَدْ غَدَا   بِهِ القَصْرُ آفَاقَ السَّمَاءِ مُبَاهِيَا
١٣ - وَكَمْ حُلَّةٍ جَلَّلْتَهُ بِحُلِيِّهَا   مِنَ الوَشْيِ تُنْسِي السَابِرِيَّ اليَمَانِيَا
١٤ - وَكَمْ مِنْ قِسِيٍّ فِي ذُرَاهُ تَرَفَّعَتْ   على عُمُدٍ بالنورِ بَاتَتْ حَوَالِيَا
١٥ - فَتَحْسَبُهَا الأفلاكَ دَارَتْ قِسِيُّهَا   تُظِلُّ عَمُودَ الصُّبْحِ إذْ لاَحَ بَادِيَا
١٦ - سَوَارِيَ قَدْ جَاءَتْ بِكلِّ غَرِيبَةٍ   فَطَارَتْ بِهَا الأَمثَالُ تَجْرِي سَوَارِيَا
١٧ - بِهِ المَرْمَرُ المَجْلُوُّ قَدْ شَفَّ نُورُهُ   فَيَجْلُو من الظَّلْمَاءِ مَا كَانَ دَاجِيَا
١٨ - إذَا ما أَضَاءَتْ بالشُّعَاعِ تَخَالُهَا   عَلَى عِظَمِ الأَجْرَامِ مِنْهَا لآلِيَا
١٩ - فَلَمْ نَرَ قَصْراً مِنْهُ أَعْلَى مَظَاهِراً   وَأَوْضَحَ آفاقاً وَأَفْسَحَ نَادِيَا
٢٠ - وَلَمْ نَرَ رَوْضاً مِنْهُ أَنْعَمَ نَضْرَةً   وَأَعْطَرَ أَرْجَاءً وَأَحْلَى مَجَانِيَا
٢١ - مُصَارَفَةُ النَّقْدَيْنِ فِيهَا بِمِثْلِهَا   أَجَازَ بِهَا قَاضِي الجَمَالِ التَّقَاضِيَا
٢٢ - فَإِنْ مَلأَتْ كَفَّ النسيمِ مَعَ الضُّحَى   دَرَاهِمَ نَوْرٍ ظَلَّ عَنْهَا مُكَافِيَا
٢٣ - فَيَمْلأُ حُجْرَ الروضِ حَوْلَ غُصُونِهَا   دَنَانِيرَ شَمْسٍ تَتْرُكُ الروضَ حَالِيَا
٢٤ - وَبَيْنِي وَبَيْنَ الفَتْحِ أَشْرَفُ نِسْبَةٍ   فَأَحْسَنُ مِنْهَا نِسْبَةً هُوَ مَا هِيَا(٢)

---

(١) يراجع هذا البيت منقوشاً في الصفحة الآتية.

(٢) لافوانتي القنطرة: «.I.A.G»، ص ١٢٨ و ١٣١. هذه الأبيات المنقوشة هي، في معظمها، جزء من يائية لابن زمرك أنشدها «في الصنيع المخصوص بعمنا الأمير أبي عبد الله -رحمة الله تعالى عليه- وأطنب في وصف دار الملك وغير ذلك من ضخامة آثار مولانا رضيَ الله تعالى عنه» (المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٦٩-٧٣. و«نفح الطيب..»، ٧: ١٩١-١٩٤). إلاّ أن الشاعر غيّر تركيبها الأصلي وبدّل بعض كلماتها وأضاف إليها أربعة أبيات جديدة =



«وَمَنْحُوتَةٍ مِنْ لُؤْلُؤٍ شَفَّ نُورُهَا   تُحَلِّي بِمُرْفَضِّ الجُمَانِ النَّوَاحِيَا
يَذُوبُ لُجَيْنٌ سَالَ بَيْنَ جَوَاهِرٍ   غَدَا مِثْلَهَا فِي الحُسْنِ أَبْيَضَ صَافِيَا
تَشَابَهَ جَارٍ لِلْعُيُونِ بِجَامِدٍ   فَلَمْ نَدْرِ أَيًّا مِنْهُمَا كَانَ جَارِيَا»

(من قصيدة لابن زمرك نُقش منها اثنا عشر بيتاً حول استدارة البركة الرخامية فوق رؤوس اثني عشر أسداً. وفي الصورة نلاحظ الأبيات منقوشة ولكنها غير مقروءة. وقد نُقش البيتان الثاني والثالث فوق الأسدين الظاهرين في الوسط. لانفواتي القنطره: «I.A.G.»، ص ١٢١ و ١٢٢).

«نافورة بهو الأسود»
Premier plan où apparaissent six des douze splendides lions qui entourent la jolie fontaine de marbre blanc.
«Tout Granada», p. 23.

وتُفضي قاعة الأختين من بابها الجنوبي، إلى فناء الأسود أو بهو الأسود «Patio de los leones»، وهو أشهر أجنحة الحمراء وأجملها. وقد قام بإنشائه الغني بالله، وهو كناية عن ساحة مستطيلة مكشوفة، في وسطها نافورة ماء، يستدير بحوضها المرمري اثنا عشر أسداً[١]. وتوجد في هذا الفناء طائفة منوعة من النقوش المكتوبة بالخط الكوفي الجميل، وأبرزها اثنا عشر بيتاً من قصيدة لابن زمرك نقشت فوق دائرة صحن النافورة التي تحملها الأسود وهي:

١ ـ تَبَارَكَ مَنْ أَعْطَى الإمَامَ مُحَمَّداً مَغَانِيَ زَانَتْ بالجَمَالِ المَعَانِيَا
٢ ـ وَإلاَّ فَهَذَا الروضُ فيهِ بَدَائِعٌ أَبَى اللَّهُ أَنْ يُلْفي لَهَا الحُسْنُ ثَانِيَا
٣ ـ وَمَنْحُوتَةٍ مِنْ لُؤْلُوءٍ شَفَّ نُورُهَا تُحَلّي بِمُرْفَضِّ الجُمَانِ النَّوَاحِيَا
٤ ـ يَذُوبُ لُجَيْنٌ سَالَ بَيْنَ جَوَاهِرٍ غَدَا مِثْلَهَا في الحُسْنِ أَبْيَضَ صَافِيَا
٥ ـ تَشَابَهَ جَارٍ للعُيُونِ بِجَامِدٍ فَلَمْ نَدْرِ أَيّاً مِنْهُمَا كَانَ جَارِيَا
٦ ـ أَلَمْ تَرَ أَنَّ المَاءَ يَجْرِي بِصَفْحِهَا ولكنَّهَا مَدَّتْ عَلَيْهِ المَجَارِيَا
٧ ـ كَمِثْلِ مُحِبٍّ فَاضَ بِالدَمْعِ جَفْنُهُ وَغَيَّضَ ذَاكَ الدَمْعَ إذْ خَافَ وَاشِيَا
٨ ـ وَهَلْ هِيَ في التَحْقِيقِ غَيْرُ غَمَامَةٍ تُفيضُ إلى الآسَادِ مِنْهَا السوَاقِيَا
٩ ـ وَقَدْ أَشْبَهَتْ كَفَّ الخَلِيفَةِ إذْ غَدَتْ تُفِيضُ إلى أُسْدِ الجِهَادِ الأيَادِيَا

= بحيث ظهرت وكأنها قصيدة مستقلة. وأعيد هنا ترقيم الأبيات وفقاً لورودها في القصيدة: جديد ـ جديد ـ ٦٠ ـ ٦١ ـ ١٢٣ جديد ـ ١٠٣ ـ ٦٢ ـ ٦٣ ـ ١٠٤ ـ ١٠٥ ـ ٦٤ ـ ٦٥ ـ ٦٦ ـ ٦٧ ـ ٦٨ ـ ٦٩ ـ ٧٠ ـ ٩٣ ـ ٩٢ ـ ٨٧ ـ ٨٨ ـ ٨٩ ـ جديد. وتجدر الإشارة إلى أنه فعل هكذا في كثير من الأبيات المنقوشة. وتمكن مراجعة هذه الأبيات بغير تبديل كلماتها وباستثناء الأبيات الجديدة لدى غرسيا ـ غومس: «مع شعراء الأندلس والمتنبي»، ص ٢٥٢ و٢٥٣ ولدى فون شاك: «الفن العربي في اسبانيا..»، ص ١٨٦ ـ ١٨٨.

(١) لافوانتي القنطرة: «I.A.G.»، ص ١٢١ و١٢٢. وعنان، محمد عبد الله: «الآثار الأندلسية الباقية..»، ص ١٩٩ ـ ٢٠٢. وفون شاك: «الفن العربي في اسبانيا..»، ص ١٨٥ و١٨٦.
يظهر هذا الحوض مع قسم من أسوده في صورة ألصقتها على الصفحة الآتية وهي مأخوذة من المجلة السياحية:
«Tout Granada», 3ème édition, Mars 1981, Espagne, Barcelona, p. 23.

١٠ ـ فَيَا مَنْ رَأى الآسادَ وَهْيَ رَوَابِضٌ عَدَاهَا الحَيَا عَنْ أَنْ تَكُونَ عَوَادِيَا
١١ ـ وَيَا وَارِثَ الأَنْصَارِ لاَ عَنْ كَلاَلَةٍ تُـرَاثَ جَـلاَلٍ يَسْتَخِفُّ الـرَّوَاسِيَا
١٢ ـ عَلَيْـكَ سَلاَمُ اللَّهِ فَـاسْلَمْ مُخَلَّداً تُجَـدِّدُ أَعْيَـاداً وتُبْلي أَعَـادِيَـا(١)

وشمالي فناء الأسود وقاعـة الاختين يقع البهو المعروف باسم غـرفة الأمراء أو منظرة ليندراخا «Mirador de Lindaraja» (وقد اختلف حول تفسير هذا الاسم)، وهي عبارة عن قاعة تطل على الحديقة المعروفة بالاسم نفسه والمشهورة بنافورتها التي تطوقها أشجار الليمون، والتي نقش على صحنها قصيدة من تسعة عشر بيتاً سطت عليها يد الزمن، كما يوجد في هذه المنظرة نقوش لأبيات شعرية وأدعية مختلفة تتوجها عبارة «ولا غالب إلاّ الله»(٢).

وفي مواجهة قاعة الأختين توجد قاعة أخرى تسمّى قاعة بني سراج «Sala de los Abencerrajes»، وهي بهو في وسطه حوض نافورة مرمري مستدير، في أعلاه قبة عالية مضلعة الدائرة، أبرز نقوشها عبارة «ولا غالب إلاّ الله»(٣).

وفي الناحية الشرقية لفناء الأسود تقع قاعة الملوك أو قاعة العدل أو الشريعة «Sala de los Reyes»، وفيها ثلاث حنايا، رسم في سقف الحنية الوسطى منها صورة عشرة أشخاص متعممين ملتحين. ويرى بعض الباحثين

---

(١) لافـوانتي القنطرة: «I.A.G.»، ص ١٢١ و١٢٢. وعنـان، محمـد عبـد الله: «الآثـار الأندلسية الباقية..»، ص ١٩٩ ـ ٢٠٢. وفون شاك: «الفن العربي في اسبانيـا وصقليـة» ص ١٨٥ و١٨٦.
تجدر الإشارة إلى أن البيتين الرابع والخامس والحادي عشر والثاني عشر هي الأبيات ٧٥ و٧٦ و١٤٣ و١٤٦ نفسها من يائية ابن زمرك التي نظمها في وصف دار الملك وضخامة الآثار (المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٧٠ ـ ٧٤. و«نفح الطيب..»، ٧: ١٩٢ ـ ١٩٥).

(٢) فون شاك: «الفن العربي في اسبانيا وصقلية»، ص ١٧٤. وعنان، محمد عبد الله: «الآثار الأندلسية الباقية..»، ص ٢٠٤ و٢٠٥.

(٣) فون شاك: «الفن العربي..»، ص ١٧٣ وعنان، محمد عبد الله: «الآثار الأندلسية..»، ص ٢٠٣.

أن هذه الرسوم لعشرة ملوك غرناطيين أولهم الغني بالله، وآخرهم السلطان أبو الحسن والد أبي عبد الله آخر ملوك بني نصر(١).

أما مسجد الحمراء (لم يعد موجوداً) فيقع في وسط الهضبة، وقد أمر ببنائه السلطان محمد الثالث. وينوه بذلك ابن الخطيب في كتابيه «الإحاطة..» و«اللمحة البدرية..»، فيقول:

«وأعظم مناقبه (أي محمد الثالث) ابتناء المسجد الأعظم بالحمراء من غرناطة على ما هو عليه من الظرف والتنجيد والترقيش من فخامة العمد وأحكام أتوار الفضة وابداع ثرياتها...»(٢).

وعلى الرغم من هذا، تطالعنا في فناء المسجد، وعلى افريز خشبي قريب من السقف، أبيات منقوشة ومزخرفة بشكل معقد، تصعب معه قراءتها، ويتحدث فيها صاحبها عن الغني بالله ويذكره باسمه(٣).

وأكتفي بهذا لأدلل على روعة الحمراء بنقوشها وزخارفها. والواقع أن وصفها لا يغني عن مشاهدتها. ذلك أن المرء يعجز لا محالة عن إعطاء وصف دقيق وصحيح وكامل لما بلغته الحمراء من الجمال والسحر، ولا بدّ من معاينة «هذا المسكن الذي بنته الجن» على حد قول فون شاك(٤)، معاينة تحمل صاحبها على الاستسلام لتأثير سحره المتنوع الدائم، وعلى التغني بجماله تماماً

---

(١) فون شاك: «الفن العربي..»، ص ١٧٥ و١٧٦. وعنان، محمد عبد الله: «الآثار الأندلسية..»، ص ٢٠٣ و٢٠٤.

(٢) ابن الخطيب: «الإحاطة..»، ١: ٥٥٤ ـ ٥٥٥. و«اللمحة البدرية في الدولة النصرية»، صححه ووضع فهارسه محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٤٧هـ، ص ٦٢ و٦٣.

(٣) لافوانتي القنطرة: «I.A.G.»، ص ١٥٤.

(٤) فون شاك: «الفن العربي..»، ص ١٨٥.

كما فعل فيكتور هوغو(١) الذي أنشد قائلاً:

«أيتها الحمراء! أيتها الحمراء! أيها القصر الذي زينتك الملائكة كما شاء الخيال، وجعلتك آية الانسجام! أيتها القطعة ذات الشرف المزخرفة بنقوش كالزهور والأغصان، والمائلة إلى الانهدام، حينما تنعكس أشعة القمر الفضية على جدرك من خلال قناطرك العربية يسمع لك في الليل صوت يسحر الألباب»(٢).

على أني لم أقصد من إيراد هذا التفصيل إلّا شيئاً واحداً: هو إبراز تلك الأبيات الشعرية التي نقشت على جدران الحمراء لتكون شاهداً خالداً على إبداع آخر كبار شعراء الأندلس وأعني به ابن زمرك.

ولا شك في أن الأبيات الشعرية المنقوشة على الأفاريز المحيطة بالأبواب والنوافذ، ليست جميعها، من نظم ابن زمرك ولكن أكثرها، في الغالب، من نظمه، كما يؤكد ليفي ـ بروفنسال «Lévi - Provençal» في «محاضراته»(٣)، وكما يؤكد ابن زمرك نفسه، حين يقول في رقعة من رقاعه:

«... وكل ما في منازله السعيدة من القصر والرياض والدشار والسبيكة، من نظم رائق، ومدح فائق، في القباب والطاقات والطرز وغير ذلك فهو لي..»(٤).

أخيراً، أدعو من يريد المزيد من هذا الوصف، إن لم يكن يرغب في المعاينة أو لا يستطيعها، أن يلجأ إلى قراءة ما كتب عن الحمراء وهو كثير

---

(١) Victor Hugo (١٨٠٢ ـ ١٨٨٥)م هو شاعر وكاتب فرنسي مشهور، وهو من أعلام الحركة الرومنطيقية. «Petit Larousse, 1979, p. 1422.».

(٢) لوبون، غوستاف: «حضارة العرب»، نقله إلى العربية: عادل زعيتر، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٧٩م، ص ٣٦٢ و٣٦٣.

(٣) ليفي ـ بروفنسال: «محاضرات عامة في أدب الأندلس..»، ص ٧٠.

(٤) المقّري: «نفح الطيب..»، ٧: ١٦٧.

كثير. . !(١). ولأبدأ بعد هذا كله، بالكلام على الحالة السياسية في مملكة غرناطة.

---

(١) يمكن الاطّلاع على الكتب التالية:
أ ـ عنان، محمد عبد الله: «الآثار الأندلسية الباقية في اسبانيا والبرتغال».
ب ـ فون شاك: «الفن العربي في اسبانيا وصقلية»، تعريب د. الطاهر مكي.
جـ ـ مجلة الأندلس العدد ٢٤، ص ٤٠٠ ـ ٤٠٨.
والعدد ٣٥، ص ٤٥٣ ـ ٤٧٣.
والعدد ٤١، ص ٢٠٧ ـ ٢١١.
والعدد ٤٢، ص ٤٤٧ ـ ٤٥١.
د ـ Lafuente y Alcantara, Emilio: «Inscripciones arabes de Granada».
هـ ـ Lambert, Elie: «Art musulman et art chrétien dans la péninsule ibérique».
و ـ Lévi - Provençal: «Inscriptions arabes d'Espagne».
ز ـ Irving, Washington: «The Alhambra».

الفصل الثاني

الحالة السياسية

تولّى حكم مملكة غرناطة بنو نصر أو بنو الأحمر. فأما اللقب الأخير فلا يعرف بالتأكيد ما أصله وما سببه(١). وأما اللقب الأول فيعود إلى أن مؤسس الدولة النصرية هو أبو عبد الله محمد بن يوسف، الغالب بأمر الله، وكان يعرف بالشيخ ويلقب بأمير المسلمين ـ وهو اللقب الذي غلب على سلاطين غرناطة في ما بعد ـ(٢) وهو من أحفاد نصر بن قيس الخزرجي الذي يرجع نسبه إلى سعد بن عباده سيد الخزرج وأحد كبار الصحابة(٣).

ويطلق العهد النصري أو العصر النصري على هذه الحقبة من الزمن الممتدة منذ مطلع الثلث الثاني من القرن الهجري السابع، وبالتحديد منذ سنة ٦٣٥هـ/١٢٣٨م ـ تاريخ استيلاء الغالب بالله محمد الأول ابن نصر على غرناطة ـ حتى سقوط هذه المملكة بكاملها في يد الاسبان عام ٨٩٧هـ / ١٤٩٢م، اثر معارك دامية حامية، تمكن في نهايتها فرناندو وإيزابيلا

---

(١) اختلفت الآراء حول هذه التسمية. فبعضهم يرى أنها أسبغت عليهم لإنشاء مؤسسهم حصن الحمراء ـ وهو رأى بيّن الخطأ ـ ويرجع بعضهم هذا اللقب إلى نضارة وجه المؤسس واحمرار شعره أو شقرته. (عنان، محمد عبدالله: «نهاية الأندلس..»، ص ٢٥ وبول، ستانلي: «قصة العرب في إسبانيا»، ص ١٨٥).

(٢) المقّرى: «نفح الطيب..»، ١: ٤٤٦. وعنان، محمد عبدالله: «نهاية الأندلس..»، ص ٥٢.

(٣) ابن الخطيب: «اللمحة البدرية..»، ص ٢١.

ملكا قشتالة وأراغون الموحدتين من إسقاط الدولة النصرية وإزالة الحكم الإسلامي من الأندلس[١].

ولئن جاز لنا أن نقسم هذا العهد النصري إلى عصور متمايزة كان هناك عصور ثلاثة:

١ ـ عصر التأسيس والبناء، ويمتد من سنة ٦٣٥هـ إلى سنة ٧١٣هـ (١٢٣٨ ـ ١٣١٤)م.
٢ ـ عصر الزهو والازدهار، ويمتد من سنة ٧١٣هـ حتى سنة ٧٩٤هـ (١٣١٤ ـ ١٣٩٢)م.
٣ ـ عصر الانهيار والسقوط، ويمتد من سنة ٧٩٤هـ حتى سنة ٨٩٧هـ (١٣٩٢ ـ ١٤٩٢)م.

وهذه القسمة الزمنية، مع انطباقها بشكل غير تام على الأحداث السياسية، تكاد تنطبق تماماً على الأحداث الأدبية، إذ أن الأدب كان أكثر ازدهاراً في العصر النصري الثاني أي في القرن الثامن الهجري (القرن الرابع عشر الميلادي) منه في العصرين الأول والثالث. ولا أدل على ذلك من أنه وجد في هذا القرن أكبر شاعرين موشحين كاتبين في العصور النصرية كلها وهما ابن الخطيب[٢] وتلميذه ابن زمرك. بالإضافة إلى طائفة من أكابر المفكرين والكتاب والشعراء.

على أن الصراع السياسي كان على أشده في القرن الهجري الثامن (القرن الرابع عشر الميلادي). فقد توالى على عرش غرناطة، منذ مطلع هذا القرن حتى نهايته، أحد عشر سلطاناً من بني الأحمر، كان أولهم محمد الثاني

---

(١) عنان، محمد عبدالله: «نهاية الأندلس..»، ص ٣٩ و ٤٠ و ٢٥٧. والمقّرى: «نفح الطيب..»، ٤: ٥١٠ ـ ٥٢٩.
(٢) سبق التعريف به في الصفحة ٦ من هذا الكتاب.

الملقب بالفقيه والذي خلف والده محمداً الأول مؤسس الدولة النصرية. فلما توفي سنة ٧٠١هـ/ ١٣٠٢م، تولى الحكم ابنه أبو عبد الله محمد الثالث الملقب بالمخلوع. و«أعظم مناقبه ابتناء المسجد الجامع بالحمراء»[١]. وأبرز حدث في أيامه تخليه عن طلب مساعدة بني مرين، وخضوعه لفرديناند ملك قشتالة إلى حد استيلائه على سبتة العائدة لملك المغرب[٢].

في سنة ٧٠٨هـ/١٣٠٩م أعتقل محمد الثالث وأرغم على التنازل لمصلحة أخيه نصر أبي الجيوش الذي لم يطل به المقام في الحمراء إذ أساء السيرة في الرعية والجند، وفرّ سنة ٧١٣هـ/١٣١٤م بعد هزيمته[٣]، وجلس مكانه على عرش غرناطة أبو الوليد إسماعيل الأول ابن فرج. وكان هذا صارماً جسوراً متعلقاً بأهداب الدين، حازماً في تطبيق حدوده، بحيث منع تعاطي المسكرات، وأوقف المناقشات في الأمور الدينية. وقد استطاع أن يهزم القشتاليين الزاحفين على غرناطة بقيادة دون بطره ودون خوان الوصيين على الفونسو الحادي عشر ملك قشتالة، واللذين قتلا في المعركة الحاسمة الجارية على هضبة ألبيرة، وذلك سنة ٧١٩هـ/١٣١٩م[٤].

إلّا أن السلطان إسماعيل الأول قتل على يد أحد أقربائه سنة ٧٢٥هـ/١٣٢٥م[٥]، فتولى مكانه ابنه أبو عبد الله محمد الرابع، وهو لا يزال

(١) ابن الخطيب: «الإحاطة..»، ١: ٥٥٤ ـ ٥٥٥.

(٢) كان ذلك سنة ٧٠٥ هـ/١٣٠٦ م (ابن الخطيب: «اللمحة البدرية..»، ص ٥٣ و«الإحاطة..»، ١: ٥٦٠).

(٣) ابن الخطيب: «اللمحة البدرية..»، ص ٢٢. وعنان، محمد عبدالله: «نهاية الأندلس..»، ص ١١٧. والقلقشندي: «مآثر الأناقة في معالم الخلافة»، تحقيق عبد الستار فراج، سلسلة التراث العربي رقم ١٢، الكويت، ١٩٦٤ م، الجزء الثاني، ص ١٤٥.

(٤) ابن الخطيب: «الإحاطة..»، ١: ٣٩٧ و«أعمال الاعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام»، تحقيق ليفي ـ بروفنسال، دار المكشوف، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٥٦ م.

(٥) ابن الخطيب: «الإحاطة..»، ١: ٤٠٢ و«اللمحة البدرية..»، ص ٢٢ و«أعمال الأعلام..»، ص ٢٩٥.

فتى. وكان حسن الصفات، ظاهر الفضائل، محباً للعظمة. وكان مولعاً بالمبارزات والمباريات الفروسية التي كان يظهر فيها رشاقته وبراعته في ركوب الأحصنة(١). ولقد جدد معاهدة الصلح بينه وبين خايمي الثاني ملك أراغون، ثم غزا أراضي قشتالة واستولى على عدة حصون واستعاد جبل طارق بعد مرور أربع وعشرين سنة على سقوطه في أيدي القشتاليين(٢).

ولكنه لم يهنأ طويلاً بانتصاراته، إذ سرعان ما اغتيل بتحريض من بني أبي العلاء، شيوخ الغزاة وقادة الجيش الغرناطي، وكان هذا سنة ٧٣٣هـ/١٣٣٣م(٣). فتولى أخوه أبو الحجاج يوسف الأول الحكم. وقد «اتفق الناس على بيعته وكانت سنه يومئذ قد توسطت من المراهقة.. إلى أن استقل... وعظمت حنكته وتوفرت تجربته»(٤). فكان من أعظم ملوك بني نصر.

وفي عهده نشبت معركة ريو سالادو «Rio Salado» أو معركة طريف الشهيرة بين اسبانيا الموحدة من جهة، وجيوش المغرب وغرناطة من جهة أخرى، ودارت فيها الدائرة على المسلمين، فهزم أبو الحسن سلطان المغرب، وعاد مع فلوله إلى بلده، وارتد يوسف الأول إلى غرناطة(٥).

وفي صبيحة عيد الفطر، سنة ٧٥٥هـ/١٣٥٤م، اغتيل يوسف الأول أثناء صلاته(٦). وتولى الحكم ابنه محمد الخامس الغني بالله، ولم يكن يتجاوز

---

(١) De marlès, M.: «Histoire de la domination des Arabes et des Maures en Espagne et en Portugal», (H.D.A.M.E.P.), Paris, 1825, p. 180.

(٢) كان هذا الجبل قد سقط بيد قشتالة بعد محاصرته سنة ٧٠٩هـ/١٣١٠م (الناصر السلاوي: «الاستقصا..»، ص ٥٩ وعنان، محمد عبد الله: «نهاية الأندلس..»، ص ١١٦ و ١٢٤).

(٣) ابن الخطيب: «الإحاطة..»، ١: ٥٤٩ و«اللمحة البدرية..»، ص ٢٢. والقلقشندي: «مآثر الانافة..»، ص ١٤٥.

(٤) ابن الخطيب: «أعمال الاعلام..»، ص ٣٠٥.

(٥) كان ذلك أواسط سنة ٧٤١ هـ/ أواخر ١٣٤٠م. (عنان، محمد عبد الله: «نهاية الأندلس..»، ص ١٢٧).

(٦) القلقشندي: «مآثر الانافة..»، ص ١٦٦. وابن الخطيب: «أعمال الاعلام..»، ص ٣٠٦. =

العشرين من عمره. ولقد كان يملك كل الصفات النبيلة التي اتصف بها أغلب أسلافه: من دماثة وأنس وحسن معاشرة وكرم وشجاعة وعناية مفرطة بسعادة الاتّباع، ورعاية للآداب وتشجيع للعلم. وكان يشبه أباه في ميوله فكان إنساناً رحوماً، لا يستطيع أن يملك دموعه أمام منظر الشقاء، ولا أن يقبض يده أمام مشهد العوز والفقر. ولهذا حاز احترام الشعب وحبه(١).

وقد تمشت أيامه على أتم ما يكون من الأمان وخصب الزمان وقلة الحوادث وانسدال الأمن، إلّا ما كان من لحاق عيسى بن الحسن ابن أبي منديل العسكري المريني بجبل الفتح وامتناعه فيه. ولكن سرعان ما سحق تمرده(٢). وما أن حل الثامن والعشرون من رمضان سنة ٧٦٠هـ/آب ١٣٥٩م حتى استولى على الأمر أخوه إسماعيل، فقتل حاجبه رضوان واعتقل كاتبه لسان الدين بن الخطيب، وفر الغني بالله إلى وادي آش(٢).

واتصل الخبر بالسلطان المولى أبي سالم ابن أبي الحسن ملك المغرب، «فامتعض لمهلك رضوان وخلع السلطان رعياً لما سلف لـه في جوارهم. وأزعج لحينه أبا القاسم الشريف من أهل مجلسه لاستقدامه، فوصل إلى الأندلس، وعقد مع أهل الدولة عـلى إجازة المخلوع من وادي آش إلى المغرب، وأطلق من اعتقاله الوزير الكاتب أبا عبد الله بن الخطيب...»(٣).

وفي سنة ٧٦١هـ/١٣٦٠م قتل إسماعيل، وقتل معه أخ له صغير اسمه قيس، وذلك على يد محمد السادس المعروف بالبرميخو الذي حل محله. إلّا

= وابن خلدون: «العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر»، مصور عن طبعة بولاق، طبعة ١٢٨٤هـ، ٧: ٣٣٢.

(١) Scott, S.P.: «History of the Moorish empire in Europe», (H.M.E.E.), 1904, p. 487 - 488.
Imamuddin, S.M.: «A Political history of Muslim Spain»,(P.H.M.S) pakistan,1961,p.180.
De marlès: «H.D.A.M.E.P.», p. 230.

(٢) ابن الخطيب: «اللمحة البدرية..»، ص ٢٢ و١٠٧ و«الإحاطة..»، ١: ٣٨ وابن خلدون: «العبر..»، ٧: ٣٠٦.

(٣) ابن خلدون: «العبر..»، ٧: ٣٠٦ و ٣٠٧.

أن ثورة نشبت في غرناطة، قتل فيها محمد السادس واستطاع محمد الخامس أن يسترد ملكه سنة ٧٦٣هـ/١٣٦٢م، كما استطاع أن يقضي على مؤامرة لخلعه سنة ٧٦٧هـ/١٣٦٦م(١).

وكانت مرحلة حكمه الثانية يسودها الازدهار والهدوء النسبي. وقد سلك فيها الغني بالله مسلك القوة والحزم، واشتهر بصرامته وعدله. ثم إنه أكثر من العمران والانشاءات فاكتمل في عهده قصر الحمراء. وقد أمر ببناء المارستان الأعظم في غرناطة(٢). وقد جرّد عدة حملات منصورة ما بين ٧٦٧ ـ ٧٧١هـ / ١٣٦٦ ـ ١٣٧٠م، فاستعاد الجزيرة الخضراء وبطرنة وبرغة وجيرة وحصن أشر وحصن السهلة وأطريرة وأبدة وجيان، ووصل إلى أبواب أشبيلية(٣).

واطمأن الغني بالله إلى ما حققه من نصر، وأوقف حملاته هذه، والتفت إلى دولة المغرب، وعمل على أن تكون له يد في سياستها. فبدأ بنزع جبل طارق من سلطة بني مرين، وكان آخر معقل لهم في أرض الأندلس، واحتل

---

(١) ابن الخطيب: «أعمال الأعلام..»، ص ٣٠٧ و«اللمحة البدرية..»، ص ١١٧ و ١١٨ و«الإحاطة..»، ١: ٤٣ و٢: ١٥. وابن خلدون: «العبر...»، ٧: ٣٣٤.

(٢) كان هذا المارستان قائماً على الضفةاليمنى من نهر حدرّة. وقد هدم في القرن الماضي، ولم يبق منه إلّا لوحة رخامية كبيرة موجودة في متحف الحمراء، وقد نقش عليها تاريخ إنشاء المارستان على يد السلطان الغني بالله. ومما جاء في هذا النص: «الحمد لله، أمر ببناء هذا المارستان، رحمة واسعة لضعفاء مرضى المسلمين، وقربة نافعة، إن شاء الله، لرب العالمين، وخلد حسنته ناطقة باللسان المبين... المولى الإمام السلطان الهمام... أمير المسلمين الغني بالله أبو عبد الله محمد... فكان ابتداء بنائه في العشر الوسط من شهر المحرم من عام سبعة وستين وسبعمائة (أيلول ١٣٦٥م)، وتم ما قصد إليه ووقف الأوقاف عليه في العشر الوسط من شوال من عام ثمانية وستين وسبعمائة (أيار ١٣٦٧م)...» (لافوانتي القنطرة: «I.A.G.»، ص ١٧٢ و١٧٣. وعنان، محمد عبد الله: «الآثار الأندلسية..»، ص ١٧٨ و ١٧٩. وليفي ـ بروفنسال: «I.A.E.» لوحة رقم ٤١).

(٣) ابن الخطيب: «الإحاطة..»، ٢: ٤٨. وابن الأحمر، أبو الوليد إسماعيل: «نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان»، تحقيق د. محمد رضوان الدايه، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٧م، حاشية الصفحة ٢٧١.

الجهة الأخرى من مضيق سبته، ففسد ما بينه وبين سلطان فاس. ثم لم يكتف بهذا حتى أوجد له منافساً في شخص أبي العباس أحمد ابن السلطان أبي الحسن، واستطاع أن يصل بهذا المنافس إلى عرش المغرب، ثم أزاحه وعمل على تولية سلطان آخر غيره، ثم أعاده، ثم. . .[١].

وهكذا أمضى الغني بالله حكماً طويلاً بفضل مهارته وبراعته في الحكم من جهة وبفضل الاضطرابات التي كانت تمزق يومئذ قشتاله، واختلاف المسيحيين ونزاعاتهم الداخلية التي تحولت إلى حرب أهلية، من جهة أخرى. ولقد كان في قدرة الغني بالله، لو أنه لم يوجه اهتمامه للتدخل في عرش المغرب، أن يفيد كثيراً من خلافات الاسبان ومنازعاتهم، ومن ضعف الملوك الأوائل من أسرة ترانستمارا بالذات، ولعل مصير اسبانيا كان قد تغير![٢].

ولقد دامت سلطة الغني بالله حتى وفاته ٧٩٣هـ/١٣٩١م، حيث تولى السلطة بعده، ولده أبو الحجاج يوسف الثاني[٣] الذي توفي سنة ٧٩٤هـ/١٣٩٢م، وحل مكانه ولده محمد السابع (٧٩٤هـ ـ ٨١١هـ / ١٣٩٢ ـ ١٤٠٨م)[٤].

وبهذا الأخير يكون قد مر على عرش غرناطة، منذ مطلع القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) حتى نهايته، أحد عشر سلطاناً. فإذا استثنينا أبا الحجاج وولده الغني بالله اللذين حكما مدة ستين عاماً، وجدنا أنه، في خلال أربعين عاماً وحسب قد تعاقب تسعة سلاطين على حكم غرناطة[٥].

(١) بيكيه، فيكتور: «E.M.»، ص ٢٢١ و٢٢٢. وبشأن تولي أبي العباس مرتين بمساعدة الغني بالله، يراجع المقّري: «أزهار الرياض. .»، ٢ : ٣٥.

(٢) بيكيه، فيكتور: «E.M.»، ص ٢٢١ و ٢٢٢.

(٣) القلقشندي : «مآثر الأنافة. .»، ص ٢٠٢. وعنان، محمد عبد الله: «نهاية الأندلس. .»، ص ٤٨ و ٤٩.

(٤) القلقشندي : «صبح الأعشى. .»، ٥ : ٢٦٣. ومجلة «الأندلس»، مجلد ٢٤، ص ٤٠٨ ومجلد ٤٢ ص ٤٤٧.

(٥) يراجع الجدول رقم ٦ بأسمائهم في الصفحة ٢٤٨ من هذا الكتاب.

مما مرّ ندرك كم كانت المنافسة على تولي العرش كبيرة! ومع ذلك كان أمراء الأسرة الحاكمة ينعمون، بصورة عامة، بقسط وافر من الاستقلال، والحرية، وهذا ما أدى في أواخر العهد الغرناطي إلى تسهيل انتصار الاسبان(١).

على أن هذا الصراع السياسي لم يكن محصوراً بالأندلس الصغرى، وحدها، وإنما كان ظاهراً في المغرب وفي بلاد قشتالة وأراغون. ولئن كان الاستئثار بالسلطة هو الدافع الأبرز إلى اختلاف الأشقاء والأبناء والآباء في الدولة الواحدة، فلقد كان حب التوسع واحداً من أهم دوافع الحروب التي قامت بين كل من هذه الدول وسائرها.

وكثيراً ما اتّحدت قوات الغرناطيين والمغاربة لمحاربة الاسبان. إلاّ أن العصر شهد أيضاً اتفاق الغرناطيين والأراغونيين ضد قشتالة وضد المغاربة!(٢).

ولقد كانت السلطة السياسية في مملكة غرناطة بيد السلطان، فهو الرئيس الوحيد للمجتمع الغرناطي، ويأتي بعده الوزير الذي كان، أحياناً، حاجباً وربما تجاوز، أحياناً أخرى، صلاحياته فكان الحاكم الفعلي للمملكة(٣).

أما السياسة الخارجية فقد كان يفرضها موقف المملكة إزاء قشتالة، وكانت تتراوح بين الخضوع والتبعية وبين الحرب. وقد أدى هذا إلى فترات غير متساوية من السلام ـ الذي كان يحبذه بعض الساسة والتجار والفلاحين بهدف الحفاظ على استقرار السلطة والتبادل التجاري والمواسم الزراعية ـ والقتال ـ الذي كان يحث عليه العلماء والفقهاء عامة الشعب، وكان تأثيرهم

(١) Terrasse, Henri: «Islam d'Espagne» France, 1958, p. 206.

(٢) «Journal Asiatique», série 9, Tome 12, p. 440.

(٣) Terrasse, Henri: «Islam d'Espagne», (I.E.), pp. 206 et 207.

عليهم يتعاظم ويقوى كلما مر الزمن ولاحت مهاوي السقوط والزلل ـ[١].

ولقد كانت معاهدات الصلح تعقد في أحيان كثيرة بين المتحاربين، إلّا أن كثيراً منها كان يخرق ولا يعمل به، لتعود الحرب سجالاً بين الفرقاء: كل من القشتاليين والأراغوانيين يسعى إلى استرداد أكبر قدر ممكن من المدن والحصون الأندلسية، وما منع هذا أن تقوم بينهم خلافات كثيرة. أما بنو نصر، في غرناطة، فكانوا يحاولون أن يوقفوا زحف الاسبان. وكان لديهم نواة دائمة من الفرسان والمشاة، معززة، بفرق المجندين بحيث كانوا يملكون جيشاً قادراً على أن يرد حملات الاسبان واعتداءاتهم، وعلى أن يقوم بدوره بغزوات ناجحة على حدود الممالك الاسبانية. ولقد كان الفرسان المغاربة يشكلون قسماً لا يستهان به من جيش غرناطة. ولقد كانوا مشهورين بمهارتهم في القتال وسرعة حركتهم فيه. وعلى الرغم من هذا، فقد كان النصريون يطلبون المدد العسكري من بني مرين[٢] تلو المدد. وكان المرينيون لا يتهربون أبداً من واجب الجهاد المقدس ضد اسبانيا المسيحية، فقد كانوا يريدون، بهذا الجهاد، أن يسبغوا على دولتهم معنى شرعياً إسلامياً. ولذلك قاموا، بين سنتي ٦٧٢هـ و٧٤٤هـ (١٢٧٣ ـ ١٣٤٤م) بعبور مضيق جبل طارق مراراً كثيرة بهدفي الدفاع والهجوم، واستطاعوا أن ينزلوا الخسائر الفادحة بالأسبان، ولكنهم لم يستطيعوا أن يبدلوا حدود مملكة غرناطة[٣].

(١) Terrasse, Henri: Islam d'Espagne», (I.E.), pp. 206 et 207.

(٢) «تأسست مملكة بني مرين المغربية بصفة نهائية في عهد أبي يوسف يعقوب (١٢٥٨ ـ ١٢٨٦م/ ٦٥٦ ـ ٦٨٥هـ). وقد اضطرت مملكة غرناطة، من جهتها إلى البحث، بقصد ضمان وجودها، عن التحالف مع المرينيين ضد الممالك النصرانية باسبانيا حتى توقف، بقدر الإمكان، زحف حملة الاسترداد، كما بحثت أيضاً عن التحالف مع الممالك النصرانية الاسبانية ضد المرينيين، محاولة منها لمقاومة النفوذ المغربي المتزايد في الأندلس». «ولقد بدأ التدخل المريني في إسبانيا ببعث إرسالية في سنة ١٢٧٥ م / ٦٧٤ هـ بعد طلب محمد الثاني ملك غرناط مساعدة أبي يوسف يعقوب، مقابل تسليمه إياه مدينتي الجزيرة الخضراء وطريف». (مجلة تطوان، العدد ٨، سنة ١٩٦٣، ص ١٩١).

(٣) Terrase, Henri: «I.E.», pp. 207 et 208.

على أن النصريين لم يكونوا يرتاحون دائماً لمساعدة بني مرين لهم، فقد كانوا يشعرون أن مساعدتهم لم تكن بريئة، أحياناً، من شعور الطمع[1].

الصِراع، إذاً، مستمر يكاد لا يهدأ. ولئن هدأ عاد أشد مما كان عليه. ومن سمات هذا الصراع، في هذا العصر، قيام بعض الثورات الأهلية داخل هذه الدول. وقد كان منها ما ينجح ولو لفترة، ومنها ما كان يسحق فينهار[2].

على أنه لا شيء آكد على اشتداد الصراع، ولا أوضح بياناً لحدته، ولا أدل على وفرة الأحداث السياسية من إلقاء نظرة متأنية على الجدول الخامس[3] الذي تحددت فيه، بالتأريخين الهجري والميلادي، أهم الأحداث والماجريات الواقعة في العصر النصري الثاني، موثقة ومدعمة بأشهر المصادر والمراجع.

---

(١) ابن خلدون: «العبر..»، ٧: ٨٩ و ١٩٩.

(٢) ابن الخطيب: «اللمحة البدرية..»، ص ٥٣. والقلقشندي: «صبح الأعشى..»، ٥: ٢٦٣.

(٣) تراجع الصفحة ٢٤٧ من هذه الدراسة.

الفصل الثالث

الحالة الفكرية

استمر قيام مملكة غرناطة، أو الأندلس الصغرى، ما يجاوز، بقليل، قرنين ونصف قرن من الزمن. واستمرت في حمل لواء الحضارة الأندلسية. فتطاولت فيها الحركة الفكرية بحيث بلغت ذروة التقدم والازدهار في العصر النصري الثاني، وبخاصة في عهدي السلطانين يوسف الأول (٧٣٣ ـ ٧٥٥هـ / ١٣٣٣ ـ ١٣٥٤)م وابنه الغني بالله محمد الخامس (٧٥٥ ـ ٧٩٣هـ / ١٣٥٤ ـ ١٣٩١)م.

وكان لتشجيع ملوك بني نصر أثر واضح في هذه النهضة الفكرية، إذ كانوا، بصورة عامة حماة للفكر والأدب، بل إن كثيراً منهم كانوا يعدّون من جملة الأدباء والعلماء.

فهذا هو محمدالثاني (ت ٧٠١هـ /١٣٠٢م) الذي أربى على والده بـ «إيثار العلماء والأطباء والحكماء والكتاب والشعراء وقرض الأبيات الحسنة»[١]. وقد وقف ابن الخطيب على كثير من شعره ووصفه بأنه نمط «مستظرف من الملوك والأمراء»[٢].

وهذا هو محمد الثالث[٣] «يقرض الشعر ويصغي إليه، ويثيب عليه فيجيز الشعراء. . . ويعرف مقادر العلماء. . . وكان له شعر مستظرف من

(١) ابن الخطيب: «الإحاطة. .»، ١: ٥٦٥.

(٢) نفسه، ١: ٥٦٦. و «اللمحة البدرية. .»، ص ٣٨.

(٣) حكم من ٧٠١ هـ حتى ٧٠٨هـ (١٣٠٢ ـ ١٣٠٩)م.

مثله لا بل يفضل به الكثير ممن ينتحل الشعر من الملوك»[١].

وكذلك كان محمد الرابع[٢] «يحب الأدب ويرتاح إلى الشعر وينبه على العيون ويلم بالنادرة الحارة»[٣].

وعرف عن يوسف الأول أنه كان عالماً شاعراً، يحمي الآداب والفنون. وهو «عذب الكلام... وافر العقل... إلى ثقوب الذهن وبعد الغور والتفطن للمعاريض...»[٤]. وهو الذي أمر بإنشاء المدرسة الجامعة في غرناطة على يد حاجبه أبي النعيم رضوان[٥]، وسمّيت بالمدرسة النصرية أو المدرسة اليوسفية تيمناً باسم منشئها. وقد أوقف عليها الحاجب رضوان، بأمر السلطان، الأوقاف الجليلة حتى «جاءت نسيجة وحدها بهجة ورصداً وظرفاً وفخامة»[٦].

ولقد تم بناء هذه المدرسة «العجيبة بكر المدارس»[٧] في مطلع سنة ٧٥٠هـ/١٣٤٩م، وظلت منهلاً للعلم والأدب مدة طويلة، حتى هدمها الاسبان في أوائل القرن الثامن عشر الميلادي (الثاني عشر الهجري) ووزعوا بعض آثارها على مختلف متاحفهم[٨].

ولئن كان يجدر بي أن أتوسع قليلاً في الكلام على هذه المدرسة ـ بسبب علاقة شاعرنا ابن زمرك بها، إذ أقام فيها فترة يتلقى العلم ثم يدرّس

---

(١) ابن الخطيب: «الإحاطة..»، ١: ٥٥٣. و«اللمحة البدرية..»، ص ٤٨.

(٢) حكم من ٧٢٥هـ حتى ٧٣٣هـ (١٣٢٥ ـ ١٣٣٣)م.

(٣) ابن الخطيب: «الإحاطة..»، ١: ٥٤٠.

(٤) ابن الخطيب: «اللمحة البدرية..»، ص ٨٩.

(٥) هو أبو النعيم رضوان النصري الحاجب المعظم، حسنة الدولة النصرية وفخر مواليها.. أحدث المدرسة بغرناطة... وبنى من الأبراج المنيعة... ما ينيف على ٤٠ برجاً. غزواته كثيرة. قتل في رمضان ٧٦٠هـ/آب ١٣٥٩م. (ابن الخطيب: الإحاطة..»، ١: ٥١٤ ـ ٥٢١).

(٦) ابن الخطيب: «كناسة الدكان بعد انتقال السكان»، تحقيق د. محمد كمال شبانه، مراجعة د. حسن محمود، دار الكاتب العربي بالقاهرة، ص ١٥٦.

(٧) ابن الخطيب: «اللمحة البدرية..»، ص ٩٦.

(٨) ابن الخطيب: «كناسة الدكان..»، ص ١٥٥.

الأدب ـ فإنه يخلق بي أن أشير إلى أن متحف غرناطة الأثري يحتوي لوحات رخامية عائدة لهذه المدرسة[١]. ومن هذه اللوحات واحدة سجل عليها اسم منشئها وتاريخ الانتهاء من إنشائها، جاء فيها:

«أمر ببناء هذه الدار للعلم، جعلها الله استقامة ونوراً وأدامها في علوم الـدين على الأيـام، أمير المسلمين ـ أظله الله بعـونـه ـ. . . أبـو الحجـاج يوسف. . . كافى الله في الإسلام صنائعه الزاكية، وتقبل أعماله الجهادية، وتم ذلك في شهر محرم عام خمسين وسبعمائة»[٢].

وإذا كانت المصادر لا تذكر شيئاً عن تاريخ البدء ببناء المدرسة، فإني استطيع أن أحدده على وجه التقريب، فأزعم أنه مطلع الثلث الأخير من العام الهجري ٧٤٩/١٣٤٨ ـ ١٣٤٩م. والذي يرجّح هذا الزعم، هو أن باب المدرسة قد نقش عليه أبيات أربعة حائية الروى وعلى بحر البسيط، من نظم الوزير ابن الجياب[٣]. فإذا عرفنا أن هذا الوزير الشاعر قد توفي في الثالث والعشرين من شوال سنة ٧٤٩هـ/١٤/١/١٣٤٩م، أدركنا، بالتالي، أن بناء المدرسة قد بدأ قبل هذا التاريخ بفترة قصيرة، لعلها لا تتجاوز مطلع

(١) ليفي ـ بروفنسال: «I.A.E.»، لوحة رقم ٣٨، فيها مقاطع نقشية للمدرسة.

(٢) ابن الخطيب: «كناسة الدكان. .»، ص ١٥٥.

(٣) هو أبو الحسن علي بن محمد بن سليمان الجياب الأنصاري الوزير والشاعر الكبير. ولد في غرناطة في جمادى الأولى عام ٦٧٣هـ/ تشرين الثاني ١٢٧٤م، وتوفي ليلة الأربعاء ٢٣ شوال عام ٧٤٩هـ/١٤ كانون الثاني عام ١٣٤٩م وذلك بسبب وباء الطاعون الذي انتشر في أواخر صفر من عام ٧٤٩هـ/ أواخر أيـار ١٣٤٨م. (المقّري: «نفح الطيب. .»، ٥: ٤٤٥. وابن الخطيب: «الكتيبة الكامنة. .»، ص ١٨٣. وابن الأحمر: «نثير فرائد الجمان. .»، ص ٢٣٩ و«نثير الجمان. .»، ص ١٢٥. وابن فـرحون: «الـديباج المذهب في معرفـة أعيان علماء المذهب، مطبعة السعادة، الطبعة الأولى، ١٣٢٩هـ، ص ٢٠٧). أما أبياته فهي التالية:

«يَـا طَـالِبَ العِلْمِ هَـذَا بَـابُـهُ فُتِحَـا ... فـادْخُلْ تُشَـاهِدْ سَنَـاهُ لاحَ شَمْسَ ضُحَى

واشْكُـرْ مُجِيـرَكَ مِنْ حَـلٍّ وَمُـرْتَحَـلِ ... إِذْ قَـرَّبَ اللَّهُ مِنْ مَرْمَـاكَ مَـا نَـزَحَـا

وَشَـرَّفَـتْ حَضْـرَةَ الإِسْـلَامِ مَـدْرَسَـةٌ ... بِهَـا سَبِيـلُ الهُـدَى والعِلْمِ قَـدْ وَضَحَـا

أَعْـمَـالُ يُـوسُـفَ مَـوْلَانَـا وَنِـيَّـتُـهُ ... قَـدْ طُـرِّزَتْ صُحُفـاً ميزَانُهَـا رَجَحَـا»

(المقّري: «نفح الطيب. .»، ٥: ٤٥٧ و ٤٥٨).

رمضان سنة ٧٤٩هـ/أواخر ت ١ سنة ١٣٤٨م.

وحين خلف ابن الخطيب أستاذه ابن الجياب في الوزارة، انشأ قصيدة ميمية من تسعة أبيات، على بحر الطويل[١]، أمر بنقشها على أحد جدران المدرسة، ثم أوقف عليها، بعد ذلك، نسخة من كتابه «الإحاطة..»[٢].

أما الأساتذة القائمون فيها بمهمة التدريس، والذين لم يكونوا، جميعاً، من مملكة غرناطة، بل كان بينهم من أتى من المغرب، فلا أستطيع أن أذكر منهم إلّا الذين نصت المصادر صراحة على أنهم قعدوا للاقراء بالمدرسة. وهم: أبو زكريا بن هذيل[٣]، وأبو سعيد بن لُبّ[٤] وأبو محمد ابن

(١) هي التالية:

أَلا هَكَـذَا تُبْنَـى المـدارسُ لـلعلْمِ ... وَتَبْقَى عُهـودُ المجْـدِ ثـابتَـةَ الـرسْمِ
وَيُقْصَـدُ وجهُ اللّهِ بـالعَمَـلِ الـرضَـا ... وَتُجْنَى ثِمـارُ العـزِّ مِنْ شَـجَـرِ العَـزْمِ
تُـفَـاخِـرُ مِنِّي حَضْـرَةُ المُـلْكِ كُـلَّمَـا ... تَقَـدَّمَ خَصْمٌ في الـفَخَـار إلى خَصْـمِ
فَـأَجْـدَى إِذَا ضنَّ الغَمـامُ مِنَ الـحَيَـا ... وَأَهْـدَى إذا جَـنَّ الـظَلامُ من الـنَّجْـمِ
فَيَـا ظَـاعِـنـاً لـلعِلْمِ يَـطْلُبُ رِحْـلَةً ... كُفِيتَ اعتـراضَ البِيـدِ أَوْ لُجَـجَ اليَـمِ
بِبَـابِيَ حُطَّ الـرَّحْـلَ لا تَـنْـوِ وِجْـهَـةً ... فَقَـدْ فُزْتَ في حـالِ الإِقَـامَـةِ بـالغُنْمِ
فَكَمْ مِنْ شِهَـابٍ فـي سَمَـائِيَ ثَـاقِبٍ ... وَمِـنْ هَـالَـةٍ دَارَتْ عَـلَى قَـمَـرٍ تِـمِّ
يَـفِيـضُـونَ مِنْ نُـورٍ مُـبينٍ إلى هُـدًى ... وَمِنْ حِكْمَـةٍ تَجْـلُو القُـلُوبَ إلى حُـكْمِ
جَزَى اللّهُ عَنِّي يُـوسُفـاً خَـيْـرَ مَـا جَـزَى ... مُـلُوكَ بَنـي نَصْـرٍ عَـنِ الـدِّينِ وَالعِلْمِ

(ابن الخطيب: «كناس الدكان..»، ص ١٥٥ و ١٥٦).

(٢) ابن الخطيب: «كناسة الدكان..»، ص ١٥٦.

(٣) هو الفقيه أبو زكريا يحيى بن أحمد بن هذيل التجيبي الأغرناطي (؟ - ٢٥ ذي القعدة ٧٥٣هـ/؟ - ٢ كانون الثاني ١٣٥٢م). كان شاعراً مبدعاً وخطيباً وطبيباً مشهوراً وعالماً وحكيماً. اختص بصحبته لسان الدين الخطيب، وأخذ عنه الطب والتعاليم والمنطق وصناعة التعديل. قعد بالمدرسة يقرىء الأصول والفرائض والطب. (ابن الخطيب: «الكتيبة الكامنة..»، ص ٧٣ و ٧٤. وابن الأحمر: «نثير فرائد الجمان..»، ص ٣٢٠ - ٣٢٢. والمقّري: «نفح الطيب..»، ٥: ٤٨٧ - ٤٩٧).

(٤) هو أبو سعيد فرج بن قاسم بن أحمد بن لب التغلبي الغرناطي (٧٠١ - ١٧ ذي الحجة ٧٨٢هـ/ ١٣٠١ - ١٦ آذار ١٣٨١م). كان عالماً، عارفاً بالعربية واللغة، مبرزاً بالتفسير، مشاركاً في الأصلين والفرائض والأدب. أقرأ بالمدرسة النصرية عام ٧٥٤هـ/١٣٥٣م. قل بالأندلس في وقته من أئمتها الجلة من لم يأخذ عنه. ومن أكابرهم الإمام الشاطبي والأستاذ الحفار وابن بقي وأبو محمد بن جزي وابن الخطيب وابن زمرك. وله تآليف منها شرح جمل =

جُزَيّ[١] وأبو عبدالله بن الفخار[٢]، وأبو عبد الله البيّاني[٣]، وأبو عبدالله ابن مرزوق[٤]، وأبو علي الزواوي[٥].

= الزجاجي، وشرح تصريف التسهيل. . . وله فتاوى مدونة بأيدي الناس. (ابن الخطيب: «الكتيبة الكامنة. .»، ص ١٦٧. والمقّري: «نفح الطيب. .»، ٥: ٥٠٩ - ٥١٤. والتنبكتي، أحمد بابا: «نيل الابتهاج بتطريز الديباج»، مطبوع بهامش «الديباج المذهب. .» لابن فرحون، ص ٢١٩ و ٢٢٠. والسيوطي: «بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة»، حققه محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، الطبعة الثانية، ١٩٧٩، جزءان، ٢: ٢٤٣ و ٢٤٤).

(١) هو أبو محمد عبد الله بن أبي القاسم محمد بن أحمد بن جزي الكلبي (؟ - ؟) «إن ذكر النحو أزرى بحفاظ بصرته، وسل على كافة الكوفيين صوارم نصرته، أو ذكر البيان، أنسى الخبر العيان. . . وشعره، وإن شغلته عنه شواغل الفنون، مظنة اللؤلؤ المكنون. . . وهو الآن بمدرسة الحضرة يعرب فيغرب». (ابن الخطيب: «الكتيبة الكامنة. .»، ص ٩٦. والتنبكتي: «نيل الابتهاج. .»، ص ١٥٤ و ١٥٥ والمقّري: «نفح الطيب. .»، ٥: ٥٣٩).

(٢) هو محمد بن علي بن أحمد الخولاني، يعرف بابن الفخار وبالألبيري (؟ - رجب ٧٥٤هـ/آب ١٣٥٣م). كان إماماً في النحو بحيث لقّب بسيبويه العصر. درّس بالمدرسة النصرية. (ابن الخطيب: «نفاضة الجراب وعلالة الاغتراب»، تحقيق د. أحمد العبادي، راجعه د. عبد العزيز الأهواني، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ص ٦٦. والسيوطي: «بغية الوعاة. .»، ١: ١٧٤ و ١٧٥).

(٣) هو محمد بن إبراهيم بن محمد السياري ويعرف بـ «البياني». اقرأ الفقه ودرّسه وانتصب للفتيا. . . كان يشارك في العربية والفرائض والأصول، وكان خطيباً جهورياً بليغ الخطبة. . . توفي بالمدرسة النصرية عام ٧٥٣هـ/١٣٥٢م. (ابن فرحون: «الديباج المذهب. .»، ص ٢٩٧. وقد ذكره ابن الخطيب دون أن يترجمه في «أعمال الأعلام. .»، ص ٢٩٧. وقد ذكره ابن الخطيب دون أن يترجمه في «أعمال الأعلام. .»، ص ٣٠٠، وفي «الإحاطة. .»، ١: ٢١٠).

(٤) هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن محمد ابن أبي بكر بن مرزوق العجيسي التلمساني ويلقب بشمس الدين (٧١١ - ربيع الأول ٧٨١هـ/١٣١١ - حزيران - تموز ١٣٧٩م). هو «فارس منبر. . غاصّ المنزل بالطلبة. . مشارك في فنون من أصول وفروع وتفسير، يكتب ويشعر ويقيد ويؤلف. . .»، وله شرح كتاب «الشفاء» للقاضي عياض، وشرح «العمدة» في خمسة أسفار، وشروح أخرى. قدم الأندلس في أواخر ٧٤٨هـ/١٣٤٨م، قعد للاقراء بالمدرسة عام ٧٥٣هـ/١٣٥٢م. وفي أخريات عام ٧٥٤هـ/أواخر ١٣٥٣م رحل إلى المغرب. (التنبكتي: «نيل الابتهاج. .»، ص ٢٦٧ و ٢٦٨. وابن خلدون: «العبر. .»، ٧: ٣٩٨. والسيوطي: «بغية الوعاة. .»، ص ٤٦ و ٤٧. والمقّري: «نفح الطيب. .»، ٥: ٣٩٠. وابن فرحون: «الديباج المذهب. .»، ص ٣٠٥. وابن خلدون: «التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً، دار الكتاب اللبناني - دار الكتاب المصري، ١٩٧٩م، ص ٥٠).

(٥) هو أبو علي منصور بن علي بن عبدالله الزواوي (٧١٠؟ - ٧٧٠؟هـ/ ١٣١٠؟ - ١٣٦٩؟م)، =

ولكنني أستطيع، بالمقابل، أن أؤكد أن نخبة ممتازة من علماء ذلك العصر وأدبائه تعاقبوا على التدريس فيها. ذلك بأن المسؤولين الغرناطيين كانوا مهتمين لأمر المدرسة اهتماماً كبيراً، فلا يعقل، في هذه الحالة، أن لا يؤمنوا لها أفضل المدرسين كفاءة وأشهرهم معرفة واطلاعاً.

وأما العلوم التي كانت تدرس فيها، فقد كان على رأسها العلوم النقلية كعلم الأصلين وفروعهما من فقه وتفسير وتصوف... وعلوم العربية وما يتصل بها من فنون كالنحو والبلاغة والخطبة... وبعض العلوم الطبيعية كعلم الفيزياء وعلم الطبيعيات[1].

وقد تخرّج من هذه المدرسة الكثير، وأفادوا منها فأفادت منهم بلادهم، ومن هنا كان السلطان أبو الحجاج حريا بأن يعدّ حامياً للعلوم، مشجعاً للآداب، حاضاً على التعلّم.

ثم جاء ابنه محمد الخامس، من بعده، ليتابع نهجه والسير على خطاه. فبالإضافة إلى أن له محاولات في النظم، ومن ذلك أبيات خمسة كتب بها إلى ابن زمرك فأجاب عنها هذا الأخير بعشرة أبيات عينية الروى على بحر الكامل[2]... أقول بالإضافة إلى هذا، لم يكن الغني بالله أقل من والده تشجيعاً للفكر وتكريماً للعلم. ولا أدل على هذا من أن ابن خلدون، حين قدم إلى غرناطة، لقيه كل إكرام وترحيب، بل هو اختاره ليكون سفيره إلى ملك قشتالة في سبيل عقد الصلح وتنظيم العلاقات السلمية بين

= نزيل تلمسان، يكتب، يشعر، كان عارفاً علم الأصول الفقهية وعلم الأصلين. قدم الأندلس عام ٧٥٣هـ/١٣٥٢م، فتقدم مقرئاً بالمدرسة، تحت جراية نبيهة، متكلماً على الفروع الفقهية والتفسير، متصدراً للفتيا. (التنبكتي: «نيل الابتهاج..»، ص ٣٤٥ و٣٤٦).

(١) إمام الدين: «P.H.M.S.»، ص ١٧٩. وحول موضوع المدارس في المغرب والأندلس يراجع بحث الدكتورة وداد القاضي في مجلة الفكر العربي، العدد ٢١ السنة الثالثة، ص ٦١.

(٢) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٣٨.

دولتيهما[١]. حتى إذا أتم ابن خلدون مهمته بنجاح وعاد إلى غرناطة، أقطعه الغني بالله قرية ألبيرة بمرج غرناطة، وسمح له باستقدام أسرته، بل بعث هو في استقدامها[٢].

على أن وزراء الدولة النصرية وكتّابها كانوا، جميعهم، من أهل القلم، وهم يشكلون، في الواقع، طليعة أدباء العصر. ويتأكـد هذا حـين أذكر الأديب الكاتب الخطيب الشاعر أبا عبد الله بن الحكيم وزير محمد الثـاني ومحمد الثالث، والشاعر المبدع والكاتب البليغ أبا الحسن عليا بن الجياب كاتب نصر وإسماعيل الأول ومحمد الرابع ووزير أبي الحجـاج، والشاعـر الموشح الكاتب المؤرخ الخطيب الطبيب لسان الدين بن الخطيب وزير الحجاج والغني بالله، وصاحبنا الشاعر الموشح الكاتب ابن زمـرك وزير الغني بـالله ويوسف الثاني ومحمد السابع.

ولقد برز، غير هؤلاء، في القرن الثامن الهجري، كثير من الشعراء الكتّاب الغرناطيين الذين حددوا، بما صاغوه من شعر ونثر، مكانة الأدب الأندلسي في ذلك القرن. ونجد نماذج كثيرة من أشعارهم في كتب التراجم. وأشهر هؤلاء: أبو جعفر أحمد بن خاتمة الأنصاري شاعر المريـة[٣]، وابن

---

(١) عنان، محمد عبد الله: «لسان الدين بن الخطيب: حياته وتراثه الفكري»، مكتبة الخانجي بالقاهرة، مطبعة الاستقلال الكبرى، الطبعة الأولى، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م، ص ١١٣.

(٢) نفسه، ص ١٣ و ١١٤.

(٣) هو أبو جعفر أحمد بن علي بن محمد بن علي بن محمد بن خاتمة الأنصاري ويعرف بابن خاتمة (٧١٠؟ - أواخر سنة ٧٧٠هـ/١٣١٠؟ - أوائل ١٣٦٩م). شاعر المرية الكبير، قال عنه ابن الخطيب في الإحاطة إنه «جيد القريحة... حسنــة من حسنات الأندلس، وطبقة في النظم والنثر». له ديوان شعر، وكتاب تأريخي بعنوان «مزية المرية على غيرها من البلاد الأندلسية»، ورسالة بعنوان «تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد» وصف فيها الوباء الذي عصف بالمرية وسائر البلاد سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨م. وله رسائل اخوانية كثيرة، منها رسائل وجهها إلى ابن الخطيب ومنها رسالة إلى ابن جزي.

(ابن الخطيب: «الإحاطة..»، ١: ٢٤٧، و«الكتيبة الكامنة..»، ص ٢٣٩. وابن الأحمر: «نثير فرائد الجمان..»، ص ٣٣١، و«نثير الجمان في شعر من نظمني وإياه الزمان»، حققه د. محمد رضوان الداية وسمّاه «أعلام المغرب والأندلس في القرن الثامن»، سلسلة دراسات =

الحاج النُّمَيْري(١)، وأبو عبد الله بن اللَّوْشِي(٢) وابن هُذَيْل(٣)، وأبو بكر محمد بن شِبْرِين(٤)، وأبو جعفر أحمد بن صَفْوَان(٥)، وابن الحاج

= أندلسية رقم ٨، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م، ص ١٧٥. والتنبكتي: «نيل الابتهاج..»، ص ٧٢. والمقّري: «نفح الطيب..»، ١: ١٦٣ و٦: ٢٨ و٣٣ و٣٤ و٣٧).

(١) هو أبو إسحق إبراهيم بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم.. النميري الغرناطي المعروف بابن الحاج (٧١٢؟ - ٧٦٥؟هـ /١٣١٢؟ - ١٣٦٤؟م)، شاعر وكاتب، ونثره تلو شعره في الإجادة. قال عنه إسماعيل بن الأحمر في «نثير فرائد الجمان..»: «شاعر حاطم وبحر كتب موجه متلاطم، وجعجعة بها طحن ومعرب إفصاح لم يحلل به لحن». أرسم في كتابة الإنشاء عام ٧٣٤هـ/١٣٣٣ - ١٣٣٤م، واستعمل في السفارة إلى الملوك، وولي القضاء بقرب غرناطة. له رحلة دوّنها في مجلد سمّاه «فيض العباب، وإجالة قداح الآداب، في الحركة إلى قسنطينة والزاب». (وكانت موضوع بحث كتبه أ. ل. بريمار A.L. Premare في مجلة «Revue d'histoire de civilisation de Mahgreb Juillet, 1970, p. 34.» وله كذلك تآليف كثيرة، منها كتاب «اللباس والصحبة» الذي جمعت فيه طرق المتصوفة والمدعى أنه لم يجمع مثله، وكتاب «نزهة الحدق في ذكر الفرق»، وكتاب «مثاليث القوانين في التورية والاستخدام والتضمين»... (ابن الخطيب: «الإحاطة..»، ١: ٣٥٠ و«الكتيبة الكامنة..»، ص ٢٦٠. وابن الأحمر: «نثير فرائد الجمان..»، ص ٣١٣. والتنبكتي: «نيل الابتهاج..»، ص ٤٤. والمقّري: «نفح الطيب..»، ٧: ١٠٨).

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله اللوشي اليحصبي الغرناطي (٦٧٨ - ٧٥٢هـ/١٢٧٩ - ١٣٥١م) ويعرف بابن اللوشي: شاعر مفلق فحل وشعره شهير الإجادة، من شعراء السلطان إسماعيل الأول، مدحه ورثاه، وحضر بيعة ابنه محمد الرابع. (ابن الخطيب: «الكتيبة الكامنة..»، ص ١٧٥ و«أعمال الأعلام..»، ص ٣٠٠ و«الإحاطة..»، ٢: ١٩٧. وابن الأحمر: «نثير فرائد الجمان..»، ص ٣٢٩).

(٣) سبق التعريف به في ص ٥٦.

(٤) هو أبو بكر محمد بن أحمد بن محمد بن شبرين الجذامي ويعرف بابن شبرين (٦٧٤ - ٣ شعبان ٧٤٧هـ/١٢٧٥ - ١٩ تشرين الثاني ١٣٤٦م). كان شاعراً وأديباً كبيراً. قال عنه ابن الخطيب في «كتيبته»: «خاتمة المحسنين وبقية الفصحاء اللسنين. ان نظم أو نثر تبعت العلماء ذلك الأثر». وهو من شيوخ لسان الدين. (ابن الخطيب: «الكتيبة الكامنة..»، ص ١٦٦ و«الإحاطة..»، ٢: ١٧٤. والنباهي: «المرقبة العليا في من يستحق القضاء والفتيا»، نشره ليفي - بروفنسال، القاهرة، دار الكاتب المصري، ١٩٤٨م، ص ١٥٣. والمقّري: «نفح الطيب..»، ٥: ٥٤١).

(٥) هو أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن أحمد بن صفوان القيسي، من أهل مالقة، ويعرف بابن صفوان (أواخر ٦٧٥ - آخر جمادى الثانية ٧٦٣هـ/أوائل ١٢٧٧ - أواخر نيسان ١٣٦٢م). وصفه ابن=

البَلِّفِيقِي[١]، وأبو القاسم الشريف الحَسَني[٢]، وأبو عبد الله بن جُزَيّ[٣]،

= الخطيب بأنه «ناظم، ناثر، عارف... إمام الفرائض والحساب والأدب والتوثيق، ذاكر للتاريخ واللغة، مشارك في الفلسفة والتصوف، كلف بالعلوم الإلّهية، يجيد الشعر والكتابة، ولنظمه شفوف على نثره». كتب عن السلطان محمد الثاني واستكتبه إسماعيل الأول رئيساً مستحقاً. له تآليف منها: «مطلع الأنوار الإلّهية» و«بغيةالمستفيد» و«شرح كتاب القرشي في الفرائض». وقد جمع ابن الخطيب شعره في ديوان قدم له وسمّاه «الدرر الفاخرة واللجج الزاخرة». وله قصيدة يعارض بها عينية ابن سينا الشهيرة في النفس. (ابن الخطيب: «الإحاطة..»، ١: ٢٢٩ و«الكتيبة الكامنة..»، ص ٢١٦. وابن الأحمر: «نثير الجمان..»، ص ١٣١. والتنبكتي: «نيل الابتهاج..»، ص ٧٢. والمقّري: «نفح الطيب..»، ٦: ٤٠).

(١) هو أبو البركات محمد ابن أبي بكر محمد بن إبراهيم بن محمد السلمي المعروف بابن الحاج البلّفيقي (بفتح الباء وتشديد اللام). توفي في الثلث الأخير من سنة ٧٧١هـ/١٣٧٠م وقيل سنة ٧٧٣هـ/١٣٧٢م. من أشهر رجال عصره، قال عنه ابن الأحمر: «رب البلاغة والفصاحة.. رجل الحديث وعلاّمة العلم... كان متبحراً في فنون المعارف، شاعراً مفلقاً، وأديباً بارعاً، وخطيباً مفوهاً». من مؤلفاته «المؤتمن في أنباء من لقيه من أبناء الزمن». وله ديوان كبير سمّاه «العذب والأجاج من شعر أبي البركات بن الحاج».
(ابن الخطيب: «الكتيبة الكامنة..»، ص ١٢٧. والنباهي: «المرقبة العليا..»، ص ١٦٤. وابن الأحمر: «نثير الجمان..»، ص ١٥٦. والتنبكتي: «نيل الابتهاج..»، ص ٢٥٤. والمقّري: «نفح الطيب..»، ٥: ٤٧١ و٤٧٣ و٤٧٥ و٤٨٢ و٤٨٦ و٤٨٧. وفي «مجلة الأندلس»، مجلد رقم ٢٨، سنة ١٩٦٣، ص ٣٨١ - ٤٢٤، بحث عن ابن الحاج، قاضياً مؤرخاً شاعراً، بقلم Soledad Gibert».

(٢) هو أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد الحسني السبتي الشهير بالغرناطي (٦ ربيع الأول ٦٩٧ - ٢١ شعبان ٧٦٠هـ/٢٢ كانون الأول ١٢٩٧ - ١٨ تموز ١٣٥٩م). هو شاعر العدوة الأندلسية وكاتب انشاء حضرتها. تقدم قاضي الجماعة في الحضرة. كان آية في العربية وصدراً من صدور النحاة وإماماً في العلوم. من تلاميذه لسان الدين وابن زمرك وأبو إسحق الشاطبي. من مؤلفاته: «رفع الحجب المستورة عن محاسن المقصورة» و«شرح على الخزرجية» في العروض، وله شعر مدون سمّاه «جهل المقل».
(ابن الخطيب: «الإحاطة..»، ٢: ١٢٩. والنباهي: «المرقبة العليا..»، ص ١٧١. وابن الأحمر: «نثير فرائد الجمان..»، ص ٢٣١ و«نثير الجمان..»، ص ١٤٥. والسيوطي: «بغية الوعاة..»، ١: ٣٩. والمقّري: «نفح الطيب..»، ٥: ١٨٩. وقد ورد في المصدر الأخير أنه توفي سنة ٧٦١هـ/١٣٦٠م).

(٣) هو أبو عبد الله محمد ابن أبي القاسم محمد بن أحمد بن محمد... ابن جزي الكلبي الغرناطي (شوال ٧٢١هـ - ٧٥٨هـ؟ /ت ١ - ٢ ١٣٢١ - ١٣٥٧م؟). كان شاعراً كبيراً وكاتباً مجيداً، وله باع مديد في التاريخ واللغة والحساب والنحو والبيان. قال عنه ابن الأحمر: «هو رب الشعر». وقال ابن الخطيب: هو «شمس في سماء البلاغة بازغة.. فمطولاته بحور... =

والجُذَامي المُنْتَشاقِري(١)، والخضر ابن أبي العافية(٢)، وابن قُطْبَةَ الدَّوْسِي(٣)، والطُّوَيْجِن الساحلي(٤).

وتجدر الإشارة، هنا، إلى أن هؤلاء الأدباء هم أعلام الشعر وأعلام

= وأمداحه درر النحور». مدح السلطان يوسف الأول.
(ابن الخطيب: «الإحاطة..» ٢: ١٨٦، و «الكتيبة الكامنة..»، ص ٢٢٣. وابن الأحمر: «نثير فرائد الجمان..» ص ٢٩٢. والمقّري: «نفح الطيب..»، ٥: ٥٢٦).

(١) هو أبو الحجاج يوسف بن موسى الجذامي المنتشاقري (؟ - ؟). كان حياً حين ألف لسان الدين «إحاطته». كان شاعراً بلغ في الإحسان الغاية، فطارت قصائده كل مطار. ولي القضاء ببلدة منتشاقر «Monte - Sacro» (من مقاطعة اكشونبه «Ocsonoba» في الركن الغربي الجنوبي من شبه الجزيرة، وأشهر مدنها شلب. تراجع الحاشية رقم ٣ من كتاب «نفح الطيب..»، للمقّري، ١: ١٤١). وله تواليف كثيرة حسنة الأغراض منها: «ملاذ المستعين في بعض خصائص سيد المرسلين»، و«اعتلاق السائل بأفضل الوسائل»، و«النفحات الرّندية واللمحات الرّندية»..
(ابن الخطيب: «الكتيبة الكامنة..»، ص ١١٩. والمقّري: «نفح الطيب..»، ٦: ١٣٨).

(٢) هو أبو القاسم الخضر بن أحمد بن الخضر ابن أبي العافية الأنصاري، ويعرف بابن أبي العافية (ت آخر ربيع الأول ٧٤٥هـ/١٠ - ١١ آب ١٣٤٤م). كان أديباً وشاعراً مكثراً مصيباً غرض الإجادة. تصرف في الكتابة السلطانية. ثم تولى قضاء برجه إلى أن توفي فيها.
(ابن الخطيب: «الإحاطة..»، ١: ٥٠٢ و «الكتيبة الكامنة..»، ص ١٧٧. والنباهي: «المرقبة العليا..»، ص ١٤٩. وابن فرحون: «الديباج المذهب..»، ص ٤٣. والتنبكتي: «نيل الابتهاج..»، ص ١١٠ و ١١١).

(٣) هو محمد ابن أبي القاسم محمد بن أحمد بن قطبة الدوسي (٧١٠ - ؟هـ/ ١٣١٠ - ١٣١١ - ؟م). شاعر مكثر ومجيد، نظم الشعر وهو صغير. وقد اشتهر بهجائه حتى لقّب بالحطيئة.
(ابن الخطيب: «الكتيبة الكامنة..»، ص ٢٧٢. وابن الأحمر: «نثير فرائد الجمان..»، ص ٣١٨).

(٤) هو أبو إسحق إبراهيم بن محمد الساحلي الأنصاري المشهور بالطويجن (طاء مشدّدة مضمومة وواو مفتوحة وياء ساكنة وجيم مكسورة)، ويعرف أيضاً بالساحلي. توفي في ٢٧ جمادى الآخرة سنة ٧٤٧هـ/١٥ تشرين الأول ١٣٤٦م. ذكر ابن الخطيب أنه كان نسيج وحده في الأدب نظماً ونثراً، «لا يشق فيها غباره». رحل إلى السودان.. و«صدرت عنه رسائل أثناء إغرابه تشهد بجلالة آدابه».
(ابن الخطيب: «الكتيبة الكامنة..»، ص ٢٣٥ و«الإحاطة..»، ١: ٣٣٧. وابن الأحمر: «نثير فرائد الجمان..»، ص: ٣٠٨ و«نثير الجمان..»، ص ٢٠٥. والمقّري: «نفح الطيب..»، ٢: ١٩٤).

الكتابة في آن، ذلك أن الأديب بمفهوم ذلك العصر كان عليه أن يتقن اللغة العربية بحيث يستطيع النظم والكتابة.

وعلى الرغم مما يوصف به المذهب المالكي السائد في غرناطة من تشدد، لم يكن الغرناطيون ينظرون إلى الشعر نظرة الكاره المشمئز تبعاً للآية الكريمة التي تقول: ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُوْنَ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِيْ كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُوْلُوْنَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾(١) بل هم، على العكس، أحبّوا الشعر واستحسنوا قرضه وتذوقوه تبعاً للآية الكريمة التي تقول: ﴿ ... إِلَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ... ﴾(٢).

وقد عبّر عن هذا الاستحسان الأمير أبو الوليد بن الأحمر(٣) في كتابه «نثير الجمان..»، حين خصص الباب الأول منه لذكر فضل الشعر وإباحة إنشاده في المساجد مشترطاً أن يبتعد عن الهجاء والذم والغزل الماجن الإباحي.

ولهذا نلاحظ أن الشعر الغرناطي، وإن طرق أغراضاً شتى، كان في أكثره مدحاً ووصفاً ورثاءً، ذلك أن التعلق بالدين، بخاصة، فرض على الشعراء الإقلال من الهجاء والغزل الإباحي والإكثار من الشعر الصوفي الذي يتجسد في المديح النبوي ووصف الجهاد.

ولقد كان المتأدب الغرناطي يدرس، أول ما يدرس، العلوم الدينية

(١) «الشعراء» ٢٦/ ٢٢٤ و ٢٢٥ و ٢٢٦.

(٢) «الشعراء» ٢٦/ ٢٢٧.

(٣) هو الأمير أبو الوليد إسماعيل بن يوسف بن محمد بن فرج بن إسماعيل بن يوسف المعروف بابن الأحمر، توفي سنة ٨١٠هـ (وذكر أيضاً أن سنة وفاته هي ٨٠٧هـ/١٤٠٥م). كان أديباً شاعراً مؤرخاً، وله تواليف كثيرة منها «نثير الجمان في شعر من نظمني وإياه الزمان» و«نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان» و«روضة النسرين في دولة بني مرين». وهذا الأخير حققه الدكتور محمد رضوان الداية، الرباط، المطبعة الملكية، ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م. ولابن الأحمر هذا ترجمة وافية في الصفحات (٦١ ـ ٢٠٣) من مقدمة تحقيق كتابه «نثير فرائد الجمان..».

وعلى رأسها الفرائض والفقه، وعلوم العربية وفي طليعتها البلاغة والعروض، وكان عليه أن يتقن الخط ويلم بشيء من الحساب. لذلك كان معظم الفقهاء والأدباء في غرناطة ينظمون وينثرون ويشاركون في فنون كثيرة. ونظرة سريعة على تراجم أدباء ذلك القرن تؤكد لنا أن المفهوم الشائع للأدب فيه إنما هو المفهوم نفسه الشائع في العصور العباسية، بمعنى أن الأدب كان يفهم على أنه الأخذ من كل علم سائد بطرف[1]. ولذا فإن أدباء القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) كانوا، هم أنفسهم، مثقفيه. فالشاعر الغرناطي، بصورة عامة، كاتب وفقيه ونحوي... إلّا أن فن النظم غلب عليه، والفقيه الغرناطي كاتب وناظم ولغوي... إلّا أن الفقه غلب عليه، وقس على هذا سائر أدباء العصر.

وهكذا فإن الذين ذكروا في ما سبق، غلب عليهم الشعر والكتابة، وأستطيع أن أضيف إليهم مجموعة أخرى كبيرة ممن اشتهروا بالنظم والنثر[2].

---

(١) ابن خلدون: «المقدمة»، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ص ٥٥٣.

(٢) أمثال أبي عبد الله بن خَميس، توفي في عيد الفطر سنة ٧٠٨هـ/أواسط آذار سنة ١٣٠٩م. وله ديوان «الدر النفيس في شعر ابن خميس» (المقّري: «نفح الطيب..»، ٥: ٣٥٩. والسيوطي: «بغية الوعاة..»، ١: ٢٠١). وأبي محمد عبد الله الأَزْدِي من بلش وقد توفي بسبب الوباء سنة ٧٥٠هـ/١٣٤٩م. (المقّري: «نفح الطيب..»، ٦: ١٠٣). وابن عَطِيَّة المُحَارِبي من كتّاب محمد الخامس. (ابن الأحمر: «نثير الجمان..»، ص ١٣٧، وابن الخطيب: «الكتيبة الكامنة..»، ص ٢٦٩). وإبراهيم بن جابر القيسي (ابن الخطيب: «الكتيبة الكامنة..»، ص ١٦٣). وابن الزَّيَّات الكِلاعِي، توفي في شوال ٧٢٨هـ/آب ١٣٢٨م. (ابن الخطيب: «الإحاطة..»، ١: ٢٩٥ و«الكتيبة الكامنة..»، ص ٣٤، والسيوطي: «بغية الوعاة..»، ١: ٣٠٢، وابن فرحون: «الديباج المذهب..»، ص ٤٣). وأبي عبد الله ابن حَسَّان الغافقي (ابن الخطيب: «الكتيبة الكامنة..»، ص ٢٤٥). والأحَيْمِر المَالَقي أبي الحسن علي بن أحمد. (ابن الأحمر: «نثير الجمان..»، ص ١٥٠ و«نثير فرائد الجمان..»، ص ٢٣٥، وابن الخطيب: «الكتيبة الكامنة..»، ص ٦٢). وابن الشَّرَّاط المالقي عبد الله بن محمد. (ابن الأحمر: «نثير فرائد الجمان..»، ص ٣٢٥). وابن العَريف الغرناطي محمد بن محمد. (ابن الأحمر: «نثير فرائد الجمان..» ص ٣٢٦). وأبي بكر بن الحَكيم (ابن الخطيب: «الكتيبة الكامنة..»، ص ١٩٥، والمقّري: «نفح الطيب..»، ٥: ٤٩٧). وأبي علي الحَسَن الأنْصَاري (ابن الأحمر: «نثير فرائد الجمان..»، ص ٣٠٧، وابن الخطيب: «الكتيبة =

ولكني أكتفي بمن أشرت إليهم وتمكن مراجعة كتب التراجم المختصة بهذا الشأن.

أما النحو فقد امتاز فيه نخبة من الأدباء غلبت عليهم هذه الصناعة، وعلى رأسهم أبو جعفر بن الزُّبَيْر الثَّقَفِي(١)، وابن حَيَّان الأندلسي(٢)، وابن الفَخَّار الأَلْبيري(٣) وابن عَبْدِ النُّور(٤)، وابن الفَخَّار الجُذَامي(٥)، وابن

= الكامنة..»، ص ٢٠٥). وغيرهم كثيرون....

(١) هو أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الجياني المولد الغرناطي المنشأ (أواخر ٦٢٧ - ٨ ربيع الأول ٧٠٨هـ/١٢٢٩ - ٢٦ آب ١٣٠٨م). إليه انتهت الرياسة بالأندلس في صناعة العربية. كان نحوياً ناقداً أديباً محدّثاً مفسراً، أقرأ النحو والقرآن والحديث بمالقة، وولي قضاء المناكح والخطبة بالحضرة، وهو شيخ أبي حيّان. له مصنفات كثيرة في النحو وأصول الفقه والتاريخ وذيل على كتاب «الصلة» لابن بشكوال سمّاه «صلة الصلة». (السيوطي: «بغية الوعاة..»، ١: ٢٩١. وابن الخطيب: «الإحاطة..»، ١: ١٩٥. وابن فرحون: «الديباج المذهب..»، ص ٤٢. والفيروزابادي: «البلغة في تاريخ أئمة اللغة»، تحقيق محمد المصري، سلسلة إحياء التراث القديم رقم ٢٧، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م، ص ١٤).

(٢) هو أبو حيّان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الأندلسي الغرناطي الملقب بأثير الدين (من الألقاب المشرقية) (أواخر ٦٥٤ - ٢٨ صفر ٧٤٥هـ/أوائل ١٢٥٧ - ١٣ تموز ١٣٤٤م). هو نحوي عصره ولغويه ومفسره ومحدثه ومقرئه ومؤرخه وأديبه! كان الإمام المطلق في النحو والتصريف. رحل إلى المشرق مخافة أن يكرهه السلطان على تعلم المنطق والفلسفة كما أشار هو في بعض كتاباته. أضرّ في آخر أيامه. له تصانيف كثيرة منها: «البحر المحيط» في التفسير، وهو أشهرها، و«التذييل والتكميل في شرح التسهيل» و«ارتشاف الضرب في علم لسان العرب» و«التذكرة» و«اللمحة» و«الشذرة»، وكلها في النحو، و«نحاة الأندلس». وله ديوان شعر.
(السيوطي: «بغية الوعاة..» ١: ٢٨٠. وابن خلدون: «العبر..»، ص ٢٤٣. والفيروزابادي: «البلغة..»، ص ٢٠٣).

(٣) سبق التعريف به في ص ٥٧ من هذه الدراسة.

(٤) هو أبو جعفر أحمد بن عبد النور بن أحمد بن راشد المالقي النحوي ويعرف بابن عبد النور (رمضان ٦٣٠ - ٢٧ ربيع الثاني ٧٠٢هـ/ حزيران - تموز ١٢٣٣ - ١٩ كانون الأول ١٣٠٢م). كان عالماً بالنحو، صنف شرح الجزولية، وشرح مغرّب ابن هشام الفهري. على أن أعظم تصانيفه هو «رصف المباني في حروف المعاني» وهو يدل على تقدمه.
السيوطي: «بغية الوعاة..»، ١: ٣٣١. وابن الخطيب: «الإحاطة..»، ١: ٢٠٣. والفيروزابادي: «البلغة..»، ص ٢٥).

(٥) هو محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن الفخار الجذامي الأركشي (٦٣٠ - ٧٢٣هـ/ =

شُقْرَال(١)، وابن عَبْدِ الحَقّ(٢) وابن هانىء اللَّخْمِي(٣).

وفي ميدان الفقه والتفسير لمع أبو حَيَّان الغرناطي(٤)، والتَّنوخِي(٥)، وابن جُزَيّ(٦)

= ١٢٣٢ ـ ١٣٢٣م). كان متفنناً عالماً بالفقه والعربية والقراءات والأدب والحديث. من تصانيفه: «شرح مشكلات سيبويه» و«شرح قوانين الجزولية».
(السيوطي: «بغية الوعاة..»، ١: ١٨٧. وابن الخطيب: «الكتيبة الكامنة..»، ص ٧٠).

(١) هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن فرج بن شقرال اللخمي الشرفي ويعرف بالطرسوني. توفي سنة ٧٣٠هـ/١٣٢٩ ـ ١٣٣٠م. كان قيّماً على النحو مشاركاً في الأصلين والمنطق وله شعر. عمل ناظراً لخزانة الكتب السلطانية عند الوزير ابن المحروق.
(السيوطي: «بغية الوعاة..»، ١: ٤٥).

(٢) هو أبو جعفر أحمد بن عبد الحق بن محمد بن عبد الحق الجدلي المالقي ويعرف بابن عبد الحق (٨ شوال ٦٩٨ ـ ٢٧ رجب ٧٦٥هـ/١٠ تموز ١٢٩٩ ـ ١ أيار ١٣٦٤م). كان مضطلعاً بصناعة العربية، عارفاً بالفروع والأحكام، مشاركاً في الأصول والأدب والطب. وله شعر. تصدّر للاقراء بمالقة وقضى ببلش وغيرها. (السيوطي: «بغية الوعاة..»، ١: ٣٢١. وابن الخطيب: «الكتيبة الكامنة..»، ص ١٢٣، و«الإحاطة..»، ١: ١٨٦. وابن فرحون: «الديباج المذهب..»، ص ٤١ وقد ورد فيه أنه توفي سنة ٧٧٥هـ/١٣٧٣م).

(٣) هو أبو عبد الله محمد بن علي بن هانىء اللخمي السبتي (توفي بجبل الفتح أواخر ذي القعدة سنة ٧٣٣هـ/ أواسط آب ١٣٣٣م). كان إماماً بالعربية، مبرّزاً، لا يشق في ذلك غباره، مشاركاً في الأصلين. من تصانيفه «شرح التسهيل»، وهو كتاب جليل، و«لحن العامة» وأرجوزة في الفرائض.
(السيوطي: «بغية الوعاة..»، ١: ١٩٢).

(٤) سبق التعريف به في ص ٦٥ من هذه الدراسة.

(٥) هو أبو إسحق إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن علي بن محمد التنوخي (٦٠٧؟ ـ ٧ محرم ٧٢٧هـ/١٢١٠؟ ـ ٣ كانون الأول ١٣٢٦م). كان مفسراً فقيهاً عارفاً بالعربية. دخل غرناطة وأقرأ بها فنون العلم بعد وفاة ابن الزبير، وجمع بين القراءة وتدريس الفقه والعربية والتفسير. وله شعر. رويت عنه كرامات وأخبار عجيبة، إذ كان علاّمة الأولياء بالأندلس في وقته، المجمع على فضله وزهده وعلو مرتبته.
(السيوطي: «بغية الوعاة..»، ١: ٤٢٤. وابن الخطيب: «الكتيبة الكامنة..»، ص ٣٢ و«الإحاطة..»، ١: ٣٨٢. والتنبكتي: «نيل الابتهاج..»، ص ٣٨٢).

(٦) هو الشيخ الأستاذ أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد بن جزي الكلبي، من غرناطة، (٩ ربيع الثاني ٦٩٣ ـ ٩ جمادى الأولى ٧٤١هـ/٩ آذار ١٢٩٤ ـ ٣١ت١٣٤٠١م). كان فقيهاً حافظاً للتفسير، قائماً على التدريس مشاركاً في فنون من عربية وأصول وقراءات وحديث وأدب. تقدم خطيباً بالمسجد الأعظم. له تآليف كثيرة أشهرها: «التسهيل لعلوم التنزيل» في التفسير، و«وسيلة المسلم في تهذيب صحيح مسلم» و«القوانين الفقهية في تلخيص مذهب =

والشَّــاطِبِي[١]، وأبــو بكــر بن جُـزَيّ[٢]، وعثمــان بن مَـنْـظُور[٣]، أبــو بكـر بن مَنْـظُور[٤]، وأبــو جعفــر بن فَـرْكُـون[٥]، وابن بكــر

= المالكية والتنبيه على مذهب الشافعية والحنفية والحنبلية» و«النور المبين في قواعد عقائد الدين». وله فهرسة كبيرة اشتملت على جملة كثيرة من أهل المشرق والمغرب. توفي شهيداً في معركة طريف.

(ابن الخطيب: «الكتيبة الكامنة..»، ص ٤٦. وابن فرحون: «الديباج المذهب..»، ص ٢٩٥ و٢٩٦. والمقّري: «نفح الطيب..»، ٥: ٥١٤).

(١) هو أبو إسحق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي. توفي في شعبان عام ٧٩٠هـ/آب ١٣٨٨م. هو الإمام العلاّمة في الفقه والأصول والتفسير والحديث والعربية. وله تآليف جليلة في التصوّف مشتملة على أبحاث نفيسة منها: كتاب «الموافقات» وكتاب «الإنشادات والإفادات». وهو من تلاميذ لسان الدين بن الخطيب. (التنبكتي: «نيل الابتهاج..»، ص ٤٦).

(٢) هو أبو بكر (أو أبو جعفر) أحمد ابن أبي القاسم محمد بن أحمد بن محمد بن جزي الكلبي (١٥ جمادى الأولى ٧١٥ ـ ٧٨٥هـ/١٧ آب ١٣١٥ ـ ١٣٨٣/١٣٨٤م). «كان له في لجة الفقه سبح وعلى بعض موضوعات أبيه شرح». وأدبه ساطع. ولي القضاء ببرجه، ثم بأندرش، ثم بوادي آش، ثم بحضرة غرناطة. وعمل خطيباً بمسجد السلطان.

(ابن الخطيب: «الإحاطة..»، ١: ١٦٣. و«الكتيبة الكامنة..»، ص ١٣٨ وابن الأحمر: «نثير الجمان..»، ص ١٦٥. والنباهي: «المرقبة العليا..»، ص ١٧٧. وابن فرحون: «الديباج المذهب..»، ص ٤١. والمقّري: «نفح الطيب..»، ٥: ٥١٧).

(٣) هو أبو عمر عثمان بن محمد بن يحيى بن محمد بن منظور القيسي ويعرف بابن منظور. من أهل مالقة. (توفي في ٢٥ ذي الحجة عام ٧٣٥هـ/١٦ آب ١٣٣٥م). كان عالماً من أهل النظر والاجتهاد والتحقيق مشاركاً في فنون من فقه وعربية. اقرأ بمالقة. وولي القضاء بمواضع عديدة. له تآليف منها تقييد حسن في الفرائض سمّاه «بغية الباحث في معرفة مقدمات الموارث».

(ابن الخطيب: «الكتيبة الكامنة..»، ص ١١٤. والنباهي: «المرقبة العليا..»، ص ١٤٧ وابن فرحون: «الديباج المذهب..»، ص ١٩٢).

(٤) هو أبو بكر محمد بن محمد بن عبد الله بن منظور القيسي(مات بالطاعون في منتصف صفر ٧٥٠هـ/٥ أيار ١٣٤٩م). كان فقيهاً علماً من أعلام القضاة. ولّي القضاء بجهات شتى من الأندلس. ثم تقدم ببلده مالقة قاضياً وخطيباً. له تآليف منها: «نفحات النسوك وعيون التبر المسبوك في أشعار الخلفاء والوزراء والملوك»، وكتاب «السجم الواكفة والظلال الوارفة في الرد على ما تضمنه المظنون به من اعتقادات الفلاسفة» وكتاب «البرهان والدليل في خواص سور التنزيل».

(ابن الخطيب: «الكتيبة الكامنة..»، ص ١١٩. والنباهي: «المرقب العليا..»، ص ١٥٤).

(٥) هو أبو جعفر أحمد بن محمد بن أحمد بن هشام القرشي ويعرف بابن فركون (٦٤٩ ـ ١٦ ذي =

الأَشْعَري(١)، وابن بِيْبَش العَبْدَرِي(٢)، وأبو جعفر بن بَرْطَال(٣).

وفي أدب الرحلة ألف ابن الحاج النميري «فيض العباب..»، وألف خالد البلوي(٤) «تاج المفرق في تحلية أهل المشرق» المعروف برحلة البلوي.

= القعدة ٧٢٩هـ/١٢٥١ ـ ١١ أيلول ١٣٢٩م). من صدور القضاة بالأندلس. قضى بالمرية، وعمل قاضي الجماعة بغرناطة لفترة. كان كثير الاجتهاد والنظر، ماهراً في علم الفريضة، مشاركاً في فنون من عربية وفقه وقراءة. وله شعر.
(ابن الخطيب: «الكتيبة الكامنة..»، ص ١٠١ و«الإحاطة..»، ١: ١٥٩. والنباهي: «المرقبة العليا..»، ص ١٣٨. والتنبكتي: «نيل الابتهاج..»، ص ٦٤).

(١) هو أبو عبد الله محمد بن يحيى.. ابن بكر بن سعد الأشعري المالقي ويعرف بابن بكر (٦٧٣/٦٧٤ ـ ٧ جمادى الأولى ٧٤١هـ/١٢٧٤/١٢٧٥ ـ ٢٩ تشرين الأول ١٣٤٠م). كان عارفاً بالكلام، مبرزاً في الحديث تاريخاً وإسناداً وتعديلاً وتجريحاً، حافظاً للأنساب والأسماء والكنى، قائماً على العربية، مشاركاً في الأصول والفروع واللغة والعروض والفرائض والحساب. ولي القضاء ببلده مالقة، ثم القضاء والخطابة بغرناطة. وهو من شيوخ لسان الدين بن الخطيب.
(ابن الخطيب: «الإحاطة..»، ٢: ١٢٥. والنباهي: «المرقبة العليا..»، ص ١٤١. والسيوطي: «بغية الوعاة..»، ١: ٢٦٥. والمقّري: «نفح الطيب..»، ٥: ٣٨٥).

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد بن بيبش العبدري الغرناطي (٦٨٠ ـ رجب ٧٥٣هـ/١٢٨١ ـ تموز/آب ١٣٥٢م). عانى صناعة النحو واشتهر بالإلحاح على كتاب الصحاح. كان متضلعاً بالعربية، عاكفاً على تحقيق اللغة، مشاركاً في الطب. أقرأ بغرناطة. كان له في الشعر نصيب. أثرى من التكسب بالكتب.
(ابن الخطيب: «الكتيبة الكامنة..»، ص ٩٠. والسيوطي: «بغية الوعاة..»، ١: ٢٣٣. والمقّري: «نفح الطيب..»، ٥: ٣٨٤ و٦: ٢٤٤).

(٣) هو القاضي أبو جعفر أحمد بن محمد بن علي بن أحمد الأموي المعروف بابن برطال (٦٨٩ ـ ٥ صفر ٧٥٠هـ/١٢٩٠ ـ ٢٥ نيسان ١٣٤٩م). ولي القضاء ببلده ثم تقدم قاضياً بغرناطة وإماماً بالمسجد الأعظم فيها وخطيباً بجامع قلعتها.
(ابن الخطيب: «الكتيبة الكامنة..»، ص ١٢٥ و«الإحاطة..»، ١: ١٧٧. والنباهي: «المرقبة العليا..»، ص ١٤٨).

(٤) هو أبو البقاء خالد بن عيسى بن أحمد بن إبراهيم ابن أبي خالد البلوي الأندلسي، قاضي قنتورية (كان حياً حين ألف لسان الدين «الإحاطة..»). وصفه الشاطبي بأنه الشيخ الفقيه القاضي الأعدل، صاحب الرحلة المشهورة المسماة «تاج المفرق..»، وفيها من العلوم والآداب ما لا يتجاوزه الرائد. (المقّري: «نفح الطيب..» ٥: ٥٣٢. (وابن الخطيب: «الكتيبة الكامنة..»، ص ١٣٤ و«الإحاطة..»، ١: ٥٠٨).

وفي التأريخ: ابن الخطيب صاحب «نفاضة الجراب وعلالة الاغتراب» و«اللمحة البدرية في الدولة النصرية» و«كتاب أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام»، وابن الأحمر صاحب «روضة النسرين في دولة بني مرين» و«مستودع العلامة ومستبدع العلامة»، وأبو البركات ابن الحاج البلفيقي صاحب «تاريخ ألمرية وباجة»، وابن خاتمة صاحب «مزيّة ألمرية على غيرها من البلاد الأندلسية».

وفي التراجم الأدبية: ابن الخطيب مؤلف «الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة» و«الإحاطة في أخبار غرناطة»، والقاضي النباهي[١] مؤلف «المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا»، وابن الأحمر مؤلف «نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان» و«نثير الجمان في شعر من نظمني وإياه الزمان»، وابن فرحون[٢] مؤلف «الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب».

وفي المقامات: ابن الخطيب منشىء «مقامة السياسة» و«مقامة وصف البلدان»، وأبو محمد عبد الله الأزدي منشىء «مقامة العيد»، والقاضي النباهي صاحب «المقامات النخلية».

وفي الرسائل الديوانية والاخوانية: ابن الخطيب وابن زمرك وابن خاتمة وابن الجياب.

---

(١) هو أبو الحسن علي بن عبد الله بن الحسن الجذامي النباهي ويعرف بابن الحسن وبالبني. ولد عام ٧١٣هـ/١٣١٢ ـ ١٣١٣م وكان على قيد الحياة سنة ٧٩٣هـ/١٣٩١م. كان قاضي الجماعة في غرناطة. كان صديقاً لابن الخطيب ثم صار من أعدائه، وقد جدّ في أمره مع ابن زمرك حتى قتل.
(«المرقبة العليا . .»، التصدير، ص (ج) و (ط)).

(٢) هو أبو الوفا إبراهيم بن فرحون (برهان الدين). توفي سنة ٧٩٩هـ/١٣٩٧م. كان فقيهاً مالكياً مهر في فن التراجم. وله غير «الديباج» . . «تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام». (منجد الأعلام، ص ٥٢٢).

أما في النقد، «فلا نقع في العصر الغرناطي على كتاب نقدي متخصص نقف عنده، فقد أنهى حازم القرطاجني[١] الكتابة في النقد»[٢].

ولقد كثرت في ذلك العصر، مؤلفات الغرناطيين في مختلف العلوم النقلية. ولكن هذه المؤلفات كانت، في جزء كبير منها، عبارة عن شرح أمهات الكتب المطولة في الفنون أو اختصارها[٣].

وأشهر المؤلفين ابن الخطيب. فقد كان له أكثر من خمسين مؤلفاً في الأدب والتأريخ والتراجم والطب.. أبرزها «الإحاطة في أخبار غرناطة».

وكان لابن الزيات الكلاعي[٤] أكثر من عشرين مؤلفاً في علم الكلام واللغة والسيرة النبوية والقواعد الاعتقادية، منها: «رصف نفائس اللآلي ووصف عرائس المعالي «في النحو»، و«قاعدة البيان وضابطة اللسان» في العربية، والأرجوزة المسماة بـ «قرة عين السائل وبغية نفس الآمل» في اختصار السيرة النبوية.

وكان لابن الحاج النميري بضعة عشر كتاباً وأرجوزةً في طرق المداعبة والممازحة وأخبار المنام ومحادثة الأرواح وذكر الفرق وفي الحديث وطرق

(١) هو أبو الحسن حازم بن محمد القرطاجني، الشيخ النحوي الناظم الناثر، ولد سنة ٦٠٨هـ/١٢١١-١٢١٢م وتوفي ليلة السبت ٢٤ رمضان سنة ٦٨٤هـ/١٣/تشرين الثاني ١٢٨٥م. (المقّري: «نفح الطيب..»، ٢: ٥٨٤. والسيوطي: «بغية الوعاة..»، ١: ٤٩١. وله ترجمة وافية في كتاب «تاريخ النقد الأدبي في الأندلس» للدكتور محمد رضوان الداية، سلسلة دراسات أندلسية رقم ١، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، ١٩٨١م، ص ٤٨٨).

(٢) الداية، محمد رضوان: «تاريخ النقد..»، ص ٥٤٥.

(٣) ابن خلدون: «المقدمة»، ص ٥٣٢.

(٤) هو أبو جعفر أحمد بن الحسن بن علي بن الزيات الكلاعي، من أهل بلش مالقة، ويعرف بابن الزيات (٦٤٩/٦٥٠-١٧ شوال ٧٢٨هـ/١٢٥١/١٢٥٢-٢٥ آب ١٣٢٨م). وهو الخطيب المتصوف الشهير الذي كان يجوّد القرآن ويشارك في العربية والفقه والأدب والتفسير. وله تآليف كثيرة.
(ابن الخطيب: «الإحاطة..»، ١: ٢٩٥ و«الكتيبة الكامنة..»، ص ٣٤. وابن فرحون: «الديباج..»، ص ٤٣. والسيوطي: «بغية الوعاة..»، ١: ٣٠٢).

التصوف والتورية. ولعل أشهرها كتاب «جزء في بيان اسم الله الأعظم»، وصفه ابن الخطيب في «إحاطته» بأنه «كتاب كبير الفائدة عظيم الأثر»[1].

وكذلك كان للمنتشاقري بضعة عشر كتاباً في الأدب والحديث والسيرة، منها: «توجيع الراثي في تنوع المراثي» و«أرج الأرجاء في مزج الخوف والرجاء».

ولابن ليون التجيبي[2] نحو ثلاثين تأليفاً (وقيل مائة) وأكثرها اختصار لكتب معروفة، إذ كان مولعاً باختصار الكتب. وأبرز مؤلفاته: «الأبيات المهذبة في المعاني المقربة» و«أنداء الديم في الوصايا والمواعظ والحكم» و«نصائح الأحباب وصحائح الآداب»، وهي مجموعات شعرية أورد منها المقّري في «نفحه» مائتين وتسعاً وثمانين قطعة مؤلفة من ستمائة وسبعة وتسعين بيتاً من الشعر تتضمن نصائح ومواعظ متنوعة[3].

ولأبي القاسم بن جزي بضعة عشر كتاباً في قواعد العقيدة والحديث والقراءات والتفسير، أشهرها كتاب «التسهيل لعلوم التنزيل» في التفسير.

ولابن المرأة[4] بضعة كتب في الحديث والتفسير وذكر كلام التصوف لعل أهمها كتاب بعنوان «جزء في اجماع الفقهاء».

---

(1) ابن الخطيب: «الإحاطة..»، 1: 354.

(2) هو أبو عثمان سعد بن أحمد بن إبراهيم بن ليون التجيبي (681 - 750هـ/1282 - 1349م). من أجلّ علماء الأندلس وأكابر أئمتهم. وهو من شيوخ لسان الدين. وله تصانيف مشهورة، نظماً ونثراً، منها: «كتاب في الهندسة» و«كتاب في الفلاحة» (المقّري: «نفح الطيب..»، 5: 543. والتنبكتي: «نيل الابتهاج..»، ص 123).

(3) المقّري: «نفح الطيب..»، 5: 544 - 596.

(4) هو أبو إسحق إبراهيم بن يوسف بن محمد بن دهّاق الأوسي، ويعرف بابن المرأة. توفي سنة 711هـ/1311م. كان متقدماً في علم الكلام، حافظاً ذاكراً للحديث والتفسير والفقه والتاريخ، وكان الكلام أغلب عليه.

(ابن الخطيب: «الإحاطة..»، 1: 333).

ومن دواوين الشعر أذكر ديوان «الصيّب والجهام والماضي والكهام» لابن الخطيب، وديوان ابن خاتمة الأنصاري، وديوان «جهد المقل» للشريف أبي القاسم الحسني السبتي. وجمع ابن الخطيب أشعار ابن صفوان في ديوان وقدّم صدره خطبة وسماه بـ«الدرر الفاخرة واللجج الزاخرة»، وذلك عام ٧٤٤هـ/١٣٤٤م[١]. كما جمع القاضي أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الحضرمي[٢] شعر ابن خميس[٣] في جزء سماه « الدر النفيس في شعر ابن خميس». ولأبي البركات بن الحاج ديوان «العذب والاجاج من شعر أبي البركات بن الحاج»، ولابن هذيل ديوان «السليمانيات والعزفيات».

وأشير هنا إلى أن قسماً كبيراً من هذه المؤلفات والكتب والدواوين، قد غاله الضياع، وأن القسم الباقي لا يزال أكثره في شكل مخطوطات منتشرة في مكتبات العواصم الأوروبية، بانتظار الكشف عنها وتحقيقها[٤].

على أن هذا الازدهار الذي أصاب الأدب في العصر النصري الثاني لم يطل الفلسفة ولا الطب ولا الرياضيات وغيرها من العلوم العقلية. فنحن لا نرى في هذا العصر من الأطباء والفلاسفة وأصحاب العلوم الطبيعية والرياضية إلّا القليل إلى جانب مئات من رجال الشريعة والفقه والشراح والمفسرين والمصنفين والشعراء والكتّاب.

ويؤكد هذا القول ما ورد في «بغية الوعاة..» من أن السيوطي رأى في كتاب أبي حيّان الغرناطي الذي ألّفه في ذكر مبدئه واشتغاله وشيوخه ورحلته،

---

(١) ابن الخطيب «الإحاطة..»، ١: ٢٣٦.

(٢) المقّري: «نفح الطيب..»، ٥: ٣٦١.

(٣) هو أبو عبد الله محمد بن خميس التلمساني. قتل بغرناطة مع مخدومه ابن الحكيم يوم الفطر سنة ٧٠٨هـ/ أواسط آذار ١٣٠٩م وهو ابن نيّف وستين. كان من فحول الشعراء وأعلام البلغاء، وله مشاركة في العقليات. قعد لاقراء العربية بحضرة غرناطة، ثم مال إلى التصوّف والتجوال. وله في ذي الوزارتين ابن الحكيم القصائد المدحية الكثيرة.
(المقّري: «نفح الطيب..»، ٥: ٣٥٩. والسيوطي: «بغية الوعاة..»، ١: ٢٠١).

(٤) ليفي ـ بروفنسال: «محاضرات عامة في أدب الأندلس..»، ص ٣.

والذي سماه بـ «النضار»: «أن مما قوّى عزمه على الرحلة عن غرناطة، أن بعض العلماء بالمنطق والفلسفة والرياضي والطبيعي قال للسلطان: إني كبرت وأخاف أن أموت، فأرى أن ترتب لي طلبة أعلمهم هذه العلوم، لينفعوا السلطان من بعدي. قال أبو حيّان: فأشير إليّ أن أكون من أولئك، ويرتب لي راتب جيد وكسا وإحسان، فتمنعت ورحلت مخافة أن أكره على ذلك»[١].

ويستفاد من هذا الخبر أن أصحاب العلوم العقلية كانوا قلة بدليل خوف العالم المذكور في الخبر من موته وضياع علمه، وكأن الذي يعرفه لا يعرفه أحد غيره.

على أن هذه القلة في أصحاب العلوم العقلية تعود إلى أسباب أذكرها في ما يأتي:

١ ـ كان الأدب يؤدي دوراً اجتماعياً وسياسياً. فالشعر، مثلاً، كان رائجاً لأن أكثره كان في غرض المديح، وهذا المديح كان أقرب إلى الشعر السياسي الاجتماعي منه إلى المدح المجرد، وإن ظل يحمل، في كل حال، صفة التكسب. فالسلطان بحاجة دائمة إلى أن يكون حكمه مؤيداً من العامة ـ ويأتي الشعر ليغطي هذه الناحية السياسية ـ وهو بحاجة، أيضاً، إلى إبراز صفاته ونشر أياديه وتخليد مفاخره ـ ويكون للشعر، هنا أيضاً، دور وظيفي لتغطية هذه الناحية الاجتماعية ـ وهذا الدور الثنائي للشعر، لا يمكن أن تؤديه الفلسفة ولا العلم الرياضي.

٢ ـ كثرة التآليف واختلاف المصطلحات في التعاليم[٢]، وتعدد طرقها، كل هذا أبعد الناس عنها «لأن المتعلم يحتاج إلى حفظها كلها أو أكثرها

(١) السيوطي: «بغية الوعاة..»، ١: ٢٨١.

(٢) علم التعاليم هو العلم الرابع من علوم الفلسفة ويشتمل على أربعة علوم: علم الهندسة، علم الهيئة، علم الارتماطيقي، علم الموسيقى. (ابن خلدون: المقدمة، ص ٤٧٨ و ٤٧٩).

ومراعاة طرقها»[١] وتمييز ما بينها، وفي هذا من العسر الشيء الكثير.

٣ ـ إن سيادة الروح الديني في مملكة غرناطة، جعلت الغرناطيين على استعداد لرفض أي شيء يظنون أنه يمس العقيدة ولو من بعيد. وعلوم الفلسفة[٢] «ضررها في الدين كثير»[٣]، وهي تنافي، في رأيهم، ما أتى به الإسلام. لذلك، حين ترجم ابنُ الأحمر الأديبَ العالمَ الفيلسوفَ يحيى بنَ هذيل في كتابه: «نثير فرائد الجمان..»، أشاد به وكال له المديح بغير حساب، إلّا أنّه ذكر أن الأندية غمزت منه وطعنت فيه بما شانه وذلك «لاستغراقه في العقليات وإطراحه النجاة بالنقليات»[٤].

٤ ـ وبتأثير ذلك التعلق بالدين، كان للفقهاء المالكيين سلطان واسع في الأندلس، بصورة عامة، وفي مملكة غرناطة، بصورة خاصة. ذلك أن الغرناطيين كانوا يميلون إلى تطبيق الأحكام الشرعية والتزام مبادئها؛ ولما كان الفقهاء أدرى الناس بهذه الأحكام، كان على الغرناطيين احترامهم واحترام آرائهم.

من هنا كان بعض السلاطين يلجأون إلى استرضاء العامة عن طريق استرضاء بعض الفقهاء الذين كانوا يهاجمون، باسم الدين، البدع والمنكرات. وكانت الفلسفة، بخاصة، تعدّ من تلك المنكرات. ولقد عرف تاريخ الأندلس حكايات عن علماء نُكّل بهم وأُحرقت كتبهم لأنهم اتُّهموا، صدقاً أو كذباً، بأنهم ضمّنوا مؤلفاتهم شيئاً من الزندقة والإلحاد.

(١) ابن خلدون: «المقدمة» ص ٥٣١. ويقول ابن خلدون أيضاً: «هذا إلى أن تناقص العمران يؤدي إلى تناقص العلوم واضمحلالها إلّا قليلاً نجده في تفاريق الناس وتحت رقبة العلماء». (المقدمة، ص ٤٨١).

(٢) علوم الفلسفة تشتمل على أربعة علوم: علم المنطق، العلم الطبيعي (بما فيه الطب)، العلم الإلّهي، والتعاليم. (ابن خلدون: المقدمة، ص ٤٧٨).

(٣) ابن خلدون: «المقدمة» ص ٥١٤.

(٤) ابن الأحمر: «نثير فرائد الجمان..»، ص ٣٢٢.

ويرغم تعدد الأمثلة التي يمكن استخراجها من تاريخ الأندلس على هذا القول(١)، فلن أذهب بعيداً وسأكتفي بأن أعطي مثلاً من القرن الثامن الهجري (القرن الرابع عشر الميلادي): ابنَ الخطيب نفسه. فقد اتهمه القاضي النباهي بأنه سلك في بعض كتاباته سبيل الغيبة المحرمة وأنه دعا إلى البدعة والتلاعب بالشريعة، وأنه أورد كلاماً مقذعاً بعيداً عن الحشمة والحياء، فيه استهزاء وازدراء بالدين، تهمة أدت في النهاية إلى مقتله وإحراق بعض كتبه(٢).

وقد ذكر القاضي النباهي في «المرقبة العليا..» شيئاً من هـذا القبيل، حين تحدث عن الحكم الواجب فرضه من سجن وتحريق وزجر على «من وُجد بخطه شيء من المذاهب الفلسفية المخالفة للشريعة»(٣).

٥ ـ إن العلوم العقلية والفلسفة بصورة خاصة، يلزمها موطن مستقر، لتزهر في جو من الأمن والطمأنينة الدائمة. ولقد كانت مملكة غرناطة على كف عفريت، كما يقولون، وكان كثير من الغرناطيين، ومنهم جملة من العلماء، يتركون بلادهم إلى المغرب، إما استزادة للعلم بأنواعه، إذ كان المغرب، على تعلق ساكنيه بأهداب الدين، أكثر تسامحاً تجاه هذه الأمور ولأنه يحوي مدارس للعلم كثيرة وأساتذة كباراً، وإما طلباً للاستقرار، إذ كان

---

(١) في فصل بعنوان «الأندلسيون والعلوم والآداب» كتب المقّري في «نفح الطيب..»، ١: ٢٢١ ما صورته: «كل العلوم لها عندهم حظ واعتناء إلاّ الفلسفة والتنجيم فإن لهما حظاً عظيماً عند خواصّهم، ولا يُتظاهر بهما خوف العامة، فإنه كلما قيل «فلان يقرأ الفلسفة» أو «يشتغل بالتنجيم» أطلقت عليه العامة اسم زنديق، وقيدت أنفاسه، فإن زل في شبهة رجموه بالحجارة أو حرقوه قبل أن يصل أمره للسلطان، أو يقتله السلطان تقرباً لقلوب العامة وكثيراً ما يأمر ملوكهم بإحراق كتب هذا الشأن إذا وجدت، وبذلك تقرّب المنصور ابن أبي عامر لقلوبهم أول نهوضه وإن كان غير خال من الاشتغال بذلك في الباطن، على ما ذكره الحجاري والله أعلم».

(٢) المقّري: «نفح الطيب..»، ٥: ١٢٢.

(٣) النباهي: «المرقبة العليا..»، ص ٢٠١.

المغرب، بالطبع، أكثر أمناً، لأنه لم يكن مهدداً بالاحتلال كما كان شأن غرناطة.

ولقد كان ابن الخطيب يشعر بخطر الفناء الذي كان يتهدد الأندلس الصغرى، لذلك وجّه، في وصيته لأولاده الثلاثة، النصح بعدم الإسراف في اقتناء العقار، إذ قال:

«ومن رزق منكم مالاً بهذا الوطن القلق المهاد الذي لا يصلح لغير الجهاد، فلا يستهلكه أجمع في العقار، فيصبح عرضة للمذلة والاحتقار، وساعياً لنفسه، ان تغلّب العدو على بلده، في الافتضاح والافتقار ومعوقاً عن الانتقال أمام النوب الثقال..»(١).

والواقع أن الجملة الأولى من هذا القول تمثل حقيقة الموقف تماماً: بلد يسعى الاسبان إلى استرداده، بأي ثمن، وساكنوه يسعون، بكل ما أوتوا من عزم وتصميم، إلى الإبقاء عليه والاحتفاظ به لأنفسهم، هذا البلد كيف يكون؟ ألا تكون مهاده قلقة؟ ألاّ يعيش أهله، من أجله، في جهاد دائم؟ وهذا الجهاد، ألا يحمل في طياته معنى الاستشهاد؟ وماذا بعد الموت غير ملاقاة الله عز وجل؟ وكيف يلاقي المسلم ربه من دون زاد؟ وهل زاده إلاّ الأعمال الصالحة؟ وإذا لم يكن التقى والعبادة وقراءة القرآن وتفسيره وحفظ الحديث والعمل به وتدارس الفقه وتعلم الفرائض والحفاظ على اللغة العربية وقواعدها، رأسَ هذه الأعمال الصالحة فماذا يكون إذاً؟ لا وقت للتفلسف ولا للعقلنة! الموقف واضح! العدو على الأبواب والدفاع عن النفس وعن الأرض لا يتردد أمامه عاقل، فَلْيطرحِ الغرناطيون العلوم العقلية، ولْيسعَوْا إلى تحقيق ما يرونه عملاً صالحاً وزاداً للآخرة «يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ، إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيْمٍ»(٢). وقد «فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِيْنَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِيْنَ دَرَجَةً»(٣).

(١) المقّري: «نفح الطيب..»، ٧: ٤٠٤.
(٢) «الشعراء» ٢٦/٨٨ و ٨٩.
(٣) «النساء» ٤/٩٥.

على أن الكلام على جهاد الغرناطيين يفرض الكلام على النزعة الصوفية التي سادت مملكتهم. فلقد كان للحركة الصوفية «دور أساسي وفعّال في تنشيط الحركة الثقافية الأندلسية وتطويرها بنيوياً ووظيفياً»[١]. وبرزت، كوجه غني، في شعر تلك الفترة. فالشعراء كانوا، دائماً، يعبرون عن هذا الغرض في قصائدهم المدحية، ولم يكن شعرهم «مجرد ثرثرة كما اعتقد بعض الباحثين»[٢] بل كانوا يصورون واقعاً حاصلاً، إذ صوروا ملوك بني نصر رجالاً شجعاناً يدافعون عن الدين ويذودون عنه بجهادهم ليفوزوا برضا الله.

وبما أن أهم الحركات الجهادية وأكبرها وقعت في عهد الغني بالله إذ كانت حملاته «قمة ازدهار جهاد حقيقي»[٣]، في ما بين عامي ٧٦٧ و ٧٧١هـ/١٣٦١ ـ ١٣٧٠م، فلم يكن من الممكن أن يسكت شعراؤه عن التغني بجهاده، وعلى رأس هؤلاء الشعراء كان ابن الخطيب وابن زمرك.

على أن الشعراء لم يكونوا يكتفون بالتغني بجهاد ملوكهم وحسب، بل كانوا يقرنون هذا التغني بتحريض الغرناطيين على الوقوف صفاً واحداً لمقاومة الاسبان، وكان يشاركهم في هذا، بل قل كان يسبقهم إلى هذا ويتفوق عليهم فيه، الفقهاء والعلماء وخاصة المتصوفة الذين كانوا يخرجون مع اتباعهم للمشاركة في الجهاد لتأكيد القول بالفعل وربط دور الواعظ المحرض بدور المجاهد الحريص على الشهادة. ومن أشهر هؤلاء المتصوفة ابن الزيات الكلاعي وأحمد بن صفوان ومحمد بن صفوان[٤] والزيات الأموي[٥].

(١) «عالم الفكر»، العدد الأول من المجلد ١٢، سنة ١٩٨١، ص ١٧١.

(٢) نفسه، ص ١٨٥.

(٣) غرسيا ـ غومس: «مع شعراء الأندلس..»، ص ١٨٧.

(٤) هو أبو طاهر محمد بن أحمد بن حسين بن صفوان القيسي، توفي سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨م، كان الناس يقصدونه للتبرك به. وقد ألّف للسلطان أبي الحجاج يوسف الأول كتاباً في التصوف والكلام على اصطلاح الصوفية.
(ابن الخطيب: «الكتيبة الكامنة..»، ص ٤٤).

(٥) هو أبو جعفر أحمد بن محمد بن عيسى الأموي ويعرف بالزيات، توفي في ٢٢ جمادى الثانية ٧٦٥هـ/٢٨ آذار ١٣٦٤م، وقد شارف الاكتهال. وهو «من أهل الخير والصلاح والاتباع، =

لا بدّ، بعد هذه الإشارة السريعة إلى الجهاد والتصوف في غرناطة، من الإشارة إلى الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، هذا الاحتفال الذي كان في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) رسماً يقيمه سلاطين غرناطة في كل عام. «وكان يحتفل في الصنيع فيها والدعوة، وإنشاد الشعراء اقتداء بملوك المغرب» كما ذكر ابن خلدون في «التعريف. .»[١].

وقد تحدث ابن الخطيب، أيضاً، عن هذه المناسبة الكريمة، فوصف اجتماع الناس ليلة المولد النبوي في الايوان (بهو السباع؟)، وجلوس السلطان في صدر البهو[٢]. ثم أورد قصيدته بهذه المناسبة وقصائد ابن زمرك وابن خلدون وغيرهما ممن شهدوا الاحتفال وشاركوا فيه بإنشاد قصائدهم. ومن هنا شاع فن المولديّات وازدهر، وكان ابن زمرك من أكبر أصحاب هذا الفن، كما سنرى.

قلت ،قبل قليل[٣]، إن أصحاب العلوم العقلية كانوا قلة، وأوضحت أسباب هذه القلة. بقي أن أسرد أسماء هؤلاء العلماء فأذكر أنه في علم الهيئة عُرف الحِبَالي[٤]، وأحمد بن بَاصَة[٥]، وحسن بن بَاصَة[٦].

= مفتوح عليه في طريق الله، عارف بطرق الصوفية. . . متوغل بالكلف بالجهاد، مرتبط للخيل، مبادر للهيعة، حريص على الشهادة، بركة من بركات الله في الأندلس يعز وجود مثله».
(ابن الخطيب: «الإحاطة. .»، ١: ٢٩٥).

(١) ص ٨٩.

(٢) وذلك في ١٢ ربيع الأول ٧٦٤هـ/ ٣٠ كانون الأول ١٣٦٢م.

(٣) تراجع الصفحة ٧٢ من هذه الدراسة.

(٤) هو أبو جعفر أحمد بن محمد بن يوسف الأنصاري، ويعرف بالحبالي (؟ - ؟). كان على قيد الحياة حين ألف ابن الخطيب «الإحاطة. .». له بصر بصناعة التعديل وجداول الأبراج، تدرب في أحكام النجوم، وقرأ الطب على أبي زكريا ابن هذيل، وكان مقصوداً في العلاج بالرقى والعزايم.
(ابن الخطيب: «الإحاطة. .»، ١: ٢١٢).

(٥) هو أبو جعفر أحمد بن حسن بن باصة الأسلمي، توفي سنة ٧٠٩هـ/١٣٠٩م. كان مؤقت المسجد الأعظم بغرناطة، وكان نسيج وحده معرفة بالهيئة واحكاماً للآلة الفلكية. . . وقد أخذ ذلك عن والده شيخ الجماعة في هذا الفن.
(ابن الخطيب: «الإحاطة. .»، ١: ٢١١).

(٦) هو أبو علي حسن بن محمد بن باصة ويعرف بالصعلعل، رئيس المؤقتين بالمسجد الأعظم من =

وفي علم الكيمياء (أو علم الصنعة)، ذكر ابن الخطيب أنه قد نشأت بين أبي جعفر بن صفوان وابن شعيب الكرياني صداقة أوجبها القدر المشترك من الولوع بالصنعة المرموزة. وكان ابن شعيب هذا، عالماً في الكيمياء، أتى من المغرب ودخل غرناطة، على عهد يوسف الأول، وحقق بها تغيير أمر الأدوية المنفردة.

أما في الطب فقد اشتُهر ابن هُذَيْل والشَّقُورِي(١) وابن الخطيب(٢) وابن زَرْزَر(٣)، وابن حسن القيسي(٤) وابن الصائغ اليهودي(٥)، وابن

= غرناطة، توفي سنة ٧١٦هـ/١٣١٦م. كان فقيهاً إماماً في علم الحساب والهيئة، ماهراً في التعديل، وله مستنبطات ومستدركات وتواليف.
(ابن الخطيب: «الإحاطة..»، ١: ٤٧٦).

(١) هو أبو عبد الله محمد بن علي بن عبد الله اللخمي الشقوري (٧٢٧ـ ؟هـ/١٣٢٧ ـ ؟م). تلقى علم الطب على أستاذه ابن هذيل. كما أخذ هذا العلم عن الشيخ حميدان الذي لا نعرف عنه شيئاً، وعن جده الصحيح الطبيب غالب الشقوري وعن العالم الوزير خالد بن خالد. ومن تآليفه: «المجرّبات» وكتاب «تحفة المتوسل وراحة المتأمل» في الكلام على الزحار الزكامي والمرض الاسهالي. وله أيضاً كتاب «الجهاد الأكبر». (يراجع بحث الدكتور رينو Renaud بعنوان «محمد الشقوري: طبيب مملكة غرناطة»، في مجلة «ايسبيريس»، مجلد ٢٣، سنة ١٩٤٦، ص ٣١ ـ ٦٤).

(٢) ألّف عدة كتب ورسائل طبية أهمها: «عمل من طب لمن حب» وهو كتاب ضخم يذكر فيه أنواع الأمراض وأسباب كل منها وأعراضه وعلاجه. وله أرجوزة في الطب ورسالة في «تكوين الجنين» ورسالة «الوصول لحفظ الصحة في الفصول»... (عنان، محمد عبد الله: «لسان الدين بن الخطيب..»، ص ٢٧٥).

(٣) هو إبراهيم بن زرزر، الطبيب الغرناطي اليهودي الذي كان ماهراً في العلوم الفلكية. فرّ من غرناطة، اثر فرار محمد الخامس منها، والتحق ببلاط قشتالة بأشبيلية، وخدم ملكها اذفونش بصفة طبيب ومنجم.
(ابن خلدون: «التعريف بابن خلدون..»، ص ٤١٣. وابن الخطيب: «نفاضة الجراب..»، ص ١٩).

(٤) هو أبو علي حسن بن محمد بن حسن القيسي ويعرف بالقِلَنار، وهو من أهل مالقة، (؟ ـ ؟). «كان بقية شيوخ الأطباء ببلده، حافظاً للمسائل الطبية، ذاكراً للدواء، فسيح التجربة، طويل المزاولة، متصرفاً في الأمور التي ترجع إلى صناعة اليدين صيدلة واختراعاً. أخذ صناعة الطب عن أبي الحسن الأركشي، ومعرفة أعيان النبات عن المصحفي، وارتاد منابت العشب في صحبته... وحاول عمل الترياق الفارق بالديار السلطانية عام ٧٥٢هـ/١٣٥١م، مبرزاً في اختيار أجزائه وأحكام تركيبه». (ابن الخطيب: «الإحاطة..»، ١: ٤٧٥).

(٥) هو يحيى بن الصائغ اليهودي، كان طبيب يوسف الثاني، وحين نمي إليه أنه يحاول اغتياله =

المهنا[١] والطبيبان أبو عبدالله بن سالم[٢] وأبو عبد الله بن سراج[٢] اللذان أخذا الطب عن أحمد ابن محمد الكرني، شيخ الأطباء بغرناطة على عهده، وكان حياً سنة تسعين وستمائة[٢].

ولقد كان لابن هذيل مشاركة في المنطق والهندسة والفلسفة، كما شارك ابن عبد النور وابن منظور في المنطق...

وهكذا نرى أن الأدب كان يطغى على العلم في مملكة غرناطة، وأن أكثر متأدبيها كانوا يقرضون الشعر. ولقد كان الشعراء ينظمون مدائحهم مقابل صلات وهبات من الأمراء. وكانت هذه المدائح ضرورة لازمة ودوافعها النفسية واضحة. فقد كان للشعر، عند العرب، قيمة سياسية واجتماعية كبيرة، ظل يحتفظ بها على مر العصور. وهكذا أظهرت غرناطة حيوية أدبية احتفظت بها إلى النهاية، وظل قصر الحمراء مركزاً رئيساً ومهماً للمطارحات الشعرية والإنشادات المدحية في المناسبات والأعياد.

على أنه لم يبق من هذا الشعر إلاّ ما نقله أصحاب كتب المختارات، معتمدين في هذا النقل، على أذواقهم الأدبية وآرائهم النقدية الخاصة بهم. ولذلك كان أكثر ما وصل إلينا عبارة عن مقطوعات مجتزأة من القصائد الطوال. وتتفاوت قيمة هذه المختارات بتفاوت أذواق المصنفين وآرائهم. ومن هنا يظهر جلياً أن «ما بين أيدينا من أدب الأقدمين لا يعود الفضل في وصوله إلينا، إلى قيمته الأدبية وحسب، بل إلى أذواق أولئك الذين احتفظوا لنا بهذا الأدب ونقلوه إلينا»[٣].

= بالسم حبسه ثم قتله.

(عنان، محمد عبد الله: «نهاية الأندلس..»، ص ١١٣).

(١) هو طبيب عالم من تلامذة لسان الدين، نقل عنه كثيراً واعتمد عليه في أمور الطب. له شرح ألفية ابن سينا في الطب وهو من الكتب المشهورة بالمغرب.

(المقّري: «نفح الطيب..»، ٧: ٢٨١).

(٢) ابن الخطيب: «الإحاطة..»، ١: ٢١٣.

(٣) Valéry, Paul: «Variétés», Paris, 1845, p. 302.

وبانتهاء الحديث عن أحوال المملكة النصرية، العمرانية والسياسية والفكرية، في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي)، يحسن البدء بالكلام على ابن زمرك، وبالتحديد، على سيرته.

الباب الثاني

سيرة ابن زُمْرَك(*)

اسمه وكنيته ولقبه:

هو محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن محمد بن يوسف... الصريحي(1)، يكنى أبا عبد الله ويعرف بابن زُمْرَك(2). ولقد ورد هذا اللقب في المراجع مرة بفتح الزاي والراء، ومرة أخرى بضمهما، ومرة ثالثة بفتح الزاي والميم وتسكين الراء. وهذا الاختلاف في كيفية الضبط يعود إلى أن

(*) تَرْجَمَتُهُ المصادر التالية: ابن الخطيب: «الإحاطة..»، ٢: ٢٢١ و«الكتيبة الكامنة..»، ص ٢٨٢. وابن الأحمر: «نثير فرائد الجمان..»، ص ٣٢٧. والتنبكتي: «نيل الابتهاج..»، ص ٢٨٢. والعسقلاني: «الدرر الكامنة..»، ص ٣١٢. والمقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٧ ـ ٢٠٦ و«نفح الطيب..»، ٧: ١٦٥. وله ترجمة أيضاً في كثير من المراجع منها: بروكلمان: «تاريخ الأدب العربي»، ٢: ٣٧٠. و«دائرة المعارف الإسلامية»، ٣: ٩٧٢. والزركلي: «الأعلام»، ص ٢٩. وعنان: «نهاية الأندلس..»، ص ٤٨٢.
وزعم غرسيا ـ غومس أن له ترجمة في «بغية الوعاة..» نقلاً عن بلاشير مع أنه لم يُذكر فيه البتة: «مع شعراء الأندلس..»، ص ١٩٠.

(1) وردت في «الدرر الكامنة..»، ص ٣١٢: الصرنجي، وهو تصحيف ظاهر. كما وردت في «الشعر الأندلسي» لغرسيا ـ غومس، ص ٧٢: الشريجي وهو خطأ واضح وقع فيه المعرّب.

(2) ورد هذا اللقب بالحرف اللاتيني بأشكال كثيرة مختلفة: Zamrak في مجلة «الأندلس»، مجلد ٢٤، ص ٤٠٦ ومجلد ٣٥، ص ٤٥٣ ومجلد ٤١، ص ٢٠٧ ومجلد ٤٢، ص ٤٤٧. و Zumruk في مجلة «ايسبيريس»، مجلد ٤٣، ص ٣٥٤. وفي دراسة بلاشير عنه في «A.I.E.O.»، مجلد ٢ سنة ١٩٣٦، ص ٢٩١. و Zemrek في «J.A.» مجلد ١٢، سنة ١٨٩٨، ص ٤٤٤ و Semrek في «J.A.» مجلد ١٣، سنة ١٨٤٢، ص ٣٦٣. و Zemrec في «I.A.G.» ص ٦١.

أحداً من أصحاب المصادر الذين ترجموه لم يوضّح هذه الكيفية.

وعلى الرغم من هذا، فلعلي استطعت أن أصل إلى تحديد هذا اللقب بشكله الصحيح، على وجهي الجزم والترجيح. فأما الجزم فيتناول تشكيل حرفي الميم والراء. فالأول ساكن بالضرورة، والثاني يجب أن يكون مفتوحاً. والبرهان الحاسم على هذا، نجده في عنوان كتاب جمع فيه السلطان ابن الأحمر أشعار ابن زمرك وسماه: «البقية والمُدْرَك من شعر ابن زُمْرَك»، تبعاً للقاعدة المتبعة من قبل مؤلفي ذلك العصر في تسجيع العناوين. ويلاحظ في العنوان المذكور أن السجعة تستوجب تسكين الميم وفتح الراء. وأما الترجيح فيتعلق بتشكيل حرف الزاي. وأنا أرجح أن يكون هذا الحرف مضموماً، ترجيحاً قريباً من الجزم، مع الاعتراف بأن ضبطه بالفتح لا يُخل بالسجع الوارد في العنوان. وهذا الترجيح القوي، ينبع بكل بساطة، من استقراء عناوين المؤلفات في ذلك العصر. ذلك أن من يقرأ هذه العناوين، لا بدّ أن يلاحظ أن السجع في معظمها تام(١). ولما كانت الميم في «مُدْرَك» مضمومة، رجح، في رأيي، أن تكون الزاي في زُمْرَك مضمومة أيضاً. فبضبطها هكذا يأتي السجع في العنوان المذكور أكمل وأتم، انسجاماً مع عادة التسجيع التام المتبعة آنذاك.

نسبه:

أما نسبه فمن الأنساب الأصيلة، ذلك أن ابن الخطيب، حين تحدث

---

(١) لعلي أستطيع ان أسرد هنا عشرات من هذه العناوين غير أني أكتفي بذكر بعضها:
البُرْهَان في سور القُرْآن لابن الزبير
لذات السَّمْع من القرءات السَّبْع لابن الزيات الكلاعي
السُّلُوك في شِيَم المُلُوك لابن الزيات الكلاعي
تنعيم الأَشْبَاح بمحادثة الأَرْوَاح لابن الحاج النميري
كناسة الدُّكَّان بعد انتقال السُّكَّان لابن الخطيب
مقنعة السَّائِل عن المرض الهَائِل لابن الخطيب...
(يراجع فهرست الكتب في كتاب ابن الخطيب «الإحاطة..»، ١: ٥٩٣ وفهرست الكتب في =

عن سكان غرناطة ذكر أن أنسابهم «يكثر فيها القرشي والفهري والأموي.. والأوسي والخزرجي.. **والصريحي**...، وكفى بهذا شاهداً على الأصالة ودليلاً على العروبية»[١].

وهذا ينفي ما ذكره غرسيا ـ غومس[٢]، وما أورده بلاشير[٣]، وما أتت به دائرة المعارف الإسلامية[٤]، من أن نسب شاعرنا وضيع الأصل! ولا أدري كيف توصلوا إلى هذا الزعم، فهم إما أن يكونوا قد اعتمدوا على التخمين، والتخمين لا يغني عن الحق شيئاً، وإما أن يكونوا قد أخذوا بأقوال علي بن لسان الدين المسجلة على هامش كتاب «الإحاطة..»[٥]، وهي أقوال لا يمكن الأخذ بها لأنها صادرة عن رجل حاقد حانق، همه الأوحد التجريح والطعن. وقد نبه غرسيا ـ غومس نفسه إلى أن رواية عليّ هذا «يجب أن نأخذها بحذر شديد»[٢].

وإذا كان يستدل على الوضاعة بالفقر فلا شيء يدلنا في المصادر على أن ابن زمرك كان «ينحدر من أسرة فقيرة»[٢]، إلاّ إذا عدّ ربض البيازين من الأحياء التي يسكنها الفقراء، لكونه حيّاً شعبياً كبيراً، وهذا ليس صحيحاً. وعلى فرض أن ابن زمرك كان، بالفعل، منحدراً من أسرة فقيرة، فلماذا يكون فقر هذه الأسرة دليلاً على وضاعة أصلها بالضرورة؟ ومن قال أن أصالة النسب والفقر لا يجتمعان؟؟. وعلى كل حال، لن أقف طويلاً عند هذاالأمر وأرى أن شهادة ابن الخطيب بأن النسب الصريحي من الأنساب العربية الأصيلة، كافية وحاسمة للإشكال.

= كتاب المقّري: «نفح الطيب..»، ٨: ٤٧٠).

(١) ابن الخطيب: «الإحاطة..»، ١: ١٤١.

(٢) «مع شعراء الأندلس..»، ص ١٩٠ ـ ١٩٢.

(٣) «A.I.E.O.» مجلد ٢، سنة ١٩٣٦، ص ٢٩٢.

(٤) المجلد الثالث، ص ٩٧٢.

(٥) المقّري: «نفح الطيب..»، ٦: ٧٧ و ٧٨، و ٧: ١٦٠ ـ ١٦٢.

مـولـده:

ولد ابن زمرك في الرابع عشر من شهر شوال عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة هجري (في الثامن والعشرين من شهر حزيران عام **١٣٣٣** ميلادي)، في ربض البيازين بغرناطة. ولا نعرف عنه شيئاً سوى أن أصله من شرقي الأندلس ثم جاء سلفه غرناطة وسكن البيازين. وإذا كان أبو الحسن علي ابن لسان الدين يذكر بأن والده حداد وأنه ضربه حتى الموت، فلا يمكن التعويل على هذا القول، ولا الوثوق به لأنه صادر، كما قلت، عن رجل غاضب راغب في التهجم على من تسبب في قتل والده ابن الخطيب وحريص على إلصاق أبشع التهم به.

دراسته وشيـوخـه:

نشأ ابن زمرك، منذ صغره، محباً للعلم طالباً له، فدأب على القراءة، وأخذ نفسه بملازمة حلقات التدريس، وعكف على تثقيف نفسه. ومع أن المصادر لا تذكر شيئاً عن مكان دراسته وزمانها، فبالإمكان أن نتصور هذه الكيفية، ذلك أنه لا بدّ أن يكون قد بدأ دراسته، كما كان يبدأ كل الفتيان عصرئذ، بتعلم القرآن قراءة وحفظاً، وفهم أحكام الوضوء والصلاة، وتعلم الشكل والهجاء والخط. إذ كان مذهب أهل الأندلس «تعليم القرآن والكتاب من حيث هو وهذا هو الذي يراعونه في التعليم فلا يقتصرون لذلك عليه فقط، بل يخلطون في تعليمهم الولدان رواية الشعر والترسل وأخذهم بقوانين العربية وحفظها وتجويد الخط والكتاب... إلى أن يخرج الولد من عمـر البلوغ إلى الشبيبة وقد شدا بعض الشيء في العربية والشعر والبصر بهما وبرّز في الخط والكتاب وتعلق بأذيال العلم على الجملة»[١].

ولا شك في أن جامع غرناطة كان يقوم، بالنسبة إلى طلاب العلم،

---

(١) ابن خلدون: «المقدمة»، ص ٥٣٨.

بدور المدرسة حين خلت غرناطة من المدارس. وهو قد ظل يقوم بهذاالدور حتى بعد إنشاء المدرسة اليوسفية سنة ٧٥٠هـ/١٣٤٩م. في هذا العام كان شاعرنا قد دخل في السابعة عشرة من عمره، فلا بدّ أن يكون قد التحق بها ودرس فيها على أيدي كبار الأساتذة. ومن هنا يسهل تعداد شيوخه وتبيين أنواع العلوم التي أخذها عليهم، ذلك أن ابن الخطيب، ومن بعده يوسف الثالث ابن الأحمر ذكر أسماء معلميه. فعرفنا منهما أن ابن زمرك تتلمذ في علوم العربية، وبخاصة النحو والبلاغة، على أستاذين شهيرين في ذلك الوقت هما أبو عبد الله بن الفخار وقاضي الجماعة أبو القاسم الشريف الحسني. وأنه أخذ الفقه على الأستاذ المفتي أبي سعيد بن لب، ومن بعده على أبي عبد الله المقّري[1] (جدّ مؤلف «نفح الطيب»)، كما قرأ الأصول الفقهية على أبي علي منصور الزواوي، ودرس مناهج الصوفية وحذق الخطبة على يد الخطيب الفقيه أبي عبد الله بن مرزوق الذي وفد إلى غرناطة في عهد السلطان أبي الحجاج. ثم حصلت له الإجازة والتحديث بقاضي الجماعة أبي البركات بن الحاج البلّفيقي وبالخطيب البليغ الشاعر أبي عبد الله اللّوشي وبالخطيب الورع ابن بيبش العبدري. وانضوى فترة إلى شيخ الفرق الصوفية أبي جعفر ابن الزيات وأخيه الزاهد الفاضل أبي مهدي. ودرس الأدب على إمام عصره في الشعر والنثر المؤرخ الطبيب الأديب لسان الدين بن الخطيب. ثم «أعمل الرحلة في طلب العلم والازدياد»[2] إلى فاس، كعادة كثير من الطلاب في ذلك الوقت، إذ إن «الرحلة لا بدّ منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد

---

(١) هو محمد بن محمد بن أحمد... القرشي المقّري، قاضي الجماعة بفاس، ومن أكابر شيوخ ابن الخطيب. وصفه صاحب «نيل الابتهاج..» بأنه الإمام العلاّمة النظار المحقق القدوة... أحد فحول أكابر علماء المذهب، وذكره ابن فرحون في «الديباج..». تآليفه كثيرة منها: «القواعد» و«الطرف والتحف» و«المحاضرات» و«الحقائق والرقائق». توفي في ٢٩ جمادى الأولى ٧٥٩هـ/٩ أيار ١٣٥٨م. (المقّري: «نفح الطيب..»، ٥: ٢٠٣).

(٢) المقّري: «نفح الطيب..»، ٧: ١٤٦.

والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال»(١). وفي فاس روى عن المحدث أبي الحسين بن التلمساني(٢) وقرأ بعض الفنون العقلية على الشريف أبي عبد الله العلوني التلمساني(٣)، عالم عصره وقدوة زمانه و«اختص به اختصاصاً لم يخل فيه من استفادة مران وحنكة في الصنعة»(٤).

وهكذا أحسن ابن زمرك الاصغاء فأحسن الدراسة. وعاد إلى غرناطة و«نصب نفسه للناس متكلماً فوق الكرسي المنصوب، وفوق المحفل المجموع، مستظهراً بالفنون التي بعد فيها شأوه من العربية والبيان واللغة، وما يقذف به في لج النقل من الأخبار والتفسير»(٥). وكان قد عانى الأدب واستطاع أن يبلغ فيه شأواً بعيداً وأن يعالج كثيراً من فنونه، شعراً ونثراً.

مناصبه:

لم ينفرد ابن زمرك بالتدريس طويلاً، إذ سرعان ما قدمه ابن مرزوق إلى أبي سالم إبراهيم ابن السلطان أبي الحسن، اللائذ وقتئذ بغرناطة، فتقلد منصب الكتابة عنه.

وحين توفي أبو الحجاج يوسف سنة ٧٥٥هـ/١٣٥٤م، جاء بعده ابنه السلطان محمد الخامس الذي عزز مركز ابن الخطيب وأبقاه وزيراً لديه. فما كان من هذا الأخير إلاّ أن ألحق تلميذه ابن زمرك بإدارة الدولة لما رأى فيه من نجابة وفطنة، وجعله في عداد الكتّاب. وهكذا لازم ابن زمرك عهد

(١) ابن خلدون: «المقدمة»، ص ٥٤١.
(٢) لم أعثر له على ترجمة.
(٣) هو الشريف الإمام العالم العلامة المحقق أبو عبد الله التلمساني الحسني صاحب «المفتاح في أصول الفقه» وشارح «الجمل الخونجية» والمتوفى عام ٧٧٢هـ/ ١٣٧٠ ـ ١٣٧١م، دفين المدرسة اليعقوبية في تلمسان.
(المقري: «نفح الطيب..»، ٥: ٢٧٢).
(٤) نفسه، ٧: ١٤٧.
(٥) نفسه، ٧: ١٤٦.

الغني بالله منذ بدئه. ويؤكد هذا ما ذكره السلطان ابن الأحمر من أنه وجد رقعة من رقاع ابن زمرك يقول فيها: «خدمته سبعاً وثلاثين سنة»: «ثلاثاً بالمغرب وباقيها بالأندلس...»(١)، فإذا عرفنا أن الغني بالله قد توفي سنة ٧٩٣هـ/١٣٩١م، وأنه قام بأمر المملكة مدة سبع وثلاثين سنة وبضعة أشهر، أدركنا بالتالي صحة قول ابن زمرك.

ثم لما كانت حادثة استيلاء إسماعيل أخي محمد الخامس على السلطة في غرناطة، عام ٧٦٠ هـ/١٣٥٩ م، ولجوء الغني بالله مع وزيره ابن الخطيب إلى فاس، بفضل وساطة سلطان المغرب عامذاك أبي سالم إبراهيم(٢)، لم يكن أمراً طبيعياً أن يبقى ابن زمرك في غرناطة، وقد هاجر منها كثير من القادة والأمراء والعلماء والكتّاب(٣)، فلحق بسلطانه وأستاذه إلى فاس. واتصل هناك مجدداً بمخدومه السابق السلطان أبي سالم وبأستاذه الكبير ابن مرزوق الذي توّجه بالعمامة، فارتجل بين يديه فيها.

تَـوَّجْـتَـنـي بِـعِـمَـامَـةْ تُـوِّجْـتَ تَـاجَ الـكَـرَامَـةْ
فَـرَوْضُ حَـمْـدِكَ يُـزْهَـى مِـنِّي بِسَجْـعِ الـحَمَـامَـةْ(٤)

ولئن كان ابن الخطيب قد ترك فاس ليطوف في مدن المغرب وقراه، ويستقر أخيراً في سلا، فكل الدلائل تشير إلى أن ابن زمرك لم يترك سلطانه بل كان على اتصال دائم به، الأمر الذي جعل الغني بالله يكلف به ويأنس إليه «لحلاوة منطق ورفع استيحاش ومراوضة خلق»(٤). وحين انصرف محمد الخامس إلى الأندلس صبيحة يوم السبت ١٧ شوال سنة ٧٦٢هـ/١٩ آب

---

(١) المقّري: «نفح الطيب..»، ٧: ١٦٧.
(٢) نفسه، ٥: ٨٥.
(٣) ابن الخطيب: «نفاضة الجراب..»، ص ١٩.
(٤) المقّري: «نفح الطيب..»، ٧: ١٦٦.

١٣٦١م، ثم استقل برندة وجهاتها[1]، كان ابن زمرك ممن رافقوه إلى رنده، حيث قام له فيها برسم الكتابة مع الفقيه أبي الحسن النباهي الذي أصبح، في ما بعـد، قاضي الجماعة بغرناطة[2].

ومـا أن استتب الأمـر للغني بـالله واستـطاع أن يستـردّ، في سنـة ٧٦٣هـ/١٣٦٢م، سلطته المسلوبة منـه، حتى استدعى ابن الخـطيب من المغرب وأصدر ظهيراً بتعيينه وزيره الأول وساعده الأيمن[3]. ثم ما لبث أن أصدر ظهيراً آخر بتعيين ابن زمرك كاتب سره، وكان هذا الظهير من إنشاء ابن الخطيب نفسه، وفيه يقول على لسان سلطانه:

«هذا نظير كريم نصب المعتمد به للأمانة الكبرى ببابه فرفعـه... وأعطاه لواء القلم الأعلى فوجب على من دون رتبته من أولي صنعته أن يتبعه... ونقله من كرسي التدريس والتعليم، إلى مرقى التنويه والتكريم، والرتبة التي لا يلقّاها إلاّ ذو حظ عظيم، وجعل أقلامه جياداً لاجالة أمره العلي، وخطابه السني، في ميدان الأقاليم، ووضع في يده أمانة القلم الأعلى، جارياً من الطريقة المثلى على المنهج القويم، واختصه بمزية الشفوف على كتّاب بابه والتقديم، لما كان ناهض الفكر في طلبة حضرته زمن البداية. ولم تزل تظهر عليه لأولي التمييز مخايل هذه العناية، فإن حضر في حلق العلم جلّى في حلبة الحفاظ إلى الغاية، وإن نظم أو نثر أتى بالقصائد المصقولة، والمخاطبات المنقولة، فاشتهر في بلده وغير بلده، وصارت أزمة العناية طوع يده... ناطقاً عن مقامه بالمخاطبات العجيبة، واصلاً إلى المعاني البعيدة بالعبارة القريبة.. وقـدّمه، أعـلى الله قدمـه، كاتب السـر، وأمين النهي والأمـر... وتيمّن

(١) المقري: «نفح الطيب»، ٧: ١٤٦. وابن الخطيب: «اللمحة البدرية..»، ص ١١٣.
(٢) ابن الخطيب: «اللمحة البدرية..»، ص ١١٤.
(٣) هذا الظهير مؤرخ في ٢ رمضان سنة ٧٦٣هـ/٢٥ حزيران ١٣٦٢م.
(عنان، محمد عبد الله: «لسان الدين بن الخطيب..»، ص ٢٩٤ ـ ٢٩٦).

باستخدامه قبل الحلول بدار الملك والاستقرار، وغير ذلك من موجبات الإكبار. . . فليتولّ ذلك عارفاً بمقداره، مقتفياً لآثاره، مستعيناً بالكتم لأسراره. . . معطياً هذا الرسم حقه من الرياسة، عارفاً بأنه أكبر أركان السياسة. . . وكتب في كذا»[1].

وهكذا دخل ابن زمرك في سلك رجال الحاشية الأقوياء، وراح يتابع نشاطه ككاتب للسر وكشاعر للبلاط لا يفتأ ينشد سلطانه في المناسبات قصائد المدح إظهاراً لامتنانه وإخلاصه.

ويأتي العام ٧٧٣هـ/١٣٧١م وهو يحمل في طياته خبراً مثيراً: الوزير ابن الخطيب يفر إلى المغرب ويلتحق بالسلطان المريني عبد العزيز. وسبب هذا الفرار هو ان ابن الخطيب أحس بالوشايات تفعل فعلها في نفس سلطانه وتجد لديه سمعاً وقبولاً، وأدرك أنها ستؤتي أكلها ولو بعد حين، وأنه لا بدّ فاقد عطف مليكه، فأضمر في نفسه الفرار، واستأذن الغني بالله لتفقد الثغور، ثم أسرع بالإبحار من جبل طارق إلى سبته، تاركاً لسلطانه رسالة طويلة يعتذر فيها عن رحيله[2]. وكان الغني بالله، بفضل سعاية الواشين، قد أخذ يشك، بالفعل، في تصرفات وزيره، فلما هرب هذا الأخير، تأكدت شكوكه وجعل همه مطاردة وزيره الهارب، فأرسل بطلبه من سلطان المغرب غير مرة، ولكن طلبه لم يُلَبَّ. حتى إذا تغير السلطان وجاء إلى الحكم أبو العباس أحمد ابن أبي سالم بفضل تدخل الغني بالله لمصلحته وبشرط القبض على ابن الخطيب، تم القبض عليه. فأرسل ابن زمرك في المهمة الصعبة إلى المغرب، حيث قام بسفارته على أتم وجه، ووصل إلى ما أراده مليكه من قتل ابن الخطيب. وكان ابن خلدون، حين أجاز إلى الأندلس في ربيع سنة

(١) المقّري: «نفح الطيب. .»، ٥: ١٣٤ و ١٣٥.
(٢) عنان، محمد عبد الله، «لسان الدين بن الخطيب. .»، ص ١٣٤.

٧٦٦هـ/١٣٧٤م، قد لقي ابن زمرك ذاهباً إلى فاس في غرض «التهنئة»!![1].

وهذا الموضوع أكدته المصادر جميعها، وإن اختلفت في نظرتها إلى فعل ابن زمرك، ولكن واحداً من أصحاب هذه المصادر لم يحاول أن يعلل هذا الفعل. وأنا لا أشك في أنه كانت لابن زمرك يد في محنة ابن الخطيب، إلاّ أنني سرعان ما أتساءل: كيف استطاع ابن زمرك أن يكون ضالعاً في قتل من كان أستاذه، وولي أمره ونعمته، وممدوحه الذي نظم فيه قصائد عدة يمكن أن تستشف منها عاطفة قريبة من الصدق تجاهه؟ وما الذي أفسد هذه الصداقة؟.

الإجابة الشافية عن هذا كله، تتضح بعد كشف أسباب ثلاثة:

١ ـ كان العصر النصري عصر صراعات مستمرة متوالية. ولئن كان شيئاً طبيعياً أن يثور الابن على أبيه والأخ ضد أخيه طلباً للسلطة الأولى في البلاد، فَأَحْرِ بأن تقوم المنازعات للاستئثار بالسلطة الثانية (الوزارة).

٢ ـ لم يكن من الممكن أن يقف ابن زمرك إلى جانب أستاذه ضد سلطانه، حتى ولو من قبيل الوفاء للذي علّمه ورفّعه، لأنه يعلم مسبقاً أنه إذا فعل هذا، فسيناله غضب الملك، وأنه إن وافق مليكه على شعوره تجاه وزيره الفار فاز بالوزارة التي كان يطمح إليها وأصبح اليد اليمنى للسلطان. وهذا ما حصل تماماً.

٣ ـ فإذا سردنا، إضافة إلى هذين السببين، قصة صغيرة حدثت بين ابن الخطيب وتلميذه ابن زمرك حصلنا على السبب الثالث. وهذه القصة قد يقرأها الدارس ولا يكاد يعلق عليها أهمية أو ينتبه إلى مغزاها. وموجزها أن ابن زمرك دخل، ذات يوم، على ابن الخطيب «يستأذنه في جملة

---

(١) ابن خلدون: «العبر..»، ٧: ٤٤٤.

مسائل مما يتوقف عادة على اذن الوزير، وكان معظمها فيما يرجع إلى مصلحة الرئيس أبي عبد الله بن زمرك. قال الشريف: فأمضاها كلها له، ما عدا واحدة منها تضمنت نقض عادة مستمرة، فقال له ذو الوزارتين ابن الخطيب: لا، والله، يا رئيس أبا عبد الله، لا آذن في هذا، لأنا ما استقمنا في هذه الدار إلّا بحفظ العوائد»(١).

من هنا، أقدّر أنه نشأت في صدر ابن زمرك ضغينة ظلّ يحملها له حتى تحولت، في النهاية، إلى سعاية في قتله.

هي أسباب ثلاثة، إذاً، كلّ منها كان كافياً لأن توجه تصرفات ابن زمرك الوجهة المعروفة: الطموح الشخصي، ومسايرةالملك، والحقد. ولم يكتف ابن زمرك بهذا بل عرّض بأستاذه في بعض قصائده التي مدح بها الغني بالله(٢).

على أننا، إذا كنا نقدر ابن الخطيب شاعراً وكاتباً وعالماً، لا نقبل أن نسبغ عليه معالم القداسة، وننزهه عن الوقوع في بعض الأخطاء ذلك أن على الدارس ألّا يطمئن إلى ما يقوله بعض الناس، بل إلى ما تفرضه الوقائع والأحداث. والواقع أن ابن الخطيب لم يكن ذلك الرجل الخالي من العيوب، فقد رأيناه يحب السلطة ويرغب أن يستأثر بها وهو مستعد أن يحارب من يحاول استخلاصها منه أو مشاركته فيها. ولا أدل على هذا مما حصل بينه وبين ابن خلدون، حين جاء هذا الأخير إلى غرناطة سنة ٧٦٤هـ/١٣٦٣م، فاستعمله السلطان محمد الخامس لسفارة بلاده لدى صاحب قشتالة بطره القاسي. فلما نجح في سفارته حظي عند السلطان إلّا أنـه شم من ابن الخطيب رائحة الانقباض وأحس بتغير قلبه فرحل عن غرناطة(٣).

---

(١) المقّري: «أزهار الرياض..»، ١: ٥٩ و ٦٠. و«نفح الطيب..»، ٦: ١٤٧.
(٢) المقّري: «نفح الطيب..»، ٥: ٥٠ و١٦٩ - ١٧٢.
(٣) ابن خلدون: «التعريف..»، ص ٩٦.

ثم إن ابن الخطيب كان قد استأثر، بفضل سلطته، بأموال وعقارات كثيرة. وهناك أقوال تنسب إليه تحريضه سلطان المغرب عبد العزيز على ملك غرناطة(١). وفي كتاب «لسان الدين بن الخطيب ـ حياته وتراثه الفكري» لمحمد عبد الله عنان، نجد هذا الأخير يسوق ما أمكنه من الأقوال والأدلة(٢) ليبرهن على عظم شخصية ابن الخطيب ولكنه لا يلبث أن يقف قليلاً ليستعرض، في ثلاث صفحات من كتابه، «بعض الخصائص البارزة» في خلقه، بل بعض «وجوه الضعف الإنساني التي كانت تنتاب هذه الشخصية العظيمة..»، فيذكر أن ابن الخطيب كان «رجلاً كثير الملق»، شغوفاً «باقتناء المال وحب الأبهة والترف»، يتصف «بالكبرياء والاعتداد بالنفس إلى حد الغرور»، ويميل «إلى الاستبداد والسلطان المطلق». هذا إلى ما «تضطرم به نفسه من بالغ الحقد والضغينة على أولئك الخصوم» الذين كانوا بالأمس من أصدقائه.

ومهما يكن من أمر فإن الثابت أن ابن زمرك، حين فرّ ابن الخطيب، حل محله في الوزارة. ثم قام بسفارته إلى المغرب وطلب من السلطان أبي العباس، الذي نفّذ وعده باعتقال ابن الخطيب، أن يحاكمه: فجرت جلسة محاكمته على عجل وحكم عليه بالقتل بسبب ما نسب إليه، على زعمهم، من زندقة وإلحاد مبثوثين في بعض كتبه. ثم دخل رجال من حاشية ابن زمرك إلى محبسه فقتلوه خنقاً(٣).

وعاد ابن زمرك إلى غرناطة بعد «نجاح» سفارته، وخلا له الجو، وأصبح الرجل الثاني في المملكة.

وفي الفترة الفاصلة بين سنة ٧٧٦هـ/١٣٧٤م(٤) وسنة

(١) المقري: «نفح الطيب..»، ٥: ١٠٤ و١٠٥.
(٢) الصفحات ١٧١ ـ ١٧٣.
(٣) المقّري: «نفح الطيب..»، ٥: ١١١.
(٤) وهي سنة مصرع ابن الخطيب وتولي ابن زمرك الوزارة.

٧٩٣هـ/١٣٩١م[١]، لا تذكر المصادر شيئاً ذا بال عن ابن زمرك، وجل ما نعرف عنه انه استمر في منصبه وزيراً أول للغني بالله، موجب البر والإكرام والإجلال والإعظام وشاعراً للبلاط ينشد قصائده المدحية في المناسبات والأعياد وسفيراً مفوضاً من السلطان في عقد الصلح بين الملوك بالعدوتين وتجديد معاهدات الصلح والصداقة مع النصارى[٢]، حتى إذا توفي الغني بالله وخلفه في الحكم ولده أبو الحجاج يوسف الثاني، بدأت طباع صاحبنا ابن زمرك تتغير، فأظهر جراءته على أولي الأمر واستخفافه بهم، وقد أدى بـه هذا الاستخفاف وتلك الجراءة إلى أن أسكنه أبو الحجاج المعتقل بألمرية، وذلك بعد وفاة الغني بالله بفترة قصيرة، قد لا تتعدى شهر صفر من عام وفاته. ولم يُطْلِقْ سراحه ويُعِدْه إلى الحضرة إلاّ في أول رمضان عام ٧٩٤هـ/٢١ تموز ١٣٩٢م، أي قبل حوالي شهرين من وفاة أبي الحجاج الذي خلفه ولده محمد السابع في ١٦ ذي القعدة سنة ٧٩٤هـ/٣ تشرين الأول سنة ١٣٩٢م[٣]، فيكون قد قضى في السجن فترة سنة ونصف السنة تقريباً.

استمر ابن زمرك وزيراً للسلطان الجديد أياماً قلائل ثم استبدل به الفقيه أبا بكر بن عاصم[٤] لمدة من عام، ثم أعاده إلى خطته وقد «دمثت بعض أخلاقه وخمدت شراسته وحلا بعض مذاقه»[٥].

---

(١) وهي سنة وفاة الغني بالله.
(٢) المقري: «نفح الطيب..»، ٧: ١٦٧.
(٣) نفسه، ٧: ١٦٩.
(٤) هو أبو بكر محمد بن محمد بن محمد بن عاصم الأندلسي الغرناطي، قاضي الجماعة، (١٢ جمادى الأولى ٧٦٠ - ١١ شوال ٨٢٩هـ/١١ نيسان ١٣٥٩ - ١٦ آب ١٤٢٦م). قام على النحو أتم قيام وجمع بين القياس والسماع، وجلّى في علمي البديع والبيان وتضلع بالقراءات، وتقدم في الأدب نظماً ونثراً، إلى براعة الخط وأحكام الرسم. له تآليف كثيرة منها: أراجيز «تحفة الحكام» و«مهيع الوصول في علم الأصول» و«الموجز في النحو» وكتاب «الحدائق» وفيه أغراض شتى من الآداب والحكايات. كان أهل الأندلس يقولون في حقه: إنه ابن الخطيب الثاني. (المقري: «نفح الطيب..»، ٥: ١٩ - ٢٢).
(٥) المقري: «نفح الطيب..»، ٧: ١٦٩.

وفي الفترة التي عزل فيها من منصبه، قعد بجامع مالقة، ثم بمسجد الحمراء، ملقياً على الكرسي فنوناً جمة وعلوماً كثيرة. وكان التفسير أغلب عليه لفرط ذكائه وما كان قيده وحصله أيام قراءاته وإقرائه. ويذكر ابن الأحمر أن الناس في مالقة كانوا يتوافدون إليه، كأنهم البحر الطامي، للاستماع إليه والأخذ عنه، كما يذكر أن وليّ الأمر قد سمع مراراً عدة ما كان يلقيه بمسجد الحمراء[١].

على أن ابن زمرك لم يبق طويلاً في منصبه الذي عاد إليه، فسرعان ما اغتر بمكانته، وغلبت عليه الاحن وعرضت لأفكاره التقلبات وأخذ يتخبط في مراجل الغيظ والتبرم، ويظهر أحقاه، ويسيء القول والعمل[٢].... حتى أرسل محمد السابع رجالاً داهموه في بيته وقضوا عليه وعلى ولديه وعلى من كانوا معهم من خدم، وذلك على مرأى من أهله وبناته[٢]!! وهكذا انتهت حياة آخر كبار الشعراء الأندلسيين، وكأن في قتله، على تلك الصورة، انتقاماً لمصرع ابن الخطيب وثأراً له.

تاريخ وفاته:

أما تاريخ وفاته فلم تحسمه المصادر، ولذلك اختلف الذين ترجموه حول هذا التاريخ اختلافاً كبيراً، بحيث تراوح بين سنتي ٧٩٠ هـ و٧٩٧ هـ/ ١٣٨٨ - ١٣٩٥ م. فقد ورد في «الدرر الكامنة..» أنه «كان في قيد الحياة وذلك قبل التسعين وسبعمائة»[٣]. وجاء في «نيل الابتهاج».. أنه «كان حياً سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة»[٤]. وذكر الزركلي في «الأعلام»[٥] أنه قتل

(١) المقّري: «نفح الطيب..»، ٧: ١٦٨.
(٢) نفسه، ٧: ١٧٠.
(٣) ابن حجر العسقلاني: «الدرر الكامنة..»، ص ٣١٣.
(٤) التنبكتي: «نيل الابتهاج..»، ص ٢٨٣.
(٥) «الاعلام»، ٧: ١٥٤.

نحـو ٧٩٣هـ/١٣٩٠م. وحـدد محمـد عبـد الله عنـان أواخـر سنـة ٧٩٧هـ/١٣٩٥م تاريخاً لمقتله(١). أما بروكلمان فقد أورد تاريخ مصرعه في سنة ٧٩٥هـ/١٣٩٣م(٢). وكذلك ذكرت «دائرة المعارف الإسلامية» أنه «قتل في وقت غير محدد من العام ٧٩٥هـ/١٣٩٣م»(٣). وقال بلاشير إن مصرعه تم في أواخر سنة ٧٩٥هـ/١٣٩٣م(٤) أو في أوائل سنة ٧٩٦هـ/١٣٩٣م(٤). وذكر غرسيا ـ غومس أن سنة وفاته هي ٧٩٦هـ/١٣٩٣م(٥).

على أنه يمكن ترجيح سنة وفاته بصورة قريبة من الجزم حين نستعيد بعض التواريخ التي أوردها السلطان ابن الأحمر في كتابه ونقلها عنه المقّري في «نفحه». فنحن نعلم مما سبق، أن ابن زمرك خدم أبا الحجاج يوسف الثاني حتى وفاته في أواخر سنة ٧٩٤هـ/١٣٩٢م، فلما قام ابنه محمد السابع مقامه بالأمر، استمر الحال أياماً قلائل، ثم قدم للكتابة الفقيه ابن عاصم لمدة من عام أي حتى أواخر سنة ٧٩٥هـ/١٣٩٣م، أو أوائل سنة ٧٩٦هـ/١٣٩٣م، ثم أعاد ابن زمرك إلى خطته بعد أن تحسنت أخلاقه، واستمر على ذلك وقتاً غير محدد ولكنه، بالتأكيد، غير طويل، حتى هلك مجـدلاً بالسيوف. وقد ختم المقّري كلامه المنقول عن السلطان ابن الأحمر على مقتل ابن زمرك قائلاً: «وقد فهم من مضمون ما سبق أن قتل ابن زمرك بعد عام خمسة وتسعين وسبعمائة»(٦).

وهكذا أستطيع القول إن مصرع ابن زمرك قد تم، على الأرجح، في الشهر الأول أو الشهر الثاني على الأكثر من سنة ٧٩٦هـ/ أواخر ١٣٩٣م.

---

(١) «نهاية الأندلس. . »، ص ١٧٦ و ١٧٧.
(٢) «تاريخ الأدب العربي»، ٢: ٣٧٠.
(٣) ٣: ٩٧٢.
(٤) «A.I.E.O.» مجلد ٢، سنة ١٩٣٦، حاشية ص ٣٠١.
(٥) «الشعر الأندلسي»، ص ٧٢.
(٦) المقّري: «نفح الطيب. . »، ٧: ١٧٠.

وإذا كان هناك من شك قليل حول وفاته بالتاريخ الهجري فإني أستطيع الجزم بأن التاريخ الميلادي صحيح ذلك أنه على فرض مقتل ابن زمرك في أواخر ٧٩٥ هـ يبقى التاريخ الميلادي كما هو ١٣٩٣م.

وقد حزن السلطان يوسف بن الأحمر عليه وتأثر لمقتله وارتجل عند ذكره في كتابه هذه الأبيات في رثائه:

«هَلْ كَانَ إلَّا حيّاً تَحْيَا العِبَادُ بِـهِ ... هَلْ كَانَ إلَّا قَذىً في عَيْنِ ذِي عَوَرِ
إنْ قَالَ قَوْلاً تَرَى الأَبْصَارَ خَاشِعَةً ... لِـمَا يُخَبِّرُ مِنْ وَحْيٍ وَمِنْ أَثَـرِ
يَا لَهْفَ قَلْبِيَ لَوْ قَدْ كُنْتُ حَاضِرَهُ ... غَـدَاةَ جَرَّعَـهُ أَدْهَى مِنَ الصَّبَـرِ
لَمَـا تَـرَكْتُ لَـهُ شِلْواً بِمَضْيَعَـةٍ ... وَلَا تَوَلَّى صَرِيعَ النَّابِ وَالـظُّفُرِ
وَكَانَ مَا كَانَ مِمَّا لَسْتُ أَذْكُـرُهُ ... فَظُنَّ خَيْراً وَلَا تَسْأَلْ عَنِ الْخَبَرِ»[١].

ولم أعثر على غير هذه الأبيات في رثائه. ولم أعجب لهذا قط. بل كنت أعجب لو وجدت شيئاً من ذلك، لسبب بسيط: هو أن السلطان محمداً السابع هو الذي أمر بقتل ابن زمرك، فأي شاعر يجرأ، بعد هذا، على رثائه؟؟ حتى لو كان تلميذاً من تلاميذه الكثر. ومن الممكن أن يكون قد نظم فيه بعض المراثي بعد وفاة محمد السابع، ولكن المصادر لا تتضمن، على كل حال، شيئاً من هذا.

تـلاميـذه:

لم تذكر المصادر أحداً من تلاميذه. لذلك دهشت حين ذكر غومس في كتابه، نقلاً عن بلاشير، أنه من المحتمل أن يكون الشاطبي، المتوفى عام ٧٩٠هـ/١٣٨٨م[٢]، واحداً من تلاميذه، ذلك أن الشاطبي نفسه أطلق في

(١) المقري: «نفح الطيب..»، ٧: ١٦٤.
(٢) «مع شعراء الأندلس..»، ص ٢٠٠ و «A.I.E.O.» مجلد ٢، سنة ١٩٣٦، ص ٢٩٥.

كتابه «الإنشادات والإفادات» على ابن زمرك لقب «صاحبنا»[١]، ولو كان أستاذه لذكر ذلك صراحة. والواقع أن الشاطبي كان زميلاً لابن زمرك. وهو قد أخذ العلم على شيوخ ابن زمرك أنفسهم. ولئن ذكر في كتابه أنه أفاد منه شيئاً عن علم البيان فليس معنى هذا أنه تتلمذ على يديه، وإنما يعني أن زميلاً أخذ شيئاً عن زميل له يتفوق عليه فيه.

كذلك ذكر غومس أنه كان يوجد بين تلاميذه «كما لاحظ ابن الأحمر، من سيتولى الملك مستقبلاً ويأمر بقتله»، ويقصد، بالطبع، محمداً السابع، وهذا خاطىء تماماً. وليس الخطأ في احتمال كون محمد السابع تلميذاً لابن زمرك، فهذا احتمال جائز لا يستطيع أحد أن يؤكده ولا أن ينفيه، ولكن الخطأ في قول غومس أن ابن الأحمر «لاحظ» هذا! مع أن كل ما قاله ابن الأحمر وبالحرف الواحد: «ومراراً عدة سمع ما يلقيه وليّ الأمر»[٢]، وكان يتحدث عن ابن زمرك العائد إلى كرسي الأستاذية بمسجد غرناطة بعد أن عزله محمد السابع نفسه من الوزارة سنة ٧٩٤هـ/١٣٩٢م!

فما علاقة هذا بالتتلمذ؟.

لقد سكتت المصادر، إذاً، عن ذكر تلاميذ ابن زمرك فلا يجوز أن نلجأ إلى التخمين. كل ما يمكن قوله، في هذا الشأن، أنه كان لابن زمرك تلامذة كثير بدليل قول ابن الأحمر أنه كان يحضر دروسه «أمم بمالقة طما منهم البحر»[٢].

صفاته وأخلاقه ولمع من أخباره:

لا نستطيع أن نحيط بصفات ابن زمرك الحقيقية، خَلْقاً وخُلُقاً، وعلينا

---

(١) المقّري: «نفح الطيب..»، ٧: ٢٧٩.
(٢) المقّري: «نفح الطيب..»، ٧: ١٦٨.

استقراء بعضها من شعره، أو استخلاصه، في حال وجوده، مما ألفه لسان الدين ويوسف الثالث ابن الأحمر وإسماعيل بن الأحمر وما قيده علي بن لسان الدين من تعليقات على هامش «الإحاطة..».

وواضح أنه لا يمكن أن يرتاح الدارس إلى أقوال المذكورين جميعاً، ولا أن يطمئن إليها اطمئناناً تاماً، فضلاً عن أن يوليها ثقته الكاملة!. ذلك بأن لسان الدين ترجم ابن زمرك في كتابيه «الإحاطة..» و«الكتيبة الكامنة..»، فأتت الترجمتان متناقضتين! وكان علي بن لسان الدين أبعد الناس عن الموضوعية في تعليقاته، لأنه لم يكتبها بسواد المداد بل بسواد الحقد! وللسلطان يوسف الثالث مصلحة أكيدة في تمجيد ابن زمرك وعدم الطعن في أخلاقه، لأنه كان وزير جدّه الغني بالله وكاتبه لمدة طويلة، ولأن الطعن في أخلاق الوزير يعني الطعن في من عَيَّنَه لكون الشَّنِّ يوافق طَبَقَه، وقد ذكر، هو نفسه، ان ابن زمرك كان رئيس كتاب محمد الخامس فقال: «وحسبك بمن ارتضاه مولانا الجد، رحمه الله تعالى، لكتابته»[1]. وإسماعيل بن الأحمر لم يذكر، في ترجمته ابن زمرك، من صفاته الخلقية والخلقية سوى أن «صورته من براعة الحسن جميلة»[2] ولعله ذكر هذه الجملة استكمالاً للسجع. هذا بالإضافة إلى كونه فرداً من الأسرة الحاكمة.

أما ما وصف به ابن زمرك نفسه فلا يمكننا الاعتماد عليه. وهذا شيء بدهي: ذلك أن الإنسان لا يعرف نفسه، وهو لا يمكن أن ينسب إلى نفسه إلاّ الصفات الحميدة، ولا يتحدث عن عيوبه لأنه، غالباً، لا يراها، بل هو يراها حسنات لا عيوباً!!.

وهكذا يتأكد أنه يتعذر رسم صورة كاملة وصحيحة لابن زمرك الإنسان المتصف، بالضرورة، بشكل ظاهر، وأخلاق معينة، وسلوك محدد.

---

(١) المقري: «نفح الطيب..» ٧: ١٦٣.

(٢) ابن الأحمر: «نثير فرائد الجمان..»، ص ٣٢٨.

ولئن كان كمال الصورة سيفوتني فَلأُحاوِلْ، على الأقل، رسم صورة أقرب ما تكون إلى الواقع، وَلْأَستعرضْ أولاً ما ذكره مترجمو ابن زمرك من صفاته، وَلْأَسترجعْ في ذهني ملامح سيرته وظروف بيئته، ثم لِأَستخلِصْ من هذا الاسترجاع وذلك الاستعراض المادة الأساسية لرسم الصور المطلوبة.

ففي «الإحاطة..» يصف ابن الخطيب تلميذه بأنه «فاضل نجيب، هش خلوب، عذب المفاكهة، حلو المجالسة،... خفيف الروح... حاضر الجواب، شعلة من شعل الذكاء... كثير الرقة، فكه غزل مع حياء وحشمة، جواد بما في يده، مشارك لاخوانه... نشأ عفاً طاهراً... ثاقب الذهن، أصيل الحفظ، ظاهر النبل...»[1]. وفي «الكتيبة الكامنة..» ينعته بأنه «رجيل... مخلوق من مكيدة وحذر، ومفطور اللسان على هذيان وهذر، خبيث، إن شكر خدع ومكر ودسّ في الصفو العكر...» ثم يتحدث بعد ذلك عن نشأته «الشائنة»، ويصفه بالخبث والغدر، وينسب إليه، بكثير من الحذق والمواربة، أشياء تغض من كرامته وإبائه، وتطعن في أخلاقه، حين ألمح إلى أنه كان لديه غلام اسمه فرج يداعبه ويتغزل به[2]. والتناقض ما بين الوصفين واضح، وهو يعود في حقيقته إلى أن ابن الخطيب انتهى من تأليف «الإحاطة..» سنة ٧٧١هـ/١٣٧٠م أو سنة ٧٧٢هـ/١٣٧١م على أبعد تقدير[3]، أي في الوقت الذي كان لا يزال فيه على صلة طيبة بابن زمرك. أما كتابه «الكتيبة..»، فقد ألفه في أواخر سنة ٧٧٤هـ/١٣٧٣م بعد تغيّر وضعه، وتحوله عن غرناطة إلى المغرب، فراراً من نقمة مليكه، وإدراكه غدر أصدقائه القدامى، ولعل الذي دفعه إلى تأليف «الكتيبة..» هو رغبته في «أن يعيد النظر في تقدير الأشخاص الذين تنكروا له مثل القاضي النباهي وابن

(١) ابن الخطيب: «الإحاطة..»، ٢: ٢٢١.
(٢) ابن الخطيب: «الكتيبة الكامنة..»، ص ٢٨٢ و ٢٨٣.
(٣) ابن الخطيب: «الإحاطة..»، مقدمة التحقيق ص ٨٢.

فركون وابن زمرك»(١).

على أن ابن الخطيب، بالرغم من تنكر ابن زمرك له، هذا التنكر الذي دفعه إلى تغيير وصفه وتبديل نعته، لم يتوان عن أن يذكر في «كتيبته» بعض حسنات ابن زمرك، إذ قال: «وانفرد بخفة الروح مع دماثة اليبروح... وآدابه مستميلة ومحاضرته جميلة»(٢).

وعن كتاب «البقية والمدرك من شعر ابن زمرك» نقل المقّري ما تضمنته ترجمة ابن زمرك من وصفه بأنه صاحب «فكاهة ومجالسة أنيقة ممتعة ومحادثة أريضة مزهرة،... مع انقياد الطبع، وإرسال الدمعة في سبيل الخشوع والرقة،... وصون الوجه بجلباب الحياء،.. على طهارة وبذل وسع وكرم نفس.. إلى مبالغة في الهشة.. وجنوح إلى حب الصالحين..»(٣).

ونأتي إلى «نفح الطيب..» المتضمن تعليقات علي بن لسان الدين على هامش ترجمة ابن زمرك في «الإحاطة...» فنجده قد كتب على قول أبيه: «نشأ عفاً طاهراً» ما نصه: «هذا الوغد من شياطين الكتاب... وهو أخس عباد الله تربية وأحقرهم صورة وأخملهم شكلاً...».

وكتب على قوله: «يا مصباح» ما نصه: «كان يحب صبياً اسمه مصباح»!.

وعلى قوله: «ألائمتي في الجود..» ما صورته: «كذبت يا نجس! من أين الفخر لك ولبيتك؟ لست، والله، من الجود في شيء!..».

وعلى قوله: «لقد علم الله أني امرؤ أجرر ذيل العفاف القشيب» ما معناه: «لا والله، فأنت مشهور بكذا، يا قرد، فمن أين العفاف وأنت بالأندلس كذا وكذا»، إلى أن قال «.. وأنحسهم بيتاً».

---

(١) ابن الخطيب: «الكتيبة..»، مقدمة التحقيق ص ١٨.

(٢) ابن الخطيب: «الكتيبة الكامنة..» ص ٢٨٢ و٢٨٣.

(٣) المقّري: «نفح الطيب..»، ٧: ١٦٦ و ١٦٧.

ثم ينهي المقّري هذه التعليقات، بتعليقه هو عليها فيقول: «وقد نسبه إلى ما لا يليق، فالله أعلم بحقيقة الأمر»[١].

أما ما وصف به ابن زمرك نفسه فأستطيع أن استخرجه من أشعاره. مع التذكير بأن هذا الوصف قد لا يطابق الواقع. فهو يصف نفسه بأنه كتوم للسر:

يَـا سَائِلِي عَنْ سِـرٍّ مَنْ أُحْبَبْتُهُ   السِّـرُّ عِنْـدِي مَيِّتُ الإِحْيَـاءِ[٢]

ويتحدث عن شجاعته وخوضه غمار المفاوز:

كَمْ خُضْتُ دُونَكِ مِنْ غِمارِ مَفَازَةٍ   لاَ تَهْتَدي فيها اللُّيُوثُ لِمَجْثِمِ[٣]

ويقول إنه عفيف يخاف الله:

خَلَوْتُ بِمَنْ أَهْوَاهُ مِنْ غَيْرِ رِقْبَةٍ   وَلَكِنْ عَفَافِي لَمْ أَكُنْ عَنْهُ خَالِيَا[٤]

ويرى نفسه جواداً كريماً:

أَلاَئِمَتِي فِي الجُوْدِ وَالجُودُ شِيمَـةٌ   جُبِلْتُ عَلَى إِيثَارِهَا يَوْمَ مَوْلِدِي[٥]

يرعى الإلف ولا ينسى العهد:

وَمَا زِلْتُ أَرْعَى العَهْدَ فِيمَنْ يُضِيعُهُ   وَأَذْكُرُ إِلْفِي مَا حَيِيتُ وَيَنْسَانِي[٦]

ويطلب العلى والمجد بعزم لا يلين:

وَكَمْ بِتُّ أَطْوِي اللَّيْلَ فِي طَلَبِ العُلَى   كَـأَنِّي إِلَى نَجْمِ السَّمَاءِ سَفِيـرُ
بِعَـزْمٍ إِذَا مَا الليْـلُ مَدَّ رِواقَـهُ   يَكُـرُّ عَلَى ظَلْمـائِـهِ فَيُنِيـرُ[٧]

(١) المقري: «نفح الطيب..» ٧: ١٦١ و١٦٢.
(٢) نفسه، ٧: ١٨٠.
(٣) نفسه، ٧: ١٨٥.
(٤) نفسه، ٧: ١٨٨.
(٥) نفسه، ٧: ١٥٩.
(٦) نفسه، ٥: ٤٧.
(٧) نفسه، ٦: ٧٩.

ومن أجل هذا يحب السفر والتغرب:

هَـذَا عَلَى أَنَّ التَّغَـرُّبَ مَـركبِي وَتَوَلُّجَ الفِيحِ الفِسَاحِ شِعَارِيَ(١)

حتى شاب وهو شابّ:

بَيْنَـا أَنَـا وَالشَّبَـابُ ضَـافِ وَظِـلُّهُ فَـوْقَـنَـا مَـدِيـدْ...

إِذْ لَاحَ فِي الفَـوْدِ غَيْـرَ خَـافِ صُبْـحٌ بِـهِ نَبَّـهَ الـوَلِـيـدْ(٢)

بعد هذا العرض السريع الموجز لما وصف به خُلُق ابن زمرك، يلح علينا السؤال الآتي: ما هو ابن زمرك في الحقيقة؟.

وتمهيداً لتحديد معالم هذه الماهية يجدر بي أن أذكر بأن ابن زمرك كان قد انضوى فترة إلى بعض الفرق الصوفية. وهو، لهذا، يتصف بنزعة صوفية لا شك في أنها أثرت في طباعه وسلوكه فتركت في قلبه خشوعاً، وفي أثوابه عفة وطهارة، فلم يُعرف عنه ما يعيب سلوكه، إلّا ما ألصقه به لسان الدين في «كتيبته» وابنه علي في تعليقاته، من حب الغلمان، وإلّا قصة غدره بأستاذه لسان الدين والسعي للتخلص منه.

فأما الأمر الثاني فقد تحدثت عن كيفيته وظروفه ملياً في ما سبق. وأنا لا أبرىء ابن زمرك من تبعة هذه الجريرة، وإن كنت ألتمس له فيها بعض العذر، لا رغبة مني في تقديسه، فإن اتّصافه بالعيب لا ينقص شيئاً من قيمة أدبه وإن كان يفسره، فأبو نواس الذي كان من أكثر شعراء العصر العباسي فحشاً ومجوناً، عدّ ولا يزال يُعَدُّ من أكثرهم شاعرية وأكبرهم منزلة، ولكني أفعل هذا رغبة في ذكر ما أراه حقاً، والحق أولى أن يقال فلقد كان ابن زمرك أمام خيارين لا ثالث لهما: إما أن يكون وفياً لأستاذه فيقف إلى جانبه ويفقد، بدوره، منصبه وربما حياته، وإما أن يكون وفياً لمليكه فينفذ أوامره ويسعى في

(١) المقري: «نفح الطيب...»، ٧: ١٥٢.
(٢) نفسه، ٧: ٢٤٥.

قتل من علّمه وأدّبه، فيفقد، بهذا، شيمة محببة لدى الإنسان: هي شيمة العرفان بالجميل. ولما كان الإنسان ضعيفاً أمام إغراءات الحياة، فقد اختار ابن زمرك الوقوف إلى جانب مليكه ضد أستاذه. ثم إن الطموح أهم ما يمتاز به ابن زمرك، وقد عرف كيف يستغل الفرص ليصل إلى ما يريد، ولو على حساب شيمة من شيمه. وسبحان من له الكمال وحده.

وأما اتهامه بحب الغلمان فمردود في رأيـي، لأسباب كثيرة منها: أن هذا الاتهام ورد في «الكتيبة..»، ولو ورد في «الإحاطة..» لأخـذت به وأعلنته، والسبب في هذا أصبح معروفاً.

ومنها أن اتهام لسان الدين وابنه، فضلاً عن أنه نابع من نقمتهما على ابن زمرك، وأنه لم يرد على لسان أحد غيرهما، ظلّ مجرد أقوال خارجة عن نطاق الاثبات. والقاعدة القانونية تقرر أن المتهم بريء حتى تثبت إدانته.

ومنها أن ابن زمرك كان جليساً فكهاً، خفيف الظل، يحب المداعبة. ولا أشك في أن تكون قصة فرج الذي اتهمه به لسان الدين من قبيل مداعباته. فقد نظـم فيه بيتين ذكرهما ابن الخطيب في «كتيبته» يقول فيهما:

يَـا فَـرَجـاً عَلَّلْتُ نَفْسِي بِـهِ   وَالفَـالُ مَحْبُـوبٌ لِتَـعْلِيـلِهِ
حَــرَّمْتُ إحْلِيلَكَ هَـذَا عَلَى   نَفْسـي وَأَفْتَـيْتُ بِـتَحْـلِيلِهِ[1]

ولو كان ابن زمرك «يحب» غلامه هذا لما نظم فيـه هذين البيتـين وأذاعهما، إلاّ أن يكونا من نظم ابن الخطيب، رغبة منه في إثبات التهمة. وجدير بالملاحظة أن هذين البيتين لم يردا إلاّ في «الكتيبة..».

ومنها أنه كان متزوجاً وله أولاد[2]. ومع أن المصادر لم تذكر متى تزوج

(١) ابن الخطيب: «الكتيبة الكامنة..»، ص ٢٨٣.
(٢) المقّري: «نفح الطيب..»، ٧: ١٧٠.

ولا بمن تزوج ولم تحدد عدد أولاده، ذكوراً وإناثاً، غير أن الثابت أنه تزوج وأنجب أولاداً. وهذا الزواج وهذا الإنجاب دليلان آخران لمصلحة الشاعر. فإذا كانا لا ينفيان عنه التهمة، فهما يبعدانها عنه على الأقل.

ومنها أن ابن زمرك كان من كبار رجال الحاشية، وكان يطمح إلى منصب الوزارة، فلا يعقل أن يشين وجه تصرفاته ويهدم بناء سمعته بعمل مناف للأخلاق والدين.

ومنها أن ابن زمرك ظلّ في خدمة الغني بالله مدة تزيد على ثلث قرن، فلو أنه كان، بالفعل، لواطياً لما رضي الغني بالله أن يبقيه في منصبه، إلاّ إذا كان، هو نفسه أيضاً، يحب الغلمان. وهذا منطق يجرنا إلى اتهام الغرناطيين كلهم جميعاً بهذه الوصمة.

ومنها أن النزعة الصوفية التي اتّصف بها ابن زمرك، قد اتصف بها أيضاً معظم أدباء العصر النصري، حتى لسان الدين اندفع بتأثيرها إلى تأليف «روضة التعريف بالحب الشريف»[١]. وهذه النزعة الصوفية تركت بصماتها واضحة في النتاج الأدبي وأثرها بيّناً في السلوك الخلقي فاختفى غزل الغلمان[٢] كما اختفى اللواط. ولئن كان لكل قاعدة استثناء، كما قد يتبادر إلى بعض الأذهان، وهذا صحيح، فإني أستطيع أن أؤكد، بعد ملازمتي الطويلة لابن زمرك، قراءة وبحثاً وتدقيقاً، أن ابن زمرك كان يرفرف على سلوكه علم القاعدة ولم تسر عليه يوماً أحكام الاستثناء البغيض.

فلندع، إذاً، هذا الاتهام الكاذب جانباً ولننقل أن ابن زمرك كان رجلاً طموحاً لا تقفه عقبة في طريق الوصول إلى ما يريد، ولو تمثلت هذه العقبة

---

(١) ابن الخطيب: «الإحاطة...»، ص ٧٠ و ٧٦.

(٢) الكفراوي، د. محمد عبد العزيز: «تاريخ الشعر العربي»، دار نهضة مصر، الطبعة الأولى، الجزء الرابع، ص ٩٨.

دعامة من دعائم الشرف وحصناً من حصون الوفاء والعرفان. ولقد كان ذكياً، شائق الحديث، حلو المعاشرة، خفيف الروح، إلى خشوع في القلب وطهارة في الثوب، وإلى بشاشة دائمة وحب للمداعبة وتمسك بالنادرة.

ومن «تنديراته» على أبي الحسن المحروق، لميله عنه، أنه قال فيه:

وَلَـدُ الفَقْـرِ والـرِّبَـاطِ وَلَكِنْ نَفْسُهُ للسُّلُوكِ ذَاتُ افْتِقَارِ[١]

ومن أخباره الطريفة، ما رواه ابن الخطيب في «الكتيبة» وفي «أعمال الأعلام».

ففي «الكتيبة..» ذكر ابن الخطيب أن ابن زمرك مرض، ذات يوم، فعاده الكتاب «والطبيب بين يديه يتخذ له شراباً والنحل تغطيه أسراباً... وقد ألحت منها واحدة فأخذت تنزل على وجهه مرة وعلى أدوات الكتابة مرة، فقال بعضهم: أجز يا فقيه:

يَـا حُسْنَهَـا إذْ أَتَتْ مُغَـرِّدَةً عَلَى القَضِيبِ النَّجِيبِ مِنْ قَلَمِكْ

فـقال الآخـر:

قَدْ نَالَتِ اللَّوْنَ مِنْ دَوَاتِكَ وَالـ ـشَّهْدَ الشَّهِيَّ المَذَاقِ مِنْ شِيَمِكْ

وقـال الثالـث:

كَـأَنَّهَا فِي اقْتِـرَابِهَـا فَـرَجٌ يُهْدِي إِلَيْكَ الشِّفَاءَ مِنْ أَلَمِكْ

فغضب ابن زمرك وقال: «اخرجوا يا أبناء الفاعلة، جئتم تعودوني (كذا) وتهجوني وتحرفون مزاجي، والله ان زادتني زيادة لأدمين عليكم»[٢]. فانصرفوا ضاحكين متملحين[٣].

---

(١) المقري: «نفح الطيب..»، ٧: ١٦٧.

(٢) من الملاحظ أن هذه الجملة أقرب إلى العامية منها إلى الفصحى.

(٣) ابن الخطيب: «الكتيبة الكامنة..»، ص ٢٤٧ ـ ٢٨٤.

وفي «أعمال الأعلام» روى لنا ابن الخطيب طرفة أخرى من طرائفه. موجزها أن رجلاً يعرف بابن الحسن طلب من المنصور ابن أبي عامر أن يوليه القضاء بجهته ليتشفى من أكل التين فولاّه. فلما وقف القاضي علي بن الحسن النباهي على هذه الحكاية، ظهر له، بسبب اشتراك اسمه مع ابن الحسن المذكور، أن يكتب من هذه الحكاية نسخاً كثيرة، أنفق عليها ما يضيق عنه ماله وحاله، وراح يهديها أو يبيعها. فسأل ابن الخطيب ابن زمرك رأيه في هذا، وكان ابن زمرك مولعاً بالعبث بالقاضي النباهي وبحفظ نوادره، فقال: «إنه سمع الحديث: تزوجوا فإني مكاثر بكم الأمم، فقدر، جارياً على أقيسته الفقهية، أن كل مكثر لشيء ما فهو مأجور». فلما اجتمع الثلاثة في منزل أحدهم ابن الخطيب، فتح ابن زمرك باباً للحديث، فما كان من القاضي النباهي إلاّ أن قال: «يا سيدي هو ذكر جميل، وفيه فخر للولد». فقال ابن الخطيب: «سبحان الله، وعلى فرض أن هذا الرجل المذكور في الحكاية جدك، فأي فخر في من تبيّن أن سبب طلبه القضاء الذي يستعفي عنه أهل الفضل والورع، هو حبّ التين؟!... ولو أدركت هذا الرجل الذي ترغب في الخلاص إليه للقبته بطير العصير (وهو طائر معروف بأكل التين). فقال ابن زمرك: حضرني أبيات أخاطب بها سيدي الفقيه. ثم أنشد:

أَحَافِدَ عَبْدِ التِّينِ يَمْلأُ بَطْنَهُ ... مِنَ التِّينِ[1] .... مِنْ غَيْرِ
لَقَدْ كُنْتُ قَبْلَ اليَوْمِ فيكَ مُخَيَّراً ... إلى أَنْ هُدِيتُ الفِكْرَ مِنِّيَ لِلسَّيْرِ
فَقَدْ طِبْتَ مِنْ طَيْرِ العَصِيرِ بِنِسْبَةٍ ... فَخَرْتَ بِهَا بَيْنَ القُضَاةِ عَلَى الغَيْرِ
فَأَنْتَ إذاً مِنْ ذَرْقِ جَدِّكَ نَابِتٌ ... كَمَا تَنْبُتُ الأَشْجَارُ مِنْ ذَرَقِ الطَّيْرِ

فحرد القاضي ابن الحسن من هذا وأراد أن يجيب ابن زمرك فأرتج عليه[2].

---

(١) كلمات غير مفهومة.

(٢) ابن الخطيب: «أعمال الأعلام..»، ص ٧٨ ـ ٨٠.

وهنا أترك ابن زمرك يذهب في الدعابة كل مذهب. وأدع ابن الخطيب يعجب بما أتى به ابن زمرك من الشعر «المستظرف في معناه». وأتخلى عن القاضي النباهي، وهو يقف هذا الموقف الصعب، لا يعرف كيف يرد الإهانة الموجهة إليه، والمغلفة بغطاء شفاف مزخرف بالاستهزاء والسخرية الضاحكة. أذر هذا كله لأنهي هذا الباب بالكلام على آثار ابن زمرك.

آثــاره:

كان ابن زمرك شاعراً وكاتباً، وكان نتاجه الشعري وفيراً. ويكفي أن نتذكر ما كتبه في رقعة من رقاعه، سبق الإشارة إليها[1]، حتى نعرف أنه لم يكن مقلاً. فقد نظم ستاً وستين قصيدة في الأعياد والمناسبات، يضاف إليها الموشحات، ومقطعات التهنئة والرسائل والأبيات المنقوشة على جدران قصر الحمراء. إلاّ أن الذي بقي من شعره، يقارب، على الأرجح، نصف نتاجه. وقد جمع السلطان يوسف الثالث ابن الأحمر أشعاره في كتاب سماه «البقية والمدرك من شعر ابن زمرك»، ولكنه ضاع ولم يصل إلينا. ومعظم ما وجدته أورده المقّري في كتابيه «أزهار الرياض. .» و«نفح الطيب. .»[2].

فإذا عرفنا أن قصائده المنظومة في الأعياد والمناسبات والباقية حتى اليوم، قد تراوح عدد أبياتها بين ثمانية وستين بيتاً، ومائة وستة وأربعين بيتاً، وإذا أخذنا بالحد الأدنى كمعدل وسطي لعدد أبيات القصائد الست والستين، ثم أضفنا إليها أبيات مقطوعاته في التهنئة والشكر والأغراض المختلفة، إذا عرفنا هذا تبين لنا بوضوح أن ديوانه يتعدّى خمسة آلاف بيت من الشعر، على الأقل.

وبناءً على هذا سأبدأ بدراسة هذا النتاج، دراسة تحليلية، تكشف عنه الغطاء وتمهد لإصدار حكم عادل على ابن زمرك وإنتاجه.

---

(١) تراجع ص ١٤ من هذه الدراسة.

(٢) يراجع الجدول الأول في ص ٢٤٣ من هذه الدراسة.

القسم الثاني

الفصل الأول : نثره.

الفصل الثاني : شعره.

المبحث الأول : موشحاته.

المبحث الثاني : شعره المدحي : مولدياته، غنياته، مراثيه، فخره.

المبحث الثالث : وصفه.

المبحث الرابع : غزله.

المبحث الخامس: المسحة الصوفية في شعره.

الفصل الثالث : فنيته.

الفصل الرابع : سقطاته.

الفصل الخامس : تقليده وتجديده.

المبحث الأول : التقليد.

المبحث الثاني : التجديد.

الفَصل الأوّل

نــــثره

قلت إن ابن زمرك كان شاعراً ووشاحاً وكاتباً. وهذا يعني أن له نتاجاً في فنون الشعر والتوشيح والكتابة. ولئن كان ما بقي من نتاجه الأدبي في الشعر يفوق، كماً وكيفاً، ما بقي منه في النثر، فلا يمنع هذا أن أدرس نثره الذي وصل إلينا منه رسائل ثلاث وقطعتان قصيرتان[1]. وأغلب الظن أن لابن زمرك رسائل كثيرة كتبها بحكم عمله في رئاسة القلم الأعلى وفي أمانة السر التي تستلزم أن يكتب صاحبها عن ملكه كل مخاطباته ومراسيمه. ولعل له أيضاً رسائل إخوانية كثيرة، ولكن لم يصل إلينا من كل ما كتب إلاّ ما ذكرته أعلاه.

وبسبب قلة نماذج الشاعر النثرية، سوف أبدأ بدراستها لأفرغ بعد ذلك لدراسة شعره وتوشيحه، زاعماً أنها تكفي لإظهار أبرز ما فيها من خصائص عرف بها معظم نثر ذلك العصر. ولو ظهر بعد هذه الدراسة رسائل لابن زمرك، بحيث تغير «الكم» فلعل «الكيف» لا يتغير كثيراً، ذلك أن عناصر الأسلوب النثري في القرن الثامن الهجري (القرن الرابع عشر الميلادي) كانت متشابهة لدى أدباء غرناطة.

(١) ابن خلدون: «التعـريف..»، ص ٢٦٨ ـ ٢٧٤. وابن الخطيب: «الإحـاطـة..»، ٢: ٢٣٧ ـ ٢٣٩ و٢: ٢٣٩ ـ ٢٤٠. والمقّري: «أزهار الرياض..»، ١: ٦٣ ـ ٦٤، و«نفح الطيب..»، ٧: ١٦٧.

فأما القطعتان القصيرتان فقد أشرت إلى إحداهما أكثر من مرة في ما سبق من متن هذه الدراسة، وهي عبارة عن رقعة وقف عليها السلطان يوسف الثالث ابن الأحمر وضمها إلى كتابه «البقية والمدرك..». وهي مؤلفة من ثمانية أسطر كتبها ابن زمرك، بالتأكيد، بعد وفاة الغني بالله،(١) وهو يذكر فيها أنه خدم الغني بالله سبعاً وثلاثين سنة، أنشده فيها ستاً وستين قصيدة، وأن كل ما نقش في القباب والطاقات هو من نظمه، وأنه عقد الصلح مع النصارى مرات تسعاً بتفويض من الغني بالله. ثم ينهي هذه الرقعة باستفهام إنكاري يظهر وكأنه رد على اتهام ودفاع عن النفس إذ قال: «أَلِخِسَّةٍ فوّض إليّ ذلك!؟».

ومن الواضح أن هذه القطعة، لا قيمة فنية لها، لا لأنها خلت من العنصر الأول والأبرز في نثر ذلك العصر، وأعني به السجع، فالسجع، كما هو معلوم، ليس عنصراً من عناصر الأدب، بل لأنها لا تحمل، أصلاً، الطابع الأدبي، فهي مجرد كلمات وأعداد رصفها ابن زمرك رصفاً فبدت وكأنها لائحة دفاع قدمها محام إلى محكمة الاستملاك!!.

أما القطعة الثانية فهي مختلفة تماماً عن القطعة الأولى، إذ كتبها ابن زمرك حين توجه الغرناطيون للدفاع عن مرج غرناطة، في وقت غير محدد، ذلك أن المقّري الذي أورد هذه القطعة في «أزهاره»(٢) لم يذكر تاريخها، وكل ما قاله، في معرض ذكره كثرة ما صدر عن العلماء والكتّاب والوزراء من كتب يحركون بها «حميات ذوي البصائر والأبصار ويستنهضون عزماتهم من كل الأمصار»: «فمن ذلك ما كتب به الكاتب الرئيس أبو عبد الله ابن زمرك، رحمه الله، لما نزل المسلمون بآخر مرج غرناطة»(٢)، هذا المرج الشهير الذي

(١) أي بعد سنة ٧٩٣هـ/١٣٩١م.

(٢) المقّري: «أزهار الرياض..»، ١: ٦٣ و ٦٤.

تواصلت على مسرحه معارك المسلمين والنصارى لمدة تزيد على قرنين. وأغلب الظن أنه كتبها في الفترة الواقعة بين تعيينه أميناً للسر وتنصيبه وزيراً، وهذا ما يوحي به، بالضبط، لقب الكاتب الرئيس.

والقطعة مؤلفة من عشرة أسطر، ومن المحتمل أن تكون مجتزأة من رسالة كاملة، غير أني أميل إلى عدّها قطعة مستقلة، لأن غرضها حث المسلمين على الجهاد، وبيع نفوسهم من الرحمن في موقف الدفاع عن الوطن ورد العدوان. وهو موقف يستدعي الاختصار في الكلام، والاقتصار على ما يناسب المقام. وقد بدأها بالجملة الآتية: «اعلموا أنا نذكر لكم ما لا يغيب عن أديانكم وأحسابكم..»، ثم أخذ يحض فيها الغرناطيين على الجهاد ويرغبهم فيه للفوز برحمة الله ومحبته، ويذكرهم بالآية الكريمة: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ ﴾[١]. ثم ختمها بقوله: «فينبغي فيه الاستغفار من سالف الذنوب، وتطهير السرائر والقلوب، واجتماع الأيدي والكلمة في مرضاة علام الغيوب».

وأبرز ما يلاحظ في هذه القطعة تسجيع فواصلها وسهولة ألفاظها، وبعد هذه الألفاظ عن التقعر والتعقيد. فهي مسجعة بكاملها، حتى الآية الكريمة المنتهية بكلمة «مرصوص» كانت مسبوقة بجملة تنتهي بكلمة النصوص. على أن السجع، في هذه القطعة، وإن كان مصنعاً، لا يبدو متصنعاً.

أما الرسائل الثلاث فاثنتان منها موجهتان إلى لسان الدين بن الخطيب والثالثة إلى ابن خلدون. وهذه الأخيرة مؤرخة في العشرين من محرم سنة ٧٨٩هـ، وهي واردة في كتاب «العبر..»[٢] وفي «التعريف..»[٣]. ولقد صدرها بقصيدة مدحية من ستة وسبعين بيتاً مطلعها:

(١) «الصف» ٦١/٤.
(٢) ٧: ٤٥٨ ـ ٤٦٠.
(٣) ص ٢٩٠ ـ ٢٩٨.

«سَلُوا البَارِقَ النَّجْدِيَّ مِنْ عَلَمَيْ نَجْدِ تَبَسَّمَ فَاسْتَبْكَى جُفُونِي مِنَ الوَجْدِ»

ثم وصل هذه القصيدة بنثر بلغ الذي أورده ابن خلدون في كتابه منه بضع صفحات. وهو يفتتح كلامه النثري مخاطباً ابن خلدون بألقاب التبجيل والتعظيم - في سبعة أسطر - ثم يلقي عليه السلام - في ثمانية أسطر - ثم يسأله عن حاله ويذكر فضله ويعود إلى تمجيده فيسرف فيه - في خمسة عشر سطراً -. إلى هنا يكثر السجع ويتواصل، ثم يبدأ ابن زمرك، بعد ذلك، بإرسال الكلام إرسالاً: فيذكر أنه وجه إلى ابن خلدون جملة من الكتب والقصائد، منها القصيدة «الفريدة» التي نظمها إثر علمه بغرق أسرة ابن خلدون في البحر، ثم يتساءل إن كانت قد وصلت إليه أم غالها الضياع، ويذكر أنه لم يصل إليه من ابن خلدون أية كتب مع علمه بضياع اثنين منها.

وهنا يقطع ابن خلدون كلام ابن زمرك ليقول بأسلوبه أن في الكتاب إشارة إلى أنه بعث قصيدة في مدح الملك الظاهر صاحب مصر، وطلب منه أن يرفعها إلى السلطان، فنسخها بالفعل ورفع النسخة والأصل إلى السلطان فقرأها كاتب سره عليه، غير أن ابن خلدون نسي أن يحتفظ بنسخة منها لنفسه، فضاعت من يديه، وإن في الكتاب فصلاً عرّفه فيه بشأن الوزير مسعود بن رحّو المستبد بأمر المغرب، وما جاء به من الانتقاض عليهم، فيسرد قطعة من هذا الفصل ثم يذكر أن بعد هذا الفصل فصلاً آخر يطلب فيه كتباً من مصر يحب أن يضيفها إلى كتبه التي عدد قسماً منها، كالسفر الأول من تفسير أبي حيان وملخص إعرابه وكتاب المغني لابن هشام...

ويذكر ابن خلدون في النهاية أن في الكتاب فصولاً أخرى في أغراض متعددة، لم يجد حاجة إلى ذكرها ويقول إنه ختم كتابه بالسلام وأرخه وكتب اسمه: محمد بن يوسف الصريحي.

وهكذا نرى أن ابن زمرك لجأ إلى التسجيع في مقدمة الرسالة، حين

خاطب ابن خلدون بألقاب كثيرة، مجّده فيها وعظّمه، ولكن سرعان ما ترك السجع إلى الترسيل، حين أراد التعبير عن حاجاته ومطالبه. على أن السجع في هذه الرسالة لا يصدر كله عن صنعة متقنة بل هو يتكلف تكلفاً:

«أبقاكم الله بقاءً جميلاً يعقد لواء الفخر... ويوضح معالم السيادة ويرسل أشعة السعادة... بأي التحيات أفاتحك... إن قلت تحية كسرى في الثناء وتبّع فأثرك لا يقتفى ولا يتبع... وهذه جهالة جهلاء لا ينطبق على حروفها الاستعلاء، قد محا رسومها الخفاء، وعلى آثار دمنتها العفاء...».

ألّا نرى أنها جمل مرصوفة بعناء كبير؟ ألا نراها مكتوبة بحبر التصنع؟ وأنها مجرد حشو لا فائدة فيه ولا طائل وراءه؟.

ولقد حاول ابن زمرك أن يقلد أستاذه ابن الخطيب بإدخال التسجيع المزدوج وأعني به تضمين الجملتين سجعتين داخليتين ـ وهذا شيء قريب من الترصيع ـ إلّا أنه لم يوفق:

«وإن كانت التحيتان طالما أوجف بها الركبان وقعقع البريد ولكن أين يقعان مما أريد؟».

وكأنه شعر بالاخفاق فلم يعد إلى تكرار مثل هذا في كل ما وصل إلينا من رسائله.

وقد تضمنت رسالته شطري بيتين من الشعر ذهب كل منها مثلاً:

«عَلَى آثَارِ دِمْنَتِهَا العَفَاءُ»
و «الشَّمْسُ تَكْبُر عَنْ حَلْيٍ وَعَنْ حُلَلِ»

ويلاحظ بعد هذا كله، أن ابن زمرك لم يأت بأية لفظة غريبة في رسالته كلها، وأنه ضمن مقدمتها المسجعة ستاً وعشرين استعارة، ولا شيء سوى

الاستعارات: (أشعة السعادة، ألسنة المحامد، غمام الرحمة، في أي بحر من ثنائك يسبح القلم. . .).

وأكثر هذه الإستعارات لا يحمل من الطرافة شيئاً ذا بال، غير أنه يجب التنويه باستعارة جميلة موفقة جاءت في قوله: «أترك عذبة اللسان تلعب بهارياح الأشواق وأسلة اليراع تخضب مفارق الطروس بنجيع الحبر المراق». أفلا ننظر إلى تلك الأشواق كيف انقلبت، فجأة، رياحاً عاتية، وراحت تلعب بلسان الشاعر الذي تحول بقدرة خيال واسع إلى طرف غصن، أو خيط ميزان، أو عِلاقة سوط، فراح يتحرك بفعل الرياح، فيصدر عن حركاته صوت ملؤه المودة والحنين!!.

وفي رسالته لابن الخطيب، جواباً عن رسالة خاطب بها لسان الدين أولاده وهم مع الغني بالله في «المنكب»، امتزج نثر ابن زمرك بنظمه، إذ صدّر تلك الرسالة بقصيدة من اثني عشر بيتاً، زعم المقّري أنها موشحة(١)، وهو زعم خاطىء، لأنها، في الواقع، قصيدة منظومة على مشطور مخلع البسيط ومطلعها:

«مَالِي بِحَمْلِ الهَوَى يَدَانِ»

وهذه الرسالة مؤرخة في الخامس عشر من جمادى الأولى عام تسعة وستين وسبعمائة، وهي مجتزأة على الأرجح، إذ لم يتجاوز ما بقي منها صفحتين اثنتين، جل مضمونها تعظيم وتمجيد للسان الدين، وإظهار للشوق والمحبة، ووصف لإعجاز رسالته وإحكام رصفها وعذوبة ألفاظها وفرادة معانيها وإبداعها، بحيث يستحيل تقليدها، ثم دعاء له بحفظ مراتبه، وإعلاء درجته في الدارين، وذكر فضله، وتوجيه السلام إليه. وقد كتبت «في الخامس عشر لجمادى الأولى عام تسعة وستين وستمائة»(١)، وواضح أن التاريخ غير

(١) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٠ و١١، و«نفح الطيب..»، ٧: ٣٣٩.

صحيح وأن الخطأ كامن في لفظة ستمائة والصحيح سبعمائة.

وقد أتت الرسالة كلها مسجعة الفواصل، امتزج فيها السجع اللطيف المصنوع[١] بالسجع المتكلف[٢]، كما ضمنها شطراً من بيت:

«أَشْكُو إِلَى اللَّهِ لَا أَشْكُو إِلَى أَحَدِ»

ومثلاً معروفاً: «يداوي الناس وهو عليل».

أما محسناتها البلاغية فقد تنوعت هذه المرة، بين وجوه بيانية[٣] ووجوه بديعية[٤].

وأما تعابيرها فواضحة لا تعقيد فيها وأما ألفاظها فسهلة ليس فيها من الغريب شيء.

الرسالة الثالثة موجهة أيضاً إلى لسان الدين، وقد اقتطف منها هذا الأخير صفحة واحدة أودعها كتابه «الإحاطة..»[٥] وقدّم لها بقوله:

«وخاطبني أيضاً لذلك، وهو من الكلام المرسل...».

وقد تضمنت هذه الصفحة اثنتين وعشرين جملة مسجعة كلها تمجيد للسان الدين وذكر لفضله، وخمس عشرة جملة مرسلة يعلمه فيها بوصوله مع

(١) «استغفر الله يا سيدي الذي يوقد أفكاري حلو لقائه، وأتنسم أرواح القبول من تلقائه، وأسأل الله أن يديم آمالي بدوام بقائه».

(٢) «وولى فضله من ولى، وصرف هواه إلى رضى المولى، لعلمه أن صور السعادة... تجلى وثمرة فكره... تجلى، شكر الله له عن نعمه التي هي أولى وحفظ عليه مراتب الكمال التي هو الأحق بها والأولى».

(٣) ١٩ استعارة (ابتسام البرق، ظمأ الشوق)، ٦ كنايات (جانحة الأصيل، نار الخليل)، تشبيهان بليغان (أخلاقه نور)، مجاز عقلي (يوقد أفكاري)، مجاز مرسل (قربت منها يداه).

(٤) ٩ طباقات (ضحكت فأبكت، الرائح والغادي، جناس تام (نجاد ونجاد)، ١٢ جناساً ناقصاً (المذهب والمذهب، تبتسم وترتسم).

(٥) ٢: ٢٣٩، و ٢٤٠.

الغني بالله إلى المنكب بخير، واستقر الجميع بمحل القصبة، ودعاء بتقريب اللقاء وإلقاء السلام. . .

وقد جاء في هذه القطعة بيت من الشعر لشاعر لم أستطع تحديد اسمه:

«خَلِيلَيَّ هَلْ أَبْصَرْتُمَا أَوْ سَمِعْتُمَا   بِأَكْرَمِ مَنْ تَمْشِي إِلَيْهَا عَبِيدُهَا»

كما جاء في مطلع الرسالة: «أبو معارفي ومفيدها وولي نعمتي ومعيدها»، وسرعان ما لفتني رفع كلمة «أبو»، وظننت، في البدء، أن في هذا خطأً مطبعياً لكونْ الرسالة خطاباً يحسن فيه أن تنصب كلمة «أبو» بصفتها منادى منصوب بحرف نداء محذوف، ولكني حين انتهيت من قراءة الرسالة أدركت سبب الرفع، فقد ورد في آخرها قوله: «ورفعنا مخاطبة المالك على الابتداء». . وإذاً، فابن زمرك تعمد أن يأتي بالكلمة الأولى مرفوعة، وفي هذا مهارة وحذق غير خافيين، ذلك أن هناك فرقاً كبيراً بين الجملة الإنشائية (يا أبا معارفي) التي تدل على مجرد نداء يقصد منه استحضار الذهن ولفت الانتباه إلى ما يليه، وبين الجملة الخبرية (أبو معارفي أنت) التي تتضمن تقريراً واعترافاً بواقع الحال!!.

وفي ما يتعلق بالمحسنات البيانية والبديعية، فإن القطعة تتضمن شيئاً قليلاً منها[١].

وهكذا نرى أن ابن زمرك قد مزج في رسائله مرسل الكلام بمسجعه ولئن كان أكثر سجعه متكلفاً، فإنه في مرسله بعيد عن التكلف يكتب على سجيته.

وتجدر الإشارة، بهذه المناسبة، إلى أنه كان يأتي بالسجع في مقدمات

(١) مجازاً مرسلاً (أياديه)، وكنايتين (أنخنا المطية)، وخمس استعارات (ظَهْرُ الشكر)، وسبعة جناسات ناقصة (تعددت وتجددت، تقديم وتقويم).

رسائله، بغرض التمجيد والتعظيم، حتى إذا أراد أن يعبـر عن حاجـاته ورغباته، ويحدث عن أخباره، راح يرسل الكلام إرسالاً. وهذا شيء طبعي يحمد عليه. ذلك «أن السجع، لما كان زينة للكلام، فقد يدعو إلى التكلف، فرأيـي ألّا يستعمل في جملة الكلام وألّا يخلى الكلام بالجملة منه أيضاً... (و) لا يحسن في الكلام جميعاً أن يكون مستمراً على نمط واحد، لما فيه من التكلف، ولما في الطبع من الملل عليه، ولأن الافتنان في ضروب الفصاحة أعلى من الاستمرار على ضرب واحد..»[1].

على أن أهم الملاحظات التي يمكن استخلاصها مما سبق عرضه، أن ابن زمرك لا يلجأ إلى استعمال الغريب من الألفاظ، فألفاظ رسائله سهلة لا تعقيد فيها ولا غرابة، ولا تستوجب، البتة، البحث في بطون المعاجم وأحشاء القواميس، وهذه خاصة يتصف بها في كل نتاجه الأدبي، وتميزه عن كثير من الكتّاب الذين جروا على إدخال الغريب من الألفاظ في رسائلهم. ثم إنه كان يضمن كتاباته وجوهاً بيانية أكثرها استعارات، ووجوهاً بديعية أكثرها جناس ناقص. ولقد كانت جمله، في أكثرها، غير متساوية، إذ لم يكن يهتم للمزاوجة بين الجمل، ولكنه، بالمقابل، كان يصوغ الكلام صياغة قوية، ويعبر عن أفكاره في تراكيب سلسة سليمة لا تجد فيها أمتاً ولا شذوذاً. وهو، كعادة كتّاب عصره، كان كثيراً ما يضمّن رسائله من الأمثال أقوالاً سائرة، ومن الشعر أبياتاً أو أشطراً من أبيات، كما أنه كثيراً ما يبدأ رسائله بمقطعات من شعره.

وإذا كان لا بدّ من تصنيفه في مدرسة من مدارس النثر فهو أقرب إلى مدرسة التصنيع من مدرسة التصنع، في الوقت الذي كان فيه كتّاب عصر الانحطاط يغوصون حتى أعناقهم في مستنقعات المرذول من الكلام المتكلف.

---

(١) حازم القرطاجني: «منهاج البلغاء وسراج الأدباء»، تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، تونس، ١٩٦٦م، ص ٣٨٨ و ٣٨٩.

الفصل الثاني

شعره

ذكرت في فصل سابق أني جمعت لابن زمرك ألفين وستمائة وأربعة عشر بيتاً من الشعر. وقلت إن هذه الأبيات تبلغ ما يقارب نصف إنتاجه الشعري. ولقد قمت، بعد قراءة هذه الأبيات قراءة متأنية، بإجراء إحصاء يتعلق بأغراض ابن زمرك في شعره. فوجدت أن المدح الصرف تجاوز نصف ما بقي لدينا من شعره، وأن الوصف بلغ الخمس، والنسيب قارب العشر.

هذا بالنسبة إلى الأغراض الصرفة، أما بالنسبة إلى عدد القصائد والمقطعات، بغضّ النظر عن تنوع الأغراض في القصيدة الواحدة، فقد قمت، أيضاً، بإحصاء دقيق لها، تبين لي بنتيجته أن ما جمعته لابن زمرك من شعر يتضمن اثنتين وخمسين قصيدة (من سبعة أبيات فما فوق) وستين مقطعة (من بيت واحد إلى ستة أبيات)، خص منها الغني بالله بثمان وثلاثين قصيدة وتسع وعشرين مقطعة، منها تسع على الأقل، منقوشة على جدران الحمراء، وخص منها ملوكاً آخرين (كأبي الحجاج يوسف الثاني ومحمد السابع ملكي غرناطة بعد الغني بالله، وأبي سالم إبراهيم وأبي فارس عبد العزيز وأبي العباس أحمد ملوك المغرب) بخمس قصائد وخمس مقطعات. وفي مدح الوزراء والكتّاب (كلسان الدين وابن خلدون والشريف الحسني وابن مرزوق، وكتّاب السلطان أبي العباس أحمد) كان بينها ست قصائد وإحدى عشرة مقطعة. وقد

استقلت منها قصيدة وأربع مقطعات بالوصف، كما استقلت مقطعتان بالغزل. أما سائر الأغراض من فخر ومداعبة وسخرية وغير ذلك فقد نظم فيها ابن زمرك ثماني مقطعات مجموع أبياتها عشرون. وقد جعلت هذه الأبيات الأخيرة خارج مرمى الدراسة، لأنها لا تشكل شيئاً ذا بال، لا كمّاً ولا كيفاً، ولا تستحق، بالتالي، أن يقف الدارس عندها.

فإذا ما جمعنا، بعد هذا، ما نظمه ابن زمرك في غرض المدح، وما يتصل به من تهنئة وشكر، وجدناه بالغاً ستاً وأربعين قصيدة وواحدة وأربعين قطعة أي ما مجموعه ألفان وثلاثمائة وستة وثلاثون بيتاً - أي ما نسبته تسعون بالمئة، تقريباً، من مجموع الأبيات. هذا مع التذكير بأن قصائد المدح لا تقتصر، بالطبع، على المدح الصرف، وإنما تتضمن أيضاً، أبياتاً كثيرة في الوصف والنسيب، تتجاوز ربع مجموع الأبيات بقليل.

فإذا أضفنا إلى هذا أن الرثاء، إنما هو، في حقيقته، غرض مدحي استطعنا، بالتالي، أن نتبين أن أغراض شعره، تكاد تنحصر في غرض واحد رئيس هو المدح. ذلك أن الوصف والنسيب، وإن كانا يشكلان ربع الأبيات إلّا أن الشاعر لم يقصدهما لذاتهما، وإنما جاء بهما في استهلالات قصائده، فكانا مجرد أطار للغرض الرئيس وأعني به المدح.

ثم إذا تذكرنا أن أكثر هذا المدح إنما قيل في الغني بالله عرفنا إلى أي مدى وصل الشاعر بوصفه شاعراً مداحاً. فقد يخيل إليّ أن ابن زمرك لم يكن يشعر ليعبر عن نفثات صدره ولا حرقات قلبه، فالشعر، بالنسبة إليه، وسيلة لا غاية، وسيلة للاحتفاظ برضاء مولاه الملك، لأن استمرار رضاه يعني استمرار جاهه ورفاهيته هو. فشعره، بهذا المعنى، ليس أدباً صرفاً بقدر ما هو طريق إلى النفوذ السياسي، بل قل هو سياسة بكل ما في هذه الكلمة من معنى حديث.

وهذا الكلام، لا يطعن، بالطبع، في شاعرية صاحبنا ابن زمرك، ذلك أن الشعر فن وصنعة: فالصنعة تستلزم معرفة وثيقة بقواعد اللغة وطـرق التعبير وعلوم البلاغة والعروض وإطلاعاً واسعاً على التراث، ولقد كان ابن زمرك يملك هذه المستلزمات بغير أدنى شـك، والفن يستلزم، إلى جانب المخزون الثقافي، ذوقاً أدبياً رفيعاً وعاطفة قوية صادقة. فأما الذوق الأدبي فقد نمّاه ابن زمرك بحفظه، منذ صغـره، كثيراً من الأشعـار والقصائـد لكبار الشعراء. وأما العاطفة فنوعان: عاطفة نحو ذاته وعاطفة نحو غيره. فإذا كانت العاطفة الأخيرة لا تظهر بقوة ووضوح في كل أشعاره فلأن عاطفته الأولى هي التي تطغى على كل شيء. ومن يستطيع أن ينكر أن ابن زمرك كان مدفوعاً بعاطفته الذاتية (وتتجسد في طلبه الجاه والسمو الدائمين) إلى نظم القصائد المدحية التي كان يستوجبها إرضاء السلطان الدائم؟؟.

وجرياً على عادتي في وضع الجداول الإحصائية، بدأت دراستي لشعر ابن زمرك بوضع جداول أحصيت فيها المحسنات البـلاغية عـلى أنواعهـا والألفاظ والتعابير المكررة، والسقطات اللغوية والمعنوية والجوازات الشعرية المستحسنة والمستقبحة، لاعتقادي أن هذه الجداول ستمدني بـأشياء كثيـرة تستلزمها الدراسة الرصينة.

وفي أول الطريق، يحسن بي أن أذكر الخط الذي أود اتّباعه في دراستي شعر ابن زمرك: سأبدأ بالكلام على موشحاته، ذلك أنها لا تخرج على كونها شعراً بالتأكيد، ومع أنها لا تختلف اختلافاً ذا بال عن قصائده، لأسباب سأبيّنها بعد قليل، فقد خصصت مضمونها بدراسة مستقلة قصيرة. ثم لما كان المدح أهم أغراضه وكانت المولديّات أهم أمداحه، فإني سأتحدث بالترتيب عن مولدياته وأمداحه ورثائه وفخره ثم أخصص فصلاً للحديث عن وصفه وغزله، وعن النزعة الصوفية في شعره.

المبحث الأول: موشحاته

سبقت الإشارة إلى أن لابن زمرك خمس عشرة موشحة ذكرها المقّري في كتابيه «أزهار الرياض..» و«نفح الطيب..» مع أنه لم يذكر لغيره أكثر من ست موشحات وذكر للسان الدين أربعاً(١). ومع أني لا أشك في أن لسان الدين كان أمهر من ابن زمرك في الشعر والموشحات(٢) إلاّ أن من الظاهر اكتساب ابن زمرك شهرة خاصة في فن التوشيح. وذلك أني لم أقرأ كتاباً في هذا الفن إلاّ وقرأت فيه اسم شاعرنا بين كبار أصحاب الموشحات. وأذكر على سبيل المثال ما جاء في كتاب «الموشح في الأندلس وفي المشرق»(٣).

«وقد لا نخطىء إذا لاحظنا أن ابن سهل الإسرائيلي ولسان الدين بن الخطيب وابن زمرك هم من أكبر وشاحي الأندلس... فأرى أن اقتصر على إيراد مثل من موشحات ابن زمرك التي يخيل إليّ إنها من أجمل موشحات الأندلس إيقاعاً وألطفها موسيقى ووزناً وقافية...»(٣).

وتقسم موشحات ابن زمرك من حيث الوزن إلى أربعة أقسام: ثمان منها منظومة على بحر مخلّع البسيط، وأربع على السريع، واثنتان على مجزوء الرمل، وواحدة على مجزوء الرجز(٤). أما من حيث عدد الأبيات، فهناك ثمان ألفت كل منها من خمسة أبيات، وخمس كل منها من سبعة أبيات، واثنتان كل منهما من تسعة أبيات(٥). وأما أغراضها فهي أغراض ابن زمرك

---

(١) يراجع فهرست الموشحات في «نفح الطيب..» الصفحات ٤٥٣ و٤٥٤ و٤٥٥ و٤٥٦ من المجلد الثامن.

(٢) يكفي أن نذكر، في هذا المجال، موشحة لسان الدين «جادك الغيث» التي يعارض فيها موشحة ابن سهل.

(٣) ص ٢٧.

(٤) يذكر غرسيا ـ غومس ان لابن زمرك ١٤ موشحة والحقيقة أن له ١٥. ثم يرجح أن أحداها نظمت على المنسرح مع أنه لا أثر لهذا البحر في كل أشعار ابن زمرك. («مع شعراء الأندلس..»، ص ٢١٦ و٢٦٢).

(٥) المقصود بالبيت هنا الأشطار الموجودة بين قفلين مهما يكن عددها.

نفسها في قصائده. والواقع أن موشحات ابن زمرك هي أقرب إلى القصائد منها إلى الموشحات. فأغراضها، باستثناء المـولديّـة، وصف وغزل وحنـين وخمريات، وهي أغراض شديدة الصلة بالغناء والموسيقى، ولكنها أغراض ضمّنها الشاعر قصائده.

وإذا كان لا يعنيني هنا، أن أتحدث عن نشأة الموشحة وأصلها[1]، فأنني معني، حتماً، بالحديث عن موسيقاها ولغتها وتركيبها وتسمية أجزائها حتى أستطيع بعد ذلك، أن أؤكد زعمي القائل إن موشحات ابن زمرك لا تختلف عن قصائده إلاّ من حيث تعدد القوافي وسهولة التعبير، وما تركته هذه السهولة وذلك التعدد من إيقاع موسيقي لا نجده في قصائده. أما الأغراض وأما البحور فكلها متشابهة كما ذكرت، سواء كان ذلك في القصيدة أم في الموشحة.

على أن أخص الأشياء المتصلة بالموشحة، لم يتبعها ابن زمرك. فقد وجد في عصر لم يعد للتوشيح فيه قيمة، وهذا ما أكده لسان الدين حين قال:

«ومما قلته من الموشحات التي انفرد باختراعها الأندلسيون وطمس الآن رسمها. . .»[2].

ولا بدّ، هنا، من وقفة عند هذه النقطة: إذ لم يعد يخامر أحداً شك في أن الموشح قد ازدهر في القرنين الخامس والسادس الهجريين (الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين). وليس صحيحاً أن هذا الفن بلغ ذروته في القرنين

(١) ثار حول هذا الموضوع جدال عنيف وخلافات كثيرة لم تحسم حتى اليوم، وذلك في ما ورد من أقوال وآراء في الكتب الكثيرة التي ألفت للكلام على هذا الفن، ولعل أحدثها وأشملها كتاب: «الموشحات الأندلسية» للدكتور محمد زكريا عناني، صدر في سلسلة عالم المعرفة، وقد فند فيه جميع الآراء والمزاعم فنفى بعضها ومال إلى تأييد بعضها الآخر بالاستناد إلى ما جاء في أمات المصادر من أقوال تتصل بالتوشيح: نشأته وأصله.

(٢) المقّري: «نفح الطيب..»، ٧: ٦٥.

السابع والثامن الهجريين (الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين)، بدليل ما جاء في قول ابن الخطيب المذكور أعلاه. والسبب في أن رسم الموشح قد طمس يكمن في أحوال نفسية وظروف حياتية معينة: فالمعروف أن الهجمات الاسبانية كانت تتوالى، وأن مصير غرناطة كان، كما ذكرت سابقاً، على كف عفريت، وفي هذه الحالة، يكون سلطان الدين أقوى من أي سلطان آخر، ويكون سلطان الفقهاء، بالتالي، أقوى من سلطان الحكام. ولما كان الفقهاء في طليعة المحافظين، في كل عصر، فقد كان على الشعراء ألّا يخرجوا عن تقاليد الشعر الذي يرضى عنه الدين وترضى عنه الأصول العربية المحافظة التي تعد كل خروج على هذه التقاليد خروجاً على الأخلاق والدين. فما قولك بالموشحات وأكثرها خارج عن دائرة البحور الخليلية؟ ومن أجل هذا استنكف كثير من المؤلفين القدامى عن ذكر الموشحات في مؤلفاتهم!.

لهذا كله، كانت موشحات القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي)، على اتّسام بعضها بالرونق والجمال والابداع، قريبة من القصائد، غير معدودة في جملة الموشحات الحقيقية لخروجها على كثير من صفات الموشحة وتقاليدها. ومنها أن تكون الخرجة ـ وهي القفل الأخير من الموشح ـ «حجاجية من قبل السخف، قزمانية من قبل اللحن، حارة محرقة، حادة منضجة، من ألفاظ العامة، ولغات الداصة، فإن كانت معربة الألفاظ منسوجة على منوال ما تقدمها من الأبيات والأقفال، خرج الموشح من أن يكون موشحاً، اللّهم إلّا إنْ كان موشح مدح وذكر اسم الممدوح في الخرجة فإنه يحسن أن تكون الخرجة معربة»[١].

وقد تكون الخرجة معربة وإن لم يكن فيها اسم الممدوح ولكن «بشرط أن تكون ألفاظها غزلة حادة هزازة سحارة خلابة، بينها وبين الصبابة قرابة،

(١) ابن سناء الملك: «دار الطراز في عمل الموشحات»، حققه د. جودت الركابي، دمشق، ١٣٦٨هـ/١٩٤٩م، ص ٣٠ ـ ٣٢.

وهذا معجز معوز»[1]، وربما كانت الخرجة عجمية اللفظ «بشرط أن يكون لفظها أيضاً في العجمي سفسافاً نفطياً ورمادياً زطياً»[1].

ويتحدث ابن سناء الملك في كتابه «دار الطراز. .» حديثاً مستفيضاً عن الخرجة، فيذكر، بالإضافة إلى ما ذكر، أن الخرجـة ملح الموشـح وسكّره ومسكه وعنبره، ويقول إن من المتأخرين من يجد مشقة في تأليف خرجة تجتمع لها كل هذه الصفات، فهو يبني موشحة على خرجة ألفها غيره، وهو يرى أن هذا العمل أفضل من الوقوع في التكلف الذي قد يتعرض له المتأخر في سعيه لوضع خرجة من تأليفه[2]. ويلاحظ أن الشطر الذي يسبق الخرجة، يجب أن يتضمن كلمة تحمل معنى القول كقال وغنى وأنشد. . . ويستحسن في الموشح أيضاً أن يخرج وزنـه عن الأوزان الخليلية. وقـد هاجم ابن سنـاء الملك الموشحات التي ينظمها صاحبها على أوزان تقليدية[2]، ووصفها بالمخمسات. على أن الموشح، إذا نظم على بحر خليلي، كان من الأفضل أن تنوع فيه القوافي، شرط أن يتألف، في الأكثر، من خمسة أبيات وستة أقفال، من ضمنها المطلع والخرجة[3].

وتمتاز الموشحة عن القصيدة، أيضاً، برقة ألفاظها وعذوبتها وصفائها وسهولتها وذلك لأنها نظمت، في الأصل، لكي تغنى، فلا يمكن بعد هذا أن تتضمن ألفاظاً تستعصي على الفهم، أو تركيباً فيه لون من ألوان التعقيد.

فإذا دققنا في ما سبق قوله، ثم عدنا إلى موشحات ابن زمرك وقرأناها قراءة جديدة واعية، وجدناها لا تنطبق على مفهوم الموشحة الذي ساد في القرن الخامس الهجري (الحادي عشـر الميلادي)، وخـاصة في مـا يتعلق

(١) ابن سناء الملك: «دار الطراز في عمل الموشحات»، حققه د. جودت الركابي، دمشق، ١٣٦٨ هـ / ١٩٤٩ م، ص ٣٠ ـ ٣٢.
(٢) نفسه، ص ٣٣ وما بعدها.
(٣) نفسه، ص ٣٧ وما بعدها.

بالخرجة، فابن زمرك لا يأتي بخرجة عامية إلّا في موشحة واحدة، ثم إن هذه العامية التي ليس فيها شيء من الحرارة ولا السخف ولا العجمة، يتضمنها الشطر الأخير من الخرجة فقط:

يَـا مُلْهِمَ القَلْبِ لِلْغُيُـوبِ   وَمُـطْعِمَ النَّصْـرِ وَالـظَّفَـرْ
أَسْمَعَـكَ اللَّهُ عَنْ قَـرِيبِ   «عَلَى السَّلَامَةْ مِنَ السَّفَرْ»(١)

ثم إن موشحاته تتضمن أقفالاً مؤلفة من أربعة أشطر، وأبياتاً مؤلفة من ستة أشطر:

قَـدْ نُظِمَ الشَّمْـلُ أَتَمَّ انْتِظَامْ   واغْتَنَمَ الأَحْبَابُ قُرْبَ الحَبِيبْ
وَاسْتَضْحَكَ الرَّوضُ ثُغُورَ الغَمَامْ   عَنْ مَبْسِمِ الزَّهْرِ البَرُودِ الشَّنِيبْ
وَعَمَّمَ النَّـوْرُ رُؤُوسَ الـرُّبَى   وَجَلَّلَ النُّـورُ صُدُورَ البِـطَاحْ
وَصَافَحَ القُضْبَ نَسِيمُ الصَّبَا   فَالزَّهْرُ يَرْنُو عَنْ عُيُونٍ وَقَـاحْ
وَعَــاوَدَ النَّهْـرُ زَمَــانَ الصِّبَـا   فَقُلِّدَ الـزَّهْرَ مَكَـانَ الـوِشَـاحْ
وَأَطْلَعَ القَصْـرُ بُـرُودَ التَّمَـامْ   في طَالِعِ الفَتْحِ القَرِيبِ الغَرِيبْ
خُدُودُهَا قَـامَتْ مُقَامَ الغَمَـامْ   فَلَا اشْتَكَى مِنْ بَعْدِهَا بِالمَغِيبْ(٢)

ما عدا واحدة كان قفلها من شطرين اثنين ومطلعها:

وَجْهُ هَذا اليَـوْمِ بَاسِمْ   وَشَذَا الأَزْهَارِ نَاسِمْ (٣)

وقد ضمن ابن زمرك خرجة إحدى موشحاته شعراً لابن وكيع:

(١) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٧٩. و«نفح الطيب..»، ٧: ٢٤٢.
(٢) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٩٧ و«نفح الطيب..»، ٧: ٢٥٨ و٢٥٩.
(٣) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٢٠٠ و«نفح الطيب..»، ٧: ٢٦١.

«غَرَّدَ الطَّيْرُ فَنَبِّهْ مَنْ نَعَسْ» يَـا مُـدِيـرَ الـرَّاحْ
«وَتَعَرَّى الفَجْرُ عَنْ ثَوْبِ الغَلَسْ» وانْجَلَى الإِصْبَاحْ(١)

وبنى موشحة أخرى على مطلع موشحة لابن الخطيب، ذكره بتمامه في الخرجة:

أَنْجَزَ لِي وَعْدَكَ القَبُولُ فَلَمْ أَقُلْ مِثْلَ مَنْ يَقُولْ
«يَا سَرْحَةَ الحَيِّ يَا مَطُولُ شَرْحُ الذِي بَيْنَنَا يَطُولْ»(٢)

كما بنى موشحة ثالثة على مطلع موشحة لابن سهل، وجعله، هـو نفسه، خرجتها فقال:

خُـذْهَـا عَـلَى دَعْـوَى تُزْرِي عَلَى الرَّوْضِ الوَسِيمْ
جَـاءَتْ كَـمَـا تَـهْـوَى أَرَقَّ مِـنْ لَـدْنِ الـنَّـسِـيـمْ
قَـدْ طَـارَحَـتْ شَـكْـوَى مَنْ قَـالَ فِي اللَّيْـلِ البَهِيمْ
«لَـيْـلُ الـهَـوَى يَـقْـظَانْ وَالـحُـبُّ تِـرْبُ الـسَّـهَـرْ»
«وَالـصَّـبْـرُ لِـي خَـوَّان وَالنَّـوْمُ مِنْ عَيْنِي بَـرِي»(٣)

وتجدر الإشارة إلى أن لابن زمرك موشحة، خرجتها هي مطلعها نفسه، لم يغير فيه شيئاً:

رَيْحَانَةُ الفَجْرِ قَدْ أَطَلَّتْ خَضْـرَاءَ بِالـزَّهْرِ تُـزْهِرُ
وَرَايَةُ الصُّبْحِ قَدْ أَظَلَّتْ فِي مَرْقَبِ الشَّرْقِ تُنْشَرُ(٤)

وهكذا نرى أن موشحات ابن زمرك، بعدم تضمينها شروط التوشيح التي حددها ابن سناء الملك في كتابه «دار الطراز..»، لا تمتاز عن قصائده

(١) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٩٤ و«نفح الطيب..»، ٧: ٢٥٥.
(٢) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٨١م و«نفح الطيب..»، ٧: ٢٤٤.
(٣) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٨٦، و«نفح الطيب..»، ٧: ٢٤٩.
(٤) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٨٩ و«نفح الطيب..»، ٧: ٢٥١.

إلاّ بقدر كاف من العذوبة والموسيقى النابعتين من سلاسة التركيب وسهولة الألفاظ وتصريع الأجزاء وتعدد القوافي. ولهذا فإني اكتفي بهذا القدر من الحديث عن موشحات شاعرنا، لأن الفصول اللاحقة سوف تتضمن تقويماً عاماً لشعره، بما فيه موشحاته.

المبحث الثاني: شعره المدحي

مولديـــاته:

يطلق اسم المولديّة على القصيدة التي ينظمها الشاعر بمناسبة مولد رسول الله، ﷺ، يشيد فيها بذكره ويشير إلى بعض معجزاته. إنها، باختصار، قصيدة مدح لا تختلف كثيراً عن قصائد المدح العادية، إلاّ من حيث دفق العاطفة وقوتها.

ولقد كان يحتفل بهذه الذكرى ليلة الثاني عشر من ربيع الأول من كل عام، فيجلس الغني بالله في صدر الايوان ويجتمع حوله علية القوم ومن بينهم الشعراء الذين نظموا قصائدهم المولديّة لإلقائها في البلاط.

ولم يكن هذا الاحتفال سائداً قبل القرن السادس الهجري (الحادي عشر الميلادي). وقد اختلف حول تاريخ البدء به. وفي الوقت الذي عدّه بعض العلماء بدعة غير مستحبة، انبرى علماء آخرون لتأييده وتحبيذه. وقد ألف السيوطي كتاباً بعنوان: «حسن المقصد في أعمال المولد» لخص فيه تاريخ هذه الذكرى وفصّل آراء الفريقين المتناقضة حول شرعية الاحتفال أو عدمها، وخلص في النهاية إلى عدّ المولد ذكرى تستحق الاحتفال. ومع أنه أيد قول القائلين إن هذا الاحتفال بدعة، إلاّ أنه وصفها بالبدعة الحسنة(١).

ثم إن المسلمين أجمعوا بعد ذلك على وجوب الاحتفال بهذه الذكرى

---

(١) يراجع بحث أحمد سلمي في مجلة «ايسبيريس»، العدد ٤٣، سنة ١٩٥٦، ص ٣٤٣ ـ ٣٨٨.

بشرط عدم القيام بأي شيء يسيء إلى صاحبها، وذلك بالابتعاد عن المظاهر التزيينية والاكتفاء بقراءة ما تيسر من القرآن الكريم ثم بسرد سيرة المولد والانتهاء بالاستغفار والدعاء، والصلاة على النبي المختار.

كانت غرناطة إذاً، تحتفل بهذه الذكرى في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي)، وفي عهد الغني بالله على الأخص. وكان الشعراء الذين يحضرون الاحتفال يلقون قصائدهم أمام السلطان محمد الخامس وأكابر الدولة، وكانوا يجزون أحسن الجزاء. وعلى كثرة المولديات التي ألقيت في ذلك البلاط، فإن المصادر لم تحتفظ منها إلّا بإحدى عشرة مولدية[١].

ولا بدّ، هنا من إبداء ملاحظتين اثنتين: الأولى هي أن المصادر لم تحفظ من مولديات لسان الدين إلّا اثنتين[٢]، ولم تأت على ذكر مولدياته التي ألقاها بين يدي الغني بالله، وهذا شيء غريب حقاً. الثانية هي أن ابن زمرك، لحسن الحظ، صاحب أكبر عدد من المولديات الباقية[٣].

(١) منها ستة لابن زمرك (من بينها موشحة)، ومولدية لابن خلدون في سنة ٧٦٤هـ/١٣٦٢م، ومولديّة لابن يشت (وهو أبو سلطان عبد العزيز بن علي... بن يشت، من غرناطة، كتب في ديوان الأعمال وترقى إلى الكتابة السلطانية ولازم الشيخ أبا بكر عتيق بن مقدم من مشيخة الصوفية. يراجع المقّري: «نفح الطيب..»، ٦: ١١٥)، وأخرى لعطية المحاربي (وهو القاضي الكاتب أبو محمد عطية بن يحيى.. ابن عطية المحاربي، ولد في وادي آش آخر عام ٧٠٩هـ/١٣١٠م، وتولى الخطابة والإمامة بها عام ٧٣٨هـ/١٣٣٧ ـ ١٣٣٨م. ثم ولي القضاء بها وبأعمالها عام ٧٤٣هـ/١٣٤٢ ـ ١٣٤٣م، ثم انتقل إلى غرناطة آخر رجب عام ٧٥٦هـ/آب ١٣٥٥م، وولي الخطابة بالجامع الأعظم وعمل رئيسا للكتاب تحت يد لسان الدين. يراجع المقّري: «نفح الطيب..»، ٧: ٢٨٢ ـ ٢٨٥)، واثنتان لعبد الله بن لسان الدين في سنتي ٧٦٤هـ/١٣٦٢م و٧٦٥هـ/١٣٦٣م.

(٢) ألقاهما في بلاط السلطان المغربي أبي سالم سنتي ٧٦١هـ/١٣٦٠م و٧٦٣هـ/١٣٦١م.

(٣) إذااستثنينا من مولدياته الموشحة والقصيدة التي لم يبق منها إلّا مطلعها:

تـأمـل اطـلال الهـوى فتـألمـا ... وسيما الجوى والسقم منهـا تعلما
أخو زفرة هـاجت له نـار ذكرة ... فـأنجد في شعب الغـرام وأتهـما =

على أن هذه المولديات لا تختص بمدح الرسول وحسب، بل تضمنت إلى جانب هذا المدح قسمين آخرين على الأقل: إذ كان ابن زمرك، كغيره من شعراء عصره، يبدأ المولدية بمقدمة غزلية رحلية ليعبر منها إلى مدح الرسول، ثم لا ينسى بعد ذلك أن يمدح الغني بالله ويختم مولديته ببيت على الأقل يفتخر فيه بشاعريته وروعة قصيدته. وهو لا يخرج على هذا التقليد إلّا نادراً. فقد يلجأ، في بعض الأحيان، إلى تضمين مولديته، بعد مدح سلطانه، وصفاً للمشور (النونية) أو ذكراً للقباب المنصوبة قبيل المعركة ولتهيؤ الفرسان للقتال (اللامية). غير أن ابن زمرك، بناء على طلب الغني بالله، أفرد حائيّته لمدح الرسول، ولم يخص سلطانه منها إلّا بثلاثة أبيات مدحية وحسب.

ولئن جرى الشعراء الأندلسيون، بصورة عامة، على تقليد المشارقة، بمختلف أغراضهم كما سنرى، فلقد حرصوا، بصورة خاصة، على تقليدهم في ما يتعلق بمدح الرسول. ولئن كانت قصيدة «بانت سعاد» لا تزال عالقة في أذهاننا حتى اليوم، فَأَحْرِ بالأندلسيين أن يكونوا حفظوها وتعلقوا بها.

على أنه تجدر الإشارة، هنا، إلى التمييز بين المولديّة وقصيدة مدح الرسول. فمع أن القصيدتين تشتركان في أنهما تتضمنان مقدمة غزلية ومدحاً للرسول، إلّا أنهما تختلفان في أن المولديّة تنظم مرة في العام بمناسبة خاصة، وتلقى من قبل شاعر البلاط عادة، في حين أن قصيدة المدح النبوي، لا

= استطعنا أن نضع الجدول الآتي في سائر مولدياته:

المولدية	عدد الأبيات	البحر	الروى	مولد سنة
الأولى	٧٧	الطويل	النون	٧٦٥هـ/١٣٦٣م
الثانية	٧٦	الكامل	الهمزة	٧٦٧هـ/١٣٦٥م
الثالثة	٧٧	البسيط	الحاء	٧٦٨هـ/١٣٦٦م
الرابعة	١١٠	الكامل	اللام	٧٦٩هـ أو ٧٧٠هـ؟ (١٣٦٧ أو ١٣٦٨م؟)

مناسبة خاصة لها سوى تعلق صاحبها بحب رسول الله، ولا تلقى، بالضرورة، في بلاط معين.

بعد هذا التمهيد القصير، أعرّج على مولديات ابن زمرك فأختار منها اللامية لدراستها دراسة مفصلة. لم يحدد المقّري في «أزهاره» السنة الهجرية التي ألقيت فيها هذه المولديّة، وإن كان قد ذكر، نقلاً عن السلطان يوسف الثالث، أن «من بدائعه المنيفة عيدية ميلادية وافقتها وجهة من غزوات مولانا الجدّ»(١). وعلى الرغم من هذا، لعلي أستطيع أن أرجح أن ابن زمرك نظم لاميته هذه في سنة ٧٦٩هـ/١٣٦٧م أو سنة ٧٧٠هـ/١٣٦٨م. ذلك أن الغني بالله قام في هذه الفترة نفسها، بغزوات كثيرة داخل أراضي قشتالة، فصّلها ابن الخطيب في رسالته لابن خلدون(٢).

وقد بدأ ابن زمرك مولديته بالمطلع الغزلي التالي:

لَوْ كُنْتُ أُعْطَى مِنْ لِقَائِكَ سُولاَ لَمْ أَتَّخِذْ بَرْقَ الغَمَامِ رَسُولاَ(٣)

ثم انطلق في هذه المقدمة متحدثاً عن شكواه إلى الرياح التي لم تستطع أن تخفف من لوعته. ذلك أنه تذكر منزل حبيبته وأيامه التي قضاها هناك، ينعم بقربها وينتشي بتعاطيهما الهوى معاً، حتى إذا عاد، اليوم، إلى منزل الحبيب، رآه طللاً مهجوراً، فأنكره في البدء، ثم تعرف إليه من آثاره الباقية، فلم يستطع أن يحبس دمعه، فبكى وبكى حتى استنفد دموعه، وأحس بفقدان صبره بعد رحيل الحبيب، وأدرك أنه لن يستطيع تحمل الفراق، لشدة ما يحمل في صدره من حب عظيم لا يماثله حب قيس ولا حب جميل. وخطر له أن يلوم قلبه على ما أوقعه فيه، ثم تذكر أنه لم يخرج على عادة قومه في الحب والصبابة، فَلْيَلُمْ، إذاً، حبيبته الحسناء التي لو تركته يروي ظمأه من

(١) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٩٦.
(٢) ابن خلدون: «التعريف..»، ص ١٩١ - ٢٢٤.
(٣) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٩٦، ٩٧.

حسنها وجمالها، لما اضطر إلى سفح «نيل» دموعه!.

ثم راح يعلل فؤاده بلقائها، ويمني نفسه بالقرب منها، فإذا بشجو حديثه يصل إلى العندليب فيعديه ويروح يهدل بحزن، ويصل إلى الشمس فتتأثر به ويشحب لونها وتبدأ بالمغيب. ويختم هذه المقدمة الغزلية بقوله:

وَسَـرَيْتُ في طَيِّ النَّسِيمِ لَعَلَّني أَحْتَـلُّ حَيّـاً بِـالعَقِيقِ حُـلُولاَ(١)

وتذكُّره كلمة العقيق - وهو مكان قريب من المدينة المنورة - بالقافلة الذاهبة إلى المدينة، فيشعر بشوق إلى زيارتها، شبيه بشوقه إلى المحبوبة، وسرعان ما ينتقل إلى وصف القافلة بعد أن يقول:

هَذَا وَوَجْدِي مِثْلُ وَجْدِي عِنْدَمَا اسْـ ـتَشْعَرْتُ مِنْ رَكْبِ الحِجَازِ رَحِيلاَ(١)

فيصف كيف سارت النوق متتابعة، قد أثرت فيها مشاق الطريق حتى أضنتها وحتى راح ركابها يترنحون من خمر النصب، غير خائفين من أن يضلوا الطريق إلى المدينة، لأن تشوقهم إلى رؤية قبر الرسول سيكون دليلهم إليها. ولما كان الشاعر يعرف هؤلاء المسافرين، فهو لا يلبث أن يناديهم: أيها الراحلون بقلوب ملؤها الحب والحنين، أناشدكم، بما بيننا من مودة ووفاء، أن تقوموا عني بلثم ثرى القبر الشريف حين تصلون إليه. ثم يحس الشاعر أن هذا لا يكفي فيحدث نفسه قائلاً: عليّ أن أزور المدينة بنفسي، وأرجو أن تتاح لي الفرصة للقيام بهذه الرحلة يوماً، علني أشاهد شامة وطفيل:

وَأَحُطُّ فِي مَثْوَى الرَّسُـولِ رَكَائِبِي وَأَبِيتُ لِلْحَـرَمِ الشَّرِيفِ نَـزِيـلاَ(١)

وهنا يصل الشاعر إلى غـرضه الـرئيس فيبدأ بـوصف المدينـة، دار الهجرة، حيث حل النبي، وحيث فصّلت أحكام الرسالة من تحليل وتحريم،

(١) المقّري: «أزهار الرياض. . .»، ٢: ٩٦ و ٩٧.

ورست أركان الشريعـة، فكان الهـدى وكان الحق الـذي: «مَحَقَ الضَّلَالَ وَأَذْهَبَ التَّضْلِيلَا»(١).

ثم يندفع الشاعر إلى مدح الرسول وتعداد بعض معجزاته من انهمار المطر بعد انحباسه، استجابة لدعائه، وارتداد الشمس بعد غروبها، وملازمة الغمامة له لتظلله من حر الشمس... ويتابع الشاعر مديحه النبوي قائلاً: هـو علة خلق الكـون، فلولاه لم يكن، ولا لاحت النجـوم، ولا بـدت الشمس، ولولاه لما عُبد الله سبحانه. لقد أرسله الله، تعالى، رحمة للعالمين، وحجة على الناس، ذلك أنه أنزل عليه الذكر الحكيم مفصل الآيات، ليبشر الناس وينذرهم.

ثم يخاطب الرسول الكريم فيقول له: لقد أثنى عليك الله في القرآن والانجيل والتوراة، فماذا عسى أن يقول البليغ في الثناء عليك؟ لا شك في أنه سيجد نفسه مفلول اللسان مضيع الجهد. يا شفيع الناس يوم الحساب، تشفع لي فقد غدت ذنوبي كثيرة، إذ ضيعت عمري في الهوى وجمحت بي البطالة حتى تعثرت بجهلي، فهـلا أقلت عثاري يـا من اختاره الله أمـين وحيه!، إلَّا تَرْضَ عني فليس لي وسيلة للخلاص!، وإذا لم يكن لي زاد من الأعمال الصالحة فإن ما يشفع لي لديك حبي لك.

ثم يختم الشاعر هذا المديح النبوي، كعادته في مولدياته، بالصلاة على الرسول:

صَلَّى عَلَيْـكَ اللَّهُ مَا رَكْبٌ سَـرَى فَـأَجَدَّ وَخْـداً في المَفَازَةِ مِيـلَا(١)

وينطلق بعد هذا البيت، مباشرة ودون تمهيد أو حسن تخلص، إلى

---

(١) المقري: «أزهار الرياض...»، ٢: ٩٦، ٩٧.

مدح سلطانه الغني بالله، فيتحدث عن جهاده وعزمه وجوده ونسبه وفضائله، وفتوحاته وغزواته وتحطيمه جيوش أعدائه وتدمير ضياعهم، ويذكر إحياء عيد المولد هذا وهو يتأهب للجهاد من جديد، فيصف القباب المنصوبة ومواقد النيران، .والخيول وفرسانها الأبطال الذين يكبّرون تمهيداً لـدخول المعـركة الآتية. إنها ليلة تساوي عمراً بكامله ولو خيّر الشاعر بينها وبين العودة إلى الشباب لما تردد في اختيارها!:

وَاللَّهِ لَـوْ عُـوِّضْتُ عَنْـكِ شَبِيبَتِي مَا كُنْتُ أَرْضَى بِالشَّبَابِ بَدِيـلاَ(١)

ثم يتوجه في آخر قصيدته إلى الغني بالله فيخاطبه قائلاً: يا ملكاً نصر الإسلام، جهز جيوشك للجهاد، وقم بغاراتـك في عمق أراضي العدو، فإن الله سيشملك بالنصر والتوفيق. ثم ينهي هذه المولديّة، كعادته، ببيتين يفتخر فيهما بشاعريته:

وَإِلَيْـكَ مِنْ سُمْـرِ الجِهَـادِ غَـرِيبَـةً جَـاءَتْ تُقَـرِّظُـكَ الثَّنَـاءَ جَمِيـلاَ
وَأَطَـلْتُ لكِـنِّي أَطَـبْـتُ وَعَــادَتِـي أُلْفَى مُطِيباً في المَدِيحِ مُـطِيلاَ(١)

ويختم القصيدة، أخيراً، بالبيت المدحي الآتي:

لاَ زَالَ نَصْــرُكَ كُلَّمَـا اسْتَنْجَدْتَهُ لِمُهِمِّ دِينِـكَ عَـائِـداً مَـوْصُــولاَ(١)

وهكذا نرى كيف مزج ابن زمرك، في قصيدته هذه، النسيب والمدح النبوي والمديح السلطاني والفخر بالشاعرية، ولو عدنا إلى مولدياته لألفيناها تشترك بهده الأشياء جميعاً. بل إن هذا الاشتراك وصل، في أحيان كثيرة، إلى حدّ التشابه الجزئي. فقد عمد إلى ترديد كلمة حيث وما بعدها في الهمزية(٢) والحائية(٣) واللامية(٤). وذكر معجزة رد الشمس في ثلاث من مولدياته:

(١) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٩٦ و٩٧.
(٢) حيث النبوة.. حيث الرسالة.. حيث الضريح ضريح أكرم مرسل..
(٣) حيث الربوع.. حيث الرسالة.. حيث النبوة.. حيث الضريح بما قد ضم من كرم..
(٤) حيث النبوة.. حيث الرسالة.. حيث الشريعة.. حيث الضريح يضم أكرم مرسل..

وَكَفَاكَ رَدُّ الشَّمْسِ بَعْدَ مَغِيبِهَا وَكَفَاكَ مَا قَدْ جَاءَ فِي الإِسْرَاءِ(١)
إِنْ رُدَّتِ الشَّمْسُ مِنْ بَعْدِ الغُرُوبِ لَهُ قَدْ ظَلَّلَتْهُ غَمَامُ الجَوِّ حَيْثُ نَحَا(٢)
وَالشَّمْسُ قَدْ رُدَّتْ لَهُ وَلَطَالَمَا قَدْ ظَلَّلَتْهُ سحابها تظليلا(٣)

كما كرر معنى ثناء القرآن عليه وعدم قدرة البلغاء أن يصلوا إلى مرتبة هذا الثناء:

وَمَاذَا عَسَى يُثْنِي البَلِيغُ وَقَدْ أَتَى ثَنَاؤُكَ فِي وَحْيٍ كَرِيمٍ وَقُرْآنِ(٤)
أَثْنَى عَلَيْكَ كِتَابُ اللَّهِ مُمْتَدِحاً فَأَيْنَ يَبْلُغُ فِي عَلْيَاكَ مَنْ مَدَحَا(٢)
أَثْنَى عَلَيْكَ بِكُتْبِهِ مَنْ أَنْزَلَ الْـ قُرْآنَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلاَ
فَإِذَا البَلِيغُ يَرُومُ مَدْحَكَ جَاهِداً أَضْحَى حُسَامُ لِسَانِهِ مَفْلُولاَ(٣)

وفي معنى اختتام المدح النبوي بالصلاة على الرسول نراه يقول:

فَصَلَّى عَلَيْكَ اللَّهُ ما انْسَكَبَ الحَيَا وَمَا سَجَّعَتْ وَرْقَاءُ في غُصُنِ البَانِ(٤)
صَلَّى الإِلَـهُ عَلَى المُخْتَارِ صَفْوَتِهِ مَا العَارِضُ انْهَلَّ أَوْمَا البَارِقُ الْتَمَحَا(٢)
صَلَّى عَلَيْكَ اللَّهُ مَا رَكْبٌ سَرَى فَأَجَدَّ وَخْداً في المَفَازَةِ مِيلاَ(٣)

كذلك نجد الشاعر، في سياق مدحه الغني بالله، قد كرر صفات بعينها كالكرم والشجاعة والعزم. وإذا كان تخلصه من المدح النبوي إلى المدح السلطاني مقبولاً فليس في تخلصه من غرض النسيب إلى المدح النبوي أية براعة تذكر.

(١) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٤٨ و«نفح الطيب..»، ٧: ١٨١.
(٢) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٥٤ و٥٥.
(٣) نفسه، ٢: ٩٩ و١٠٠.
(٤) نفسه، ٢: ٤٤ و٤٥.

غنيّاتـه:

كان أبو عبد الله بن زمرك حريصاً كل الحرص على أن يرضي مليكه ويظفر بمودته. فهو شاعر بلاطه وأمين سره في البدء، ثم شاعر بلاطه ووزيره إلى النهاية. ولقد كان الغني بالله حريصاً أيضاً على صحبته، فكان يدعوه إلى مرافقته كلما نوى السفر وأعمل الرحلة إلى مدن مملكته كالمنكب والمرية... وكان يملك من العلم والأدب ما يمكنه من تذوق شعر شاعره ويُرَغِّبه في المزيد منه. وكان ابن زمرك حاضراً في كل المناسبات: فلا يدع عيداً يمر ولا حفلة تقام ولا احتفالاً يجرى إلاّ وينشده الشعر في مدحه. بالإضافة إلى المناسبات الصغيرة التي كان يستغلها ليشكر له هدية منه أو يدعو له بالشفاء من مرض ألم به ويهنئه بالإبلال منه.

وهكذا لزم الشاعر باب مليكه ثلث قرن ويزيد، أنشده فيه ستاً وستين قصيدة وكثيراً من المقطعات. وبهذا شكلت «الغنيات» معظم شعره.

ولقد كنت أبغي في دراستي هذه، أن أرتب هذه «الغنيات» وفق تاريخ إنشادها، لأطلع على سير تطورها، ولكني انصرفت عما أبغيه من تصنيف وترتيب، لانعدام تأريخها في المصادر التي أوردتها. ثم إني نظرت فيها فوجدتها متشابهة من حيث الأسلوب والمعاني، حتى خيِّل إليّ أنها نـظمت في عام واحد. وهذا يرجح كونَ شاعرنا يتخذ الشعر وسيلة أكثر من اتخاذه غاية وكونَ همه منصرفاً إلى الحظوة والجاه لا إلى الفن والجمال. والذي يقوّي هذا الترجيح هو أن الشاعر اكتفى بالمحافظة على رسوم المدح القديم ليرضي سلطانه، ذلك بأن ذوق العصر ـ وذوق الحكام بصورة خاصة ـ كان يقتضي السير على خطى المتقدمين، ولم يكن للشاعر أن يخرج على مقتضيات البيئة حتى لا يكون مغرداً خارج سربه، وحتى يحافظ على مركزه الاجتماعي في الدرجة الأولى. ولهذا نظم في المدح مئات الأبيات، وكلها تصيب الهدف وتصب في مرمى الذوق العام.

. ولما كانت «الغنيات» كثيرة، فحسبي، في هذه الأطروحة، أن أقف عند نماذج مختارة منها اختياراً يغني عما أهمله من شعره وخاصة من مقطعاته. لأن هذه المقطعات، بالذات، لا تمثل الخط العام لفن الشاعر، ولا تحمل في ثناياها قيمة ذات بال.

وتنقسم هذه «الغنيات» المختارة قسمين: الأول يبدأه الشاعر بالمدح مباشرة وهو قليل، والثاني يمهد له بمطلع غزلي وصفي، وهو يشكل أكثر قصائده. وبهذا لا تخرج غنياته، من حيث النهج، عن أسلوب مولدياته. فأبو عبد الله بن زمرك يتبع، بعامة، النهج القديم في المدح، فيخضع أمداحه لنظام القصيدة العربية التي سار عليها الشعراء السلفيون وحافظوا على تقاليدها من التمهيد للمدح بمقدمة غزلية طللية وصفية.

ومع أنه يفترض، في قصيدة المدح المنظومة في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي)، أن يتحدث فيها الشاعر عن الممدوح وحسب، إلّا أن ابن زمرك بعث فيها رسوم المدح القديم وظواهره الأسلوبية. فهو يلتفت دائماً إلى القصيدة التقليدية وإلى القصيدة التقليدية ـ المحدثة، ويستعير منهما ما شاء من المعاني وأشكال التعبير محاولاً محاكاتهما. ولئن انعتق ظاهراً من استعمال الألفاظ الغريبة في قصيدته، فقد حافظ فيها على جزالة التركيب وقوته، ولذلك فهو قد اقترب من الصدق حين قال:

وَمَا ضَرَّهَا أَنْ قَدْ تَأَخَّرَ عَهْـدُهَا   إِذَا طَالَ مَبْنَاهَا الَّذِينَ تَقَدَّمُوا[١]

وإذا كان وصف الرحلة عنده لا يتعدى وصف الركاب وانضاء الرواحل في أبيات قليلة، فقد ظلت الرحلة موضوعاً يتحدث عنه فلا يتقصاه ولا يسبر غوره، بل يقتصد في الكلام عليه، فضلاً عن أنه يسقط منه قصص الحيوان المألوف لدى القدماء، ويعرض عنه ويغفله تماماً.

وقد يخرج، أحياناً، على هذا التقليد إلى... تقليد آخر حين يستهل

(١) المقري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٤٨.

قصيدته بوصف الخمر والنديم أو بوصف الطبيعة الغرناطية الساحرة، أو بوصف مزدوج للطبيعة والخمر، يمتزج بدوره بشيء من النسيب[١].

وقد تراوحت مطالع قصائده بين سبعة أبيات وستة وثلاثين بيتاً، كان ينتقل بعدها إلى المدح دون حسن تخلص في أغلب الأحيان، ثم ينطلق في تعداد فضائل الغني بالله ووصف مزاياه الكثيرة فلا يترك سجية حسنة إلاّ وينسبها إليه، سواء أتعلقت بشكله الظاهر أم بجوهره وحقيقته.

وقبل أن يختم القصيدة، عادة بالفخر بشعره، كان كثيراً ما يتحدث عن جهاد الغني بالله وقيامه بالغزو، فيصف خوضه المعركة كما يصف الفرسان والقباب والخيام وآلة القتال ويشدد على مضاء سلاح الغني بالله فيصف حسامه ورمحه، ويمتد الوصف في كثير من قصائده ليطال سباق الخيل وميدان الطراد والخيول المتنوعة وألعاب البهلوان والمباني والقصور والنوافير، ويتحدث عن شهر الصوم وإهلال عيده، وقد يضمِّن قصيدته تعريضاً بأعداء الغني بالله (كلسان الدين وزيره السابق وابن الكاس وزير المغرب).

ويحسن، هنا، بعد هذا العرض السريع لمضمون «غنياتـه»، تقديم عرض سريع آخر لمضمون رائية له، هي، في الواقع، نموذج مثالي لما كانت عليه تلك «الغنيات».

وهذه القصيدة مؤلفة من أربعة وسبعين بيتاً[٢] ومطلعها:

حَيَّـاكِ يَـا دَارَ الهَـوَى مِنْ دَارِ   نَـوْءُ السِّمَاكِ بِـدِيمَـةٍ مِـدْرَارِ[٢]

يبدأها الشاعر بالنسيب[٣] فيتذكر دار الهوى والصبابة، تذكراً يستهويه

(١) تراجع بهذا الشأن رائيتاه وهائيته لدى المقري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٢١ و٣٥ و١٧٠ و«نفح الطيب..»، ٥: ١٧٧ و٧: ١٥١ و١٧١. وابن الخطيب «الإحاطة..»، ٢: ٢٢٧.

(٢) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٠٣ و«نفح الطيب..»، ٧: ١٥٤. وابن الخطيب: «الإحاطة..»، ٢: ٢٣٠.

(٣) في خمسة وعشرين بيتاً.

ويجعله منتشياً انتشاء شارب الخمر، ثم يتحدث عن الاظعان السائرة إلى نجد فيحمِّلها رسالة الشوق والحنين إلى حبيبته لمياء المستوطنة خيام العقيق، ويذكر فيها وفاءه لها وهجرانها له، ويطالبها، وهي الغنية بالجمال، بتسديد ما عليها من ديون للشاعر، هذه الديون المكونة من نظرات التأمل وهنيهات اللقاء والوصل:

عَارٌ بِقَوْمِكَ يَا ابْنَةَ الحَيَّيْنِ أَنْ تَلْوِي الدُّيُونَ وَأَنْتِ ذَاتُ يَسَارِ[1]

ثم يذكر شدة هيامه، ويتحدث عن عدم وصول أخبار الحبيبة إليه، ويتساءل عما إذا كانت لا تزال، كعهده بها، جميلة تفتك بلحاظها، شأنها في هذا شأن سائر الظباء الآنسات. وهنا يقفز الشاعر إلى المدح قفزاً بلا تمهيد ولا حسن تخلص:

لكِنَّ يَـوْمَ النَّفْرِ جُـدْنِ لَنَا بِمَـا عَـوَّدْنَـنَـا مِنْ جَـفْـوَةٍ وَنِفَـارِ
يَا ابْنَ الأُلى قَدْ أَحْرَزُوا خَصْلَ العُلا وَسَمَوْا بِطِيبِ أُرُومَةٍ وَنِجَارِ[2]

ويعدد صفات الغني بالله، فيتحدث عن كرمه ونسبه وإشراق وجهه وعزمه وجهاده[3]، وينتقل، ضمن إطار المدح، إلى الحديث عن ميدان الطراد ومستنفراته من الهاديات والوحوش، وعن لحاق الغني بالله بـ«عبل الشوى» وطعنه وإردائه، وعن الخيول المشتركة في الطراد وألوانها:

مِنْ كُـلِّ مُنْحَفِـزٍ بِلَمْحَـةِ بَـارِقٍ فَـاتَتْ خُـطَاهُ مَـدَارِكَ الأَبْصَارِ
سُودٌ وَبِيضٌ فِي الطِّرَادِ تَتَابَعَتْ كَـاللَّيْلِ طَـارَدَهُ بَيَاضُ نَهَـارِ[4]

(١) المقري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٠٣ و«نفح الطيب..»، ٧: ١٥٥. وابن الخطيب: «الإحاطة..»، ٢: ٢٣١.
(٢) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٠٤ و«نفح الطيب..»، ٧: ١٥٥. وابن الخطيب: «الإحاطة..»، ٢: ٢٣١.
(٣) في أربعة عشر بيتاً.
(٤) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٠٦ و١٠٧ و«نفح الطيب..»، ٧: ١٥٧ و١٥٨. وابن الخطيب: «الإحاطة..»، ٢: ٢٣٢ و٢٣٣.

وعن الطرائد المصيدة وأشكالها:

مِنْ كُلِّ مَوْشِيٍّ الأَدِيمِ مُفَوَّفٍ رَقَمَتْ بَدَائِعَهُ يَدُ الأَقْدَارِ
سَرَحَتْ بِمُخْضَرِّ الجَوَانِبِ يَانِعٍ تَنْسَابُ فيهِ أَرَاقِمُ الأَنْهَارِ(١)

ثم يعود إلى مدح مليكه(٢)، فيذكر حسد الشمس إياه ورفعه لواء الفخر عالياً، ثم يختم القصيدة ببيت يفتخر فيه بجمال قصيدته:

وَإِلَيْكَهَا مِنْ رَوْضِ فِكْرِي نَفْحَةً شَفَّ الثَّنَاءُ بِهَا عَلَى الأَزْهَارِ(١)

وهكذا سار ابن زمرك في غنياته، مقلداً، تابعاً، لم يأت فيها إلّا بجديد قليل سوف يطاله البحث في فصل لاحق.

على أنه يجدر الوقوف، هنا، ولو لبرهة قصيرة، عند موضوع الجهاد الذي أكثر الشاعر من ذكره، بحيث لا تخلو «غنيّة» من وصف الغني بالله بالمجاهد الذي يدافع عن الدين. ذلك بأن الجهاد يكاد يكون، في نظر الإسلام، ركنه السادس، لأنه ركيزة من الركائز التي قام عليها الإسلام وعمود من أعمدته. أضف إلى هذا، أن الجهاد كان على رأس ما يدعو إليه المتصوفة في غرناطة، خوفاً من ضياع آخر المعاقل الإسلامية في الأندلس. ولما كان ابن زمرك قد تأثر، ولو قليلاً، بمواقف بعض الفرق الصوفية، فإنه كان يرى من الواجب أن يتغنى بمآثر الغني بالله الجهادية في شعره، شأنه في هذا شأن سائر شعراء البلاط.

ولقد استخرجت الأبيات التي يتحدث فيها عن الجهاد فإذا هي خمسة وستون بيتاً موزعة على سبع عشرة قصيدة. وقد تراوحت بين بيت وعشرة

---

(١) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٠٦ و١٠٧ و«نفح الطيب..»، ٧: ١٥٧ و١٥٨..
وابن الخطيب: «الإحاطة..»، ٢: ٢٣٢ و٢٣٣.
(٢) في ستة أبيات.

أبيات في القصيدة الواحدة. وانصب مجملها على الحديث عن تلاحم الكتائب المتقاتلة:

حَيْثُ الكَتَائِبُ قَدْ تَلاَحَمَ مَوْجُهَا وَتَدَفَّقَتْ فِيهَا الخُيُـولُ سُيُولاَ(١)

وعن تجهيزه الجيوش للقتال وغاراته في أرض العدو:

جَهِّـزْ جُيُوشَـكَ لِلْجِهَادِ مُـوَفَّقـاً وَكَفَى بِـرَبِّـكَ كَـافِيـاً وَكَفِيــلاَ
وَلْتُبْعِدِ الغَارَاتِ فِي أَرْضِ العِدَا وَاللَّهُ حَسْبُكَ نَاصِـراً وَوَكِيلاَ(١)

وتمويله هذه الجيوش من بيت المال:

وَكَمْ بَيْتِ مَالٍ فِي الجِهَادِ بَذَلْتَهُ وَأَقْرَضْتَ مِنْهُ اللَّهَ مَا اللَّهُ يَعْلَمُ
إِذَا أَنْتَ جَهَّـزْتَ الجِيَادَ لِغَـارَةٍ فَإِنَّ صَبَاحَ الحَيِّ أَغْبَـرُ أَقْتَمُ(٢)

وعن تفتيحه الممالك وتجديده المنابر:

وَفَتَّـحَ بِالسَّيْفِ المَمَـالِكَ عُنْـوَةً وَمَدَّتْ لَهُ أَمْـلاَكُهَا كَفَّ مُجْتَـدِ
وَطَهَّـرَ مِحْـرَابـاً وَجَدَّدَ مِنْبَـراً وَأَعْلَنَ ذِكْرَ اللَّهِ فِي كُلِّ مَسْجِدِ(٣)

وعن تدميره القرى وإذلال مترفيها:

كَمْ بَلْدَةٍ لِلْكُفْرِ قَدْ عَوَّضْتَ مِنْ نَـاقُـوسِهَـا التَّكْبِيـرَ وَالتَّهْلِيــلاَ
لَمَّـا أَحَطْتَ بِهَـا وَحَانَ دَمَـارُهَا أَخْرَجْتَ مُتْرَفَهَـا الأَعزَّ ذَلِيـلاَ(٤)

وعن تشميره الدائم للقتال لنصرة الإسلام:

يَا نَاصِرَ الإِسْلاَمِ يَا مَلِكَ العُلاَ اللَّهُ يُؤْتِيـكَ الجَزَاءَ جَـزِيـلاَ(٥)

(١) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٠٢.
(٢) نفسه، ٢: ١٤٦ و١٤٧.
(٣) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٥٣ و«نفح الطيب..»، ٧: ٢٣٦.
(٤) المقّري: «أزهار الرياض..»،٢: ١٠١ و١٠٢.
(٥) المقري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٠١ و١٠٢.

كذلك تجب الإشارة إلى ما تضمنه بعض أمداحه من أبيات نظمها للتهنئة بأعذار أولاد الغني بالله. قال:

أَقَمْتَ بِهِ مِنْ فِطْرَةِ الدِّينِ سُنَّةً وَجَدَّدْتَ مِنْ رَسْمِ الهِدَايَةِ عَافِيَا
فَيَا عَاذِراً مَا كَانَ أَجْرَأَ مِثْلَهُ فَمِثْلُكَ لَا يُدْمِي الأُسُودَ الضَّوَارِيَا
فَوَاللَّهِ لَوْلَا سُنَّةٌ نَبَوِيَّةٌ عَهِدْنَاهُ مَهْدِيّاً إِلَيْهَا وَهَادِيَا.
وَعُذْرٌ مِنَ الإِعْذَارِ قَرَّرَ حُكْمَهُ مِنَ الشَّرْعِ أَخْبَارٌ رُفِعْنَ عَوَالِيَا
لَرَاعَتْ بِهَا لِلْحَرْبِ أَهْوَالُ مَوْقِفٍ تُشِيبُ بِمُبْيَضِّ النُّصُولِ العَوَالِيَا[١]

وقد كرر هذه المعاني في كل قصيدة ورد فيها ذكر الأعذار.

وهنا، لا بدّ من الوقوف عند قضية التكرار هذه، فهي قضية بارزة لا يجوز أن تغفل أو تهمل، ذلك بأنها أبرز خاصة ينماز بها مضمون الشعر الزمركي كله. وهو لم يكن يكتفي بتكرار المعنى، ولكنه يتجاوز هذا إلى تكرار الألفاظ والتعابير ذاتها. ولعل رائياته أظهر مثل على هذا التكرار. فلابن زمرك أربع رائيات على بحر الكامل وروى الراء المكسورة، أحصيت ما فيها من تكرار فملأت به تسع صفحات!! فإذا قرأناها، لفتنا ما فيها من أشطر كاملة مكررة بألفاظها مرتين على الأقل[٢]، بل إننا نجد، أحياناً، أبياتاً كاملة معادة بتمامها، كالأبيات التالية:

أَوْ أَشْعَلٍ رَاقَ العُيُونَ كَأَنَّهُ غَلَسٌ يُخَالِطُ سُدْفَةً بِنَهَارِ[٣]

---

(١) المَقري: «أزهار الرياض...»، ٢: ٧٣و٧٤.

(٢) كالأعجاز التالية: «غرر تلوح بأوجه الأعصار»، «مستمتع الأسماع والأبصار»، «رَوْضٌ تَفَتَّحَ عَنْ شَقِيقِ بَهَارِ»، «وَكَفَى بِسَعْدِكَ حَامِياً لِذِمَارِ»، «جَذْلَانَ يَرْفُلُ فِي حُلَى اسْتِبْشَارِ»، «مُتِّعَتْ بِالحُسْنَى وَعُقْبَى الدَّارِ»، «أَغْرَتْ جُفُونَ المُزْنِ بِاسْتِعْبَارِ»، «تَنْسَابُ فِيهِ أَرَاقِمُ الأَنْهَارِ»، «بِالمَشْرَفِيَّةِ وَالقَنَا الخَطَّارِ»، «يَتَعَلَّلُونَ بِهِ عَلَى الأَكْوَارِ»، «مَا شِئْتَ مِنْ نَصْرٍ وَمِنْ أَنْصَارِ»...

(٣) المقري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٣٢ و«نفح الطيب..»، ٥: ١٧٥. وابن الخطيب: «الإحاطة..»، ٢: ٢٢٩.

إنْ مسَّهُمْ لَفْـحُ الهَجيـرِ أَبَلَّهُمْ مِنْـهُ نَسيمُ ثَنَـائِـكَ المِعْـطَارِ[١]
أَصْبَحْتَ وَارِثَ مَجْدِهِمْ وَفَخَارِهِمْ وَمُشَـرِّفَ الأَعْصَارِ وَالأَمْصَـارِ[٢]
عَلِمَتْ مُلُوكُ الأَرْضِ أَنَّكَ فَخْرُهَا فَتَسَابَقَتْ لِرِضَاكَ فِي مِضْمَارِ[٣]
فَارْفَعْ لِوَاءَ الفَخْرِ غَيْـرَ مُدَافَـعٍ وَاسْحَبْ ذُيُولَ العَسْكَرِ الجَرَّارِ[٤]
وَتَمِيـلُ مَنْ أَصْغَى لَهَا فَكَـأَنَّنِي عَـاطَيْتُـهُ مِنْهَـا كُؤُوسَ عُقَـارِ[٥]

هذا بالإضافة إلى ستين كلمة مشتركة بين قوافي هذه الرائيات جميعها.

ولقد درس كل من بلاشير وغومس موضوع هذا التكرار. ففي حين نسبه بلاشير إلى التهاون والإهمال وسرعة النظم[٦]، أورد غومس رأي بلاشير وذكر أن له تفسيراً آخر شرحه وخلص في نهايته إلى أن الشاعر، ربما لم يكن، في تكراره، منزلقاً نحو تعبير شائع، وإنما كان يعتقد أنه عثر على عبارة سعيدة[٧].

والواقع أن ما ذكره غومس قريب جداً من الحقيقة. فابن زمرك كان يجدّ، أحياناً، وراء المعنى الجديد، حتى إذا ظن أنه وقع على معنى طريف، أعجب به وكرره في عدة قصائد إما بلفظه ومعناه وإما بمعناه دون لفظه، ليُلمس إحسانه ويُعرف تفوقه، فتكرار الأشياء الحسنة، في نظره، حسن:

(١) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٣٤ و«نفح الطيب..»، ٥: ١٧٦.
(٢) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٠٤ و١٧١ و«نفح الطيب..»، ٧: ١٥٢ و١٥٥. وابن الخطيب: «الإحاطة..»، ٢: ٢٢٨ و٢٣١.
(٣) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٤٤ و«نفح الطيب..»، ٧: ٢٣٣.
(٤) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٠٦ و«نفح الطيب..»، ٧: ١٥٧. وابن الخطيب: «الإحاطة..»، ٢: ٢٣٣.
(٥) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٠٣ و«نفح الطيب..»، ٧: ١٥٤. وابن الخطيب: «الإحاطة..»، ٢: ٢٣٠.
(٦) «ابن زمرك الوزير الشاعر..»، «A.I.E.O.»، ص ٣٠٩ و٣١٠.
(٧) «مع شعراء الأندلس..»، ص ٢٢٢ ـ ٢٢٤.

فَأَفَضْتَ فِينَا مِنْ نَـدَاكَ مَوَاهِبـاً حَسُنَتْ مَوَاقِعُهَا عَـلَى التَّكْرَارِ[١]

على أن الإنصاف يدعونا إلى إضافة سبب آخر إلى ما ذكر، وهو أن وحدة الغرض في القصائد، وتشابه البحر والروى فيها، يدفعان الشاعر، من حيث يدري أو لا يدري، إلى ترداد بعض المعاني وتكرار بعض القوالب التعبيرية كلياً أو جزئياً. مع الاعتراف، أيضاً، بأن ما ذهب إليه بلاشير ـ من أن ابن زمرك كان سريع النظم، متبعاً قانون الجهد الأقل ـ صحيح. فقارىء شعر صاحبنا يلمس بوضوح هذه الخاصة. وهو، بهذا، شاعر ينظم على سجيته دون عناء كبير، الأمر الذي يبرر أيضاً سقطاته التي سوف أتحدث عنها في فصل لاحق، فضلاً عن أن هناك سبباً آخر يبرر هذه السقطات ألا وهو أن أكثرها وقع فيه في مبتدأ نظمه، ورائيته في مدح لسان الدين أكبر دليل على ذلك.

يبقى أخيراً، أن أتناول مدائحه الأخرى لغير الغني بالله. فلقد نظم ابن زمرك دالية في مدح ابن خلدون[٢] ورائيتين في مدح لسان الدين[٣]، فضلاً عن بضع مقطعات مدح بها بعض أساتذته وبعض الملوك.

فأما رائيتاه في مدح ابن الخطيب فلا يحسن الحديث عنهما لأنهما مجتزأتان ولا تسلسل في أبياتهما. وأما داليته في مدح ابن خلدون فقد سار فيها على نهج غنياته إذ يبدأها بالنسيب[٤] وينتقل إلى مدح أبي زيد[٥] فيتحدث عن فضله وحيائه وإشراق محياه:

مُحَيَّاكَ أَجْلَى فِي العُيُونِ مِنَ الضُّحَى وَذِكْرُكَ أَحْلَى في الشِّفَاهِ مِنَ الشَّهْدِ

(١) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٠٥ و«نفح الطيب..»، ٧: ١٥٦.
(٢) من ستة وسبعين بيتاً.
(٣) بقي من الأولى ثلاثة وثلاثون بيتاً ومن الثانية خمسة وعشرون بيتاً.
(٤) في ثلاثة وثلاثين بيتاً.
(٥) في تسعة وعشرين بيتاً.

وَمَا أَنْتَ إلاَّ الشَّمْسُ في عُلْو أُفْقِهَا   نُفَدِّيكَ مِنْ قُرْبٍ وَتُلْحَظُ مِنْ بُعْدِ[١]

ويذكر تلك الأيام التي قضياها معاً، ثم يعود إلى الحديث عن خلقه المحمود وجوده، ثم ينتقل إلى مدح الغني بالله[٢] ويفتخر بتفوقه في النظم[٣] وينهي القصيدة بمدح ابن خلدون[٤]

مـراثيـه:

لما كان الرثاء في حقيقته، مدحاً للميت، فقد أدرجت الحديث عنه في شعر ابن زمرك المدحي.

نظم شاعرنا مراثي أربعاً: ثلاثاً منها في الغني بالله وواحدة في الشريف الحسني. وهذه المراثي لا تختلف عن أمداحه إلاّ بشيئين: أولهما خلوها من الغزل ومباشرة المدح منذ المطلع، وثانيهما بروز العاطفة فيها وجلاؤها وقوتها.

وإذا كان الرثاء قد أخذ عند العرب ألواناً ثلاثة، هي الندب والتأبين والعزاء فإن مراثي صاحبنا أبي عبدالله تتضمن ندباً وتأبيناً، ولا أثر للعزاء إلاّ في أبيات ثلاثة منها، ذكرها في هائيته: يقول فيها مخاطباً أبا الحجاج يوسف ولد الغني بالله وخليفته في الملك:

عَــزَاءٌ أَمِيرَ المُسْلِمِينَ فَــإِنَّهَــا   مَقَادِيرُ رَبِّ الخَلْقِ في الخَلْقِ يُجْرِيهَا
هُوَ المَوْتُ وِرْدٌ لِلْخَلِيقَةِ كُلِّهَا   أَوَاخِـرُهَـا تَقْفُـو سَبِيـلُ أَوَالِيهَــا
وَمَــا بَيْنَنَـا حَيٌّ وَمَــا بَيْنَ آدَمٍ   أَلاَ هَكَذَا سَوَّى البَرِيَّةَ بَارِيهَا[٥]

فأما قَافِيَّتُهُ في رثاء الشريف الحسني[٦] فمطلعها:

(١) ابن خلدون: «العبر..»، ٧: ٤٥٧ و«التعريف..»، ص ٢٦٥.
(٢) في سبعة أبيات.
(٣) في بيت واحد.
(٤) في ستة أبيات.
(٥) المقري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٥٥.
(٦) عدد أبياتها سبعة وخمسون.

أَغْـرَى سَـرَاةَ الحَيِّ بـالإِطْـرَاقِ نَبَـأٌ أَصَمَّ مَسَـامِـعَ الآفَـاقِ

وهي مجرد تأبين يكيل فيه الثناء على المرثي ويشيد به وبمنزلته العلمية، ويعبر فيه عن حزن الجماعة لا حزنه وحده، فيعدد فضائله ويذكر سجاياه:

فُجِعَ الجَمِيعُ بِوَاحِدٍ جُمِعَتْ لَهُ شَتَّى العُـلَا وَمَكَـارِمُ الأَخْـلَاقِ
وَاحَسْـرَتَـا لِلْعِلْمِ أَقْفَـرَ رَبْعُـهُ وَالعَـدْلُ جُـرِّدَ أَجْمَـلَ الأَطْـوَاقِ
أَغْلَيْتَ يَـا رُزْءُ التَّصَبُّرَ مِثْلَمَـا أَرْخَصْتَ دُرَّ الدَّمْعِ في الآمَاقِ
إِنْ يُخْلِفِ الأَرْضَ الغَمَامُ فَإِنَّنِي أَسْقِي الضَّرِيحَ بِدَمْعِيَ المُهَرَاقِ[١]

وداليته في رثاء الغني بالله[٢] استهلها بقوله:

ضَـرِيحَ أَمِيـرِ المُسْلِمِينَ مُحَمَّدِ يَخُصُّكَ رَبِّي بِالسَّلَامِ المُرَدَّدِ[٣]

وفيها مدح مباشر للمرثي: يعدد فيه صفاته المعتادة وينهي القصيدة بمدح يوسف الثاني وبتوجيه السلام إلى الغني بـالله ويختمها بـالصلاة عـلى الرسول المختار.

أما فائيّته في رثاء الغني بالله أيضاً[٤] فمطلعها:

عَزَاءً فَإِنَّ الشَّجْوَ قَدْ كَانَ يُسْرِفُ وَبُشْرَى بِهَا الدَّاعِي عَلَى الغَوْرِ يُشْرِفُ[٥]

وفيها مدح يوسف الثاني ووالده[٦]، ثم مدح الغني بالله وحده[٧]، ثم أنهى القصيدة بمدح يوسف الثاني[٨].

(١) المقري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٦٠، و«نفح الطيب..»، ٥: ١٩٤.
(٢) عدد أبياتها تسعة وثلاثون.
(٣) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٥٢ و«نفح الطيب..»، ٧: ٢٣٥.
(٤) عدد أبياتها أربعة وخمسون.
(٥) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٤٩.
(٦) في عشرة أبيات.
(٧) في ثمانية وعشرين بيتاً.
(٨) في ستة عشر بيتاً.

وأما هائيته التي رثى بها مليكه فقد بدأها بقوله:

سَلاَمٌ عَلَى الدُّنْيَا جَمِيعاً وَمَا فِيهَا غَدَاةَ نَعَتْ شَمْسُ الخِلاَفَةِ مَنْ فِيهَا(١)

وهي أفضل مراثيه، ولعلها أولى مراثيه في الغني بالله، إذ نلمح الشاعر فيها متوجعاً يئن ويتفجع وكأنه يندب نفسه، بل هو يكاد يصيح من هول المصاب وفقدان الصبر:

أَمَوْلاَيَ لَوْ كَانَ الفِدَاءُ مُسَوَّغاً فَدَيْنَاكَ بِالدُّنْيَا جَمِيعاً وَمَا فِيهَا
أَمَوْلاَيَ خَلَّفْتَ العَبِيدَ إِلَى الأَسَى يُنَاجِيكَ مِنْ فَرْطِ الشُّجُونِ مُنَاجِيهَا
وَقَدْ مَاتَ مِنَّا الصَّبْرُ إِلاَّ صُبَابَةً بِذِكْرِكَ فِي جُنْحِ الدُّجُنَّةِ نُحْيِيهَا
أَمَوْلاَيَ يَا مَوْلاَيَ هَلْ أَنْتَ سَامِعِي أَبُثُّكَ مَا يُشْجِي القُلُوبَ وَيُدْمِيهَا
تَحَفَّيْتَ بِي حَتَّى نَضَوتُ شَبِيبَتِي عَزِيزاً وَجِيهاً حَيْثُمَا رُمْتُ تَوْجِيهَا
وَقَدْ كَانَ ظَنِّي أَنْ تَكُونَ جِنَازَتِي يُشَيِّعُهَا مِنْكَ الرِّضَا وَيُوَارِيهَا
وَقَدْ عِشْتُ حَتَّى ذُقْتُ فَقْدَكَ قَلَّمَا تُبَلَّغُ نَفْسٌ مَا تُرِيدُ أَمَانِيهَا(١)

على أنه لا يستطيع أن يحبس دمعه، فينهار باكياً، فهو لم يخسر في الغني بالله ملكاً وحسب، ولكنه خسر فيه صديقاً رافقه طيلة ثلث قرن. وربما أحس، أيضاً، أنه قد يخسر مركزه بعد مجيء ولي العهد فيقرر أنه سيبكيه دائماً:

سَأَبْكِيهِ مَا دَامَ الحَمَامُ مُطَوَّقاً وَمَا سَجَّعَتْ تَبْكِي الهَدِيلَ قَمَارِيهَا(١)

وبهذه العاطفة الصادقة تفوّق غرض الرثاء على سائر الأغراض الأخرى. ولا شك في أنها السبب المباشر الذي دفع النقاد لعدّ المراثي الأندلسية من أحسن الأشعار الأندلسية التقليدية(٢).

(١) المقري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٥٤ ـ ١٥٧.

(٢) كراتشكوفسكي: «الشعر العربي في الأندلس»، تعريب: د. محمد منير مرسي، تقديم: د. أحمد هيكل، عالم الكتب بالقاهرة، ١٩٧١م، ص ٢٢.

فخــره:

غرض الفخر غرض غنائي قديم قدم الشعر ذاته. نظم فيه كثير من الشعراء، فأسبغوا على أنفسهم الصفات الحسنة والمزايا الفاضلة نفسها التي كانوا يسبغونها على ممدوحيهم. وقد تراوح هذا الفخر بين القصيدة والمقطعة والبيت الواحد، يأتي به الشاعر مستقلاً أو ضمن أبيات نظمها في غرض آخر.

ولقد كان تأثر الشعراء الأندلسيين بأبي الطيب المتنبي أكبر من تأثرهم بغيره من الشعراء المشارقة. ولا نعجب لهذا لمعرفتنا بمنزلة المتنبي ولكونه شاعر الفخر بلا منازع، إذ رافقه الفخر أنى حلّ وحيثما رحل، فقصائده كلها:

«تفخيم بشعائر المجد وفخر بالهمة التي تدفعه إلى تسنمه والمقام الذي كان يحل نفسه فيه. فأما فخره فظاهر فيه هذا النزوع، وأما مدحه فما هو إلاّ فخر بكاف الخطاب... وأما هجاؤه فهو فخر مقلوب... فيصح أن يقال أن شعر المتنبي كله من باب واحد هو باب الفخر...»(١).

ونحن نرى ذلك التأثر واضحاً في شعر ابن خفاجة ولسان الدين الخطيب وابن زمرك نفسه. فكل هؤلاء كانوا يضمِّنون قصائدهم المدحية فخراً، وإن كان أكثره يقوم على ذكر الشاعرية والتباهي بقوة العارضة واللسن.

فابن زمرك كان يختم قصيدته المدحية ببيت على الأقل، يخصصه للفخر بشاعريته والتنويه بجمال قصيدته تلك(٢).

---

(١) العقاد، عباس محمود: «مطالعات في الكتب والحياة، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م، ص ١٩١ و١٩٢.

(٢) أحصيت أبيات فخره فوجدتها بالغة اثنين وخمسين بيتاً (أي ما تقارب نسبته ٢٪)، وهي واردة في أربع عشرة قصيدة وثلاث موشحات ومقطعتين.

وباستثناء ما ورد في بعض مقطعاته من فخر بالعفاف والطهارة:

لَقَدْ عَلِمَ اللَّهُ أَنِّي امْرُؤٌ أُجَرِّرُ ذَيْلَ العَفَافِ القَشِيبْ(١)

وما جاء في أخرى من فخر بالجود والكرم:

أَلَائِمَتِي بِالجُودِ وَالجُودُ شِيمَةٌ جُبِلْتُ عَلَى إِيثَارِهَا يَوْمَ مَوْلِدِي(٢)

فقد تغنى شاعرنا، في سائر أبياته الفخرية، بشاعريته وقوة قصائده وبلاغتها وحسن نظمها:

نَظَمْتُ لَهُ حَرَّ الكَلَامِ تَمَائِماً جَعَلْتُ مَكَانَ الدُّرِّ فِيهَا القَوَافِيَا
لَآلٍ بِهَا تَبْأَى المُلُوكُ نَفَاسَةً وَجَلَّتْ لَعَمْرِي أَنْ تَكُونَ لَآلِيَا(٣)

كما تغنى بما تتضمنه من غريب الوصف وشارد الكلم:

طَارَدْتُ فِيهَا وَصْفَ كُلِّ غَرِيبَةٍ فَنَظَمْتُ شَارِدَهُ الَّذِي لَمْ يُنْظَمِ
وَدَعَوْتُ أَرْبَابَ البَيَانِ أُرِيهُمُ كَمْ غَادَرَ الشُّعَرَاءُ مِنْ مُتَرَدَّمِ(٤)

وأكد على أن من يسمع قصيدته سيطرب وينتشي وكأنه تعاطى كؤوس الخمر:

---

(١) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٠ و«نفح الطيب..»، ٧: ١٥٩.
(٢) ابن الخطيب: «الإحاطة..»، ٢: ٢٣٢. والتنبكتي: «نيل الابتهاج..»، ص ٢٨٣. المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٠ و«نفح الطيب..»، ٧: ١٥٩.
(٣) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٦٠ و«نفح الطيب..»، ٧: ١٥١.
(٤) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٦٥ و«نفح الطيب..»، ٧: ١٨٨.
إن عجز البيت الثاني هو صدر بيت لعنترة يقول فيه:

«هَلْ غَادَرَ الشُّعَرَاءُ مِنْ مُتَرَدَّمِ أَمْ هَلْ عَرَفْتَ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُّمِ»

(يراجع «شرح القصائد العشر» للتبريزي، ص ٢٦٢).
وسبق للسان الدين أن افتخر بشعره وضمن إحدى قصائده شطراً من هذا البيت فقال:

«أَوَمَرُّ عَنْتَرَةٌ عَلَيْهَا لَمْ يَقُلْ هَلْ غَادَرَ الشُّعَرَاءُ مِنْ مُتَرَدَّمِ»

(يراجع ديوان «الصيّب والجهام والماضي والكهام»، لابن الخطيب، ص ١٩٤).

وَتُمِيلُ مَنْ أَصْغَى لَهَا فَكَأَنَّنِي   عَاطَيْتُهُ مِنْهَا كُؤُوسَ عُقَارِ(١)

كما أكد على أنه يفوق أبا العلاء وقسا الأيادي وسحبان وائل:

وَدُونَكَ مِنْ نَظْمِي جَوَاهِرَ حِكْمَةٍ   يُفَاخِرُ مِنْهَا السِّحْرَ بِالشِّعْرِ بَابِلُ
فَتُتْلَى عَلَى الأَسْمَاعِ مِنْهَا بَدَائِعٌ   وَتُجْلَى عَلَى الأَبْصَارِ مِنْهَا عَقَائِلُ
وَلَوْ أَنَّنِي أَدْرَكْتُ أَعْصَارَ مَنْ مَضَى   لَمَا قَالَ فِيهَا الشَّاعِرُ المُتَخَايِلُ
«وَإِنِّي، وَإِنْ كُنْتُ الأَخِيرَ زَمَانُهُ،   لآتٍ بِمَا لَمْ تَسْتَطِعْهُ الأَوائِلُ»
وَلَا افْتَخَرَتْ قِدْماً إِيَادٌ بِقُسِّهَا   وَلَا اسْتَصْحَبَتْ سَحْبَانَ فِي الفَخْرِ وَائِلُ(٢)

بل إنه يرى نفسه شاعراً كبيراً، ما أتى الدهر ولن يأتي بمثله:

وَدُونَكَ مِنْ بَحْرِ البَيَانِ جَوَاهِراً   كَرُمْنَ فَمَا يُشْتَرَيْنَ إِلَّا غَوَالِيَا
وَطَارَدْتُ فِيهَا وَصْفَ كُلِّ غَرِيبَةٍ   فَأَعْجَزْتُ مَنْ يَأْتِي وَمَنْ كَانَ مَاضِيَا(٣)

المبحث الثالث: وصفه

لقد كان ابن زمرك شاعراً مبدعاً في الوصف، ولا عجب في هذا، إذ اشتهر الشعراء الأندلسيون بهذا الغرض. والسبب بسيط معروف: فقد عرفت الأندلس بحياتها الحضرية الناعمة وطبيعتها الجميلة بما فيها من أنهار وجداول ورياض وخمائل تبتسم فيها الأزهار على اختلاف أنواعها وألوانها، ويستضحك النوار عابقاً بالعطر والشذا. الأمر الذي جعل الشعراء يهيمون ببلادهم ويعدُّونها جنة الله على أرضه، ولهذا كان وصف الطبيعة، بل الوصف بعامة، من أوسع أغراضهم، فأكثروا منه وتفننوا فيه حتى بدا شعرهم يمتاز بالرقة والجمال، وتنوع الصور وسعة الخيال.

(١) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٧٣ و«نفح الطيب..»، ٧: ٢٥٤.
(٢) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٨١.
(٣) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٧٤ و«نفح الطيب..»، ٧: ١٩٥.

ثم إن الطبيعة قد اتصل وصفها أو كاد بأكثر الأغراض الشعرية في الأندلس، فقد أيقظت قريحة الشاعر الأندلسي، وأطلقت شيطان شعره من قمقمه، وألهمته الشيء الكثير. وقد ذكر الحجاري في «المسهب» كلاماً كثيراً عن الأندلس وطبيعتها، أورد المقّري بعضه في نفحه. ومن جملة هذا الكلام تأكيد الحجاري على أن الأندلسيين أشعر الناس في ما كثّره، سبحانه، في بـلادهم من الأشجـار والأنهار والـطيـور بحيث أصبحـوا لا يُجَـارَوْن ولا يلحقون[1]. ولئن كان في كلام الحجاري شيء من الغلو فلا شك في أن بعض الشعراء الأندلسيين برعوا في الوصف براعة ملحوظة.

ولقد كان ابن زمرك من أولئك الذين برعوا في الوصف. فقد نظم فيه كثيراً من الأبيات[2]. وأبرز ما نجده في هذا الوصف: رهافة حس الشاعر ورقة تعبيره. لكأني بالنزعة الصوفية قد تركت فيه أثراً لا يمحى، فأضفت على عواطفه حرارة، وأوسعت شعوره رقة، بحيث استجابت نفسـه للجمال، واهتزت أوتار قلبه للطبيعة، واستطاع، بالتالي، أن يؤثر فينا.

ولم يستقل الوصف، عنده، في قصائد مطولة، بل استقل في مقطعات قصيرة. على أن أجمل أبياته الوصفية هي التي نراها في موشحاته وقصائده المدحية. والواقع أن موشحاته هي مظنة الوصف، فقد وصل فيهـا الفن الوصفي إلى قُنّة الجمال وقُلّة الإبداع.

ولم يترك ابن زمرك شيئاً إلّا وصفه. فقد وصف غرناطة وقصورها ومبانيها وطبيعتها ورياضها وحدائقها ونوافيرها وأزهارها وخاصة القرنفل، ووصف الصباح والليل والنجوم والأفلاك والرياح والمطر والسماء والقمـر، ووصف المعارك والخيول والبغال وآلة الحرب من سيوف وأسنـة، ووصف

(١) المقّري: «نفح الطيب..»، ٣: ١٥٥.
(٢) بلغت، بالتحديد، خمسمائة وخمسة وعشرين بيتاً.

الزرافة والبهلوان والمصباح والخمر والنديم، ووصف الشيب وقصوره والشباب ومرحه: كل هذا بتعبير جميل ونغم عذب، يحملنا فيه على أجنحة الخيال إلى عالم الأحلام والنشوة والحبور.

فإذا صوّر الشباب المتدفق شبّه نشاطه بنشاط المهر الجموح:

أَخْتَالُ كَالمُهْرِ فِي الجِمَاحِ نَشْوَانَ فِي رَوْضَةِ الشَّبَابْ[1]

وإذا هفا إلى الصباح بعد الليل جسّم النور والظلام فجعلهما طائرين:

وَارْتَاعَ مِنْ بَازِي الصَّبَاحِ غُرَابُهُ لَمَّا أَطَلَّ فَطَارَ كُلَّ مَطَارِ[2]

أو جعلهما حصاناً وغرته:

واللَّيْلُ مُرْبَدُّ الجَوَانِحِ قَدْ بَدَا فِيهِ الصَّبَاحُ كَغُرَّةٍ فِي أَدْهَمِ[3]

أما قصر الحمراء فقد وقف على وصفه جزءاً هاماً من شعره، فكان له مصوراً، ولقبابه رساماً، ولجدرانه مزيناً:

وَاهْنَأْ بِمَبْنَاكَ السَّعِيدِ فَإِنَّهُ كَهْفٌ لِيَوْمِ مَشُورَةٍ وَعَطَاءِ
لِلَّهِ مِنْهُ هَالَةٌ قَدْ أَصْبَحَتْ حَرَمَ العُفَاةِ وَمَصْرَعَ الأَعْدَاءِ
تَنْتَابُهَا طَيْرُ الرَّجَاءِ فَتَجْتَنِي ثَمَرَ المُنَى مِنْ دَوْحَةِ الآلاءِ
لِلَّهِ مِنْهُ قُبَّةٌ مَرْفُوعَةٌ دُونَ السَّمَاءِ تَفُوتُ لَحْظَ الرَّائِي
رَاقَتْ بَدَائِعُ وَشْيِهَا فَكَأَنَّهَا وَشْيُ الرَّبِيعِ بِمَسْقَطِ الأَنْدَاءِ[4]

وهو يفوق المباني بجماله، لما فيه من متنزهات الأبصار، حتى أن

(١) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٨٢ و«نفح الطيب..»، ٧: ٢٤٤.
(٢) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٧١ و«نفح الطيب..»، ٧: ١٥٣.
وابن الخطيب: «الإحاطة..»، ٢: ٢٢٨.
(٣) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٦٢ و«نفح الطيب..»، ٧: ١٨٥.
(٤) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٥٠ و«نفح الطيب..»، ٧: ١٨٣.

النجوم أصبحت لا تحمد مكانها من السماء، وهي تفضل أن تكون حبيسة في سمائه على أن تجري حرة في سمائها:

وَتَهْوَى النُّجُومُ الزُّهْرُ لَوْ ثَبَتَتْ بِهِ وَلَمْ تَكُ فِي أُفْقِ السَّمَاءِ جَوَارِيَا(١)

وأما غرناطة فهي موطنه، فيها ولد ونشأ، وهو يحبها بكل ما فيها ويحب طبيعتها، وإذا غاب عنها حنّ إليها لأنها حبيبته، وهو لا ينسى ما فيها من جنان، فهذه هي السبيكة:

عَــرُوسَــةٌ تَــاجُهَــا السَّبِيكَــة وَزَهْــرُهَــا الحَلْيُ وَالحُلَلْ(٢)

وتلك هي جنة العريف تزهو بزهرها وطيرها:

كُــرْسِيُّهَــا جَنَّــةُ العَــرِيـفِ مِــرْآتُهَــا صَفْحَــةُ الغَــدِيــرْ
وَجَــوْهَــرُ الــطَّلِّ عَنْ شُنُــوفِ تَحْكُــمُهَــا صَــنْعَــةُ القَــدِيــرْ
والأُنْسُ فِيهَــا عَــلَى صُنُــوفِ فَمِنْ هَــدِيــلٍ وَمِــنْ هَــدِيــرْ
كَمْ خَــرَّقَ الــزَّهْــرُ مِنْ جُيُــوبِ وَكَــلَّلَ الــقُــضْــبَ بِــالــدُّرَرْ
فَــالغُصْنُ كَــالكَــاعِبِ اللَّعُــوبِ وَالــطَّيْــرُ تَشْــدُو بِــلاَ وَتَــرْ(٣)

أما نسيمها فبرء العليل:

نَسِيــمُ غَــرْنَــاطَــةٍ عَلِيــلُ لَــكِنَّــهُ يُــبْــرِئُ الــعَــلِيــلْ
رَوْضُــهَــا زَهْــرُهُ بَــلِيــلُ وَرَشْــفُــهُ يَــنْــقَــعُ الــغَــلِيــلْ(٤)

أما زهرها فنجوم، وأما نهرها شنيل فيفضل نهر النيل ألف مرة:

لِــلزَّهْــرِ فِي عِــطْفِهَــا رُقُــومُ تَــلُوحُ لِــلْعَــيْــنِ كَــالــنُّجُــومْ

(١) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٦٩ و«نفح الطيب..»، ٧: ١٩١.
(٢) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٧٨ و«نفح الطيب..»، ٧: ٢٤١.
(٣) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٧٨ و«نفح الطيب..»، ٧: ٢٤٢.
(٤) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٧٩ و«نفح الطيب..»، ٧: ٢٤٣.

وَلِــلنَّـدَى بَـيْـنَـهَــا رُسُــومُ عِقْـدُ النَّـدَى فَـوْقَـهُ نَـظِيمْ
وَكُــلُّ وَادٍ بِــهَــا يَــهِـيـمُ وَلَـمْ يَـزَلْ حَـوْلَـهَـا يَحُـومْ
شَنِـيلُـهَـا مُـدَّ مِنْـهُ نِـيـلُ والشَّـيْنُ أُلْـفٌ لِـمُـسْتَـنِيـلْ
وَعَـيْـنُ وَادٍ بِـهِ تَـسِـيـلُ مِنْ فَـوْقِ خَـدٍّ لَـهُ أَسِيـلْ[1]

وقد وفق ابن زمرك إلى رسم هذه اللوحة الطبيعية الرائعة:

وَكَسَـا الأَدْوَاحَ وَشْياً مُـذْهَبَا يَـبْـهُـرُ الـشَّـمْـسَـا
عَسْجَدٌ قَدْ حَلَّ مِنْ فَوْقِ الرُّبَى يُـبْـهِـجُ الـنَّـفْـسَـا
فَـاتَّخِـذْ لِلَّهْـوِ فِيـهِ مَـرْكَبَـا تَـلْـحَـقِ الأُنْـسَـا
مِنْبَـرُ الغُصْنِ عَلَيْـهِ قَـدْ جَلَسْ سَـاجِـعُ الأَدْوَاحْ
حُلَلَ السُّنْدُسِ خُضْراً قَدْ لَبِسْ عِـطْفُـهُ الـمُـرْتَـاحْ[2]

وقد أتى بأبدع من هذه حين قال:

رَيْحَـانَـةُ الفَجْـرِ قَـدْ أَطَلَّتْ خَـضْـرَاءَ بِـالـزَّهْـرِ تُـزْهِـرُ
وَرَايَـةُ الـصُّبْـحِ قَـدْ أَظَـلَّتْ فِي مَـرْقَبِ الـشَّـرْقِ تُنْشَـرُ
فَـالشُّهْبُ مِنْ غَـارَةِ الصَّبَـاحِ تُـرْعَـدُ خَـوْفـاً وَتَـخْـفُـقُ
وَأَدْهَـمُ اللَّيْـلِ فـي جِـمَـاحِ أَعِـنَّـةَ الـبَـرْقِ يُـطْلِقُ
وَالأُفْـقُ فِي مُـلْتَقَى الـرِّيَـاحِ بِـأَدْمُـعِ الـغَـيْـثِ يَـشْـرَقُ
وَالسُّحْبُ بِـالجَـوْهَـرِ اسْتَهَلَّتْ فَـالْـبَـرْقُ سَـيْـفٌ مُـجَـوْهَـرُ
صِفَـاحُـهُ الـمُـذْهَبَـاتُ حَلَّتْ فِي رَاحَـةِ الجَـوِّ تُـشْـهَـرُ[3]

وهي، لعمري، لوحة بديعة تستحق أن تدرج في جديد ابن زمرك!!.

(١) المقري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٨٠ و ١٨١ و«نفح الطيب..»، ٧: ٢٤٣ و ٢٤٤.
(٢) المقري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٩٢ و«نفح الطيب..»، ٧: ٢٥٤.
(٣) المقري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٨٦ و١٨٧ و«نفح الطيب..»، ٧: ٢٤٩.

ومالقة كان لها، أيضاً، نصيب في شعر صاحبنا، قال يصفها ويمدح الغني بالله:

وَأَعْـيُـنُ الـزَّهْـرَ لَا تَـنَـامُ   تَسْتَعْـذِبُ السُّـهْـدَ والسَّـهَـرْ
تَـنْفُـثُ مِنْ تَـحْتِهَـا الغَمَـامُ   تَـرْقِـيـكَ مِنْ أَعْيُنِ الـزَّهَـرْ
عَـرُوسَـةٌ أَنْـتِ يَـا عَـقِـيـلَهْ   تُجْلَى عَلَى مَـظْهَـرِ الكَمَـالْ
مَـدَّتْ لَـكِ الكَفَّ مُسْتَقِيلَهْ   تَمْسَـحُ أَعْـطَافَـكِ الـشَمَـالْ
وَالْـبَحْـرُ مِـرْآتُـكِ الـصَّقْـيـلَهْ   تَشِفُّ عَنْ ذلِـكَ الجَـمَـالْ(١)

أما الخيل فقد أفرد حيّزاً لوصفها في سبع قصائد، وقد ركز في وصفه إياها على ألوانها وسرعتها، فوصف أشهبها وأحمرها وأشقرها وأدهمها وأصفرها، وكرر هذا الوصف بأشكال متشابهة، كعادته في تكرار المعاني التي يعجب بها ويظنها طريفة. وأجمل وصف لها جاء في لاميته التي يمدح فيها الغني بالله، وذلك في معرض وصفه سباق الخيل الذي حضره الملك:

وَأَجْرَيْتَ سَرْعَانَ الجِيَادِ بِمَلْعَبٍ   تَـذَكَّرَ فِيـهِ مَوْقِفَ الجِـدِّ هَازِلُ
فَـأَشْهَبُ كَالإِصْبَـاحِ رَاقَ أَدِيمُهُ   وَغَالَتْ بِهِ شُهْبُ السَّمَاءِ الغَوَائِلُ
وَأَحْمَـرُ زَانَ الـوَرْدُ مِنْـهُ خَمِيلَةً   يَحُفُّ بِهِ نَهْرٌ مِنَ السَّيْفِ سَائِلُ
جَرَتْ لَوْنَهُ مِنْ فَوْقِهِ مُهَجُ العِدَا   فَلِلَّهِ مِنْـهُ الجَـامِـدُ المُتَسَـايِـلُ
إِذَا قَبَسَتْ بِالرَّكْضِ فِي حَوْمَةِ الوَغَى   تُنِيـرُ بِهَا لَيْـلَ القَتَامِ مَشَـاعِـلُ
وَأَشْقَرُ مَهْمَا حَاوَلَ البَرْقَ فِي مَدًى   يَفُوتُ جَوَادَ البَرْقِ مِنْهَا المُحَاوِلُ
تَحَلَّى بِمَحْلُولِ النُّضَـارِ أَدِيمُـهُ   فَكُـلُّ مُحَلًّى دُونَهُ فَهْـوَ عَاطِـلُ
وَأَدْهَمُ فِي مِسْحِ الدُّجَى مُتَلَفِّعٌ   وَقَدْ خَاضَ مِنْهُ فِي الصَّبَاحِ الأَسَافِلُ
يُكَلَّلُ بِـالجَـوْزَاءِ حَلْيُ لِجَـامِـهِ   فَدُرُّ الدَّرَارِي مِنْ حُلَاهُ عَوَاطِلُ

(١) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٩٦ و«نفح الطيب..»، ٧: ٢٥٧.

وَلَمْ يُرْضِهِ سَرْجُ الهِلاَلِ مُفَضَّضاً فَـأَعْـرَضَ عَنْهَـا لِـلأَهِلَّةِ نَـاعِـلُ
وَأَصْفَرُ في ثَوْبِ الأَصِيلِ قَدِ ارْتَدَى وَرُبَّتَمَـا وَدَّتْ حُـلاَهُ الأَصَـائِـلُ
وَقَدْ قُدَّ مِنْ بُرْدِ العَشِيِّ جِلاَلُـهُ وَفِي ذَيْلِهِ صُبْحٌ مِنَ اللَّيْلِ حَائِلُ(١)

ويصف ابن زمرك «الحيوان الغريب المسمى بالزرافة»(٢) والذي أتى به وفد الأحابيش هدية للسلطان أبي سالم، وقد أمر من يعاني الشعر من الكتاب بالنظم في ذلك الغرض، فقال «وهي من بدائعه»(٢):

وَأَتَتْـكَ يَا مَلِكَ الـزَّمَانِ غَـرِيبَةٌ قَيْـدُ النَّـوَاظِرِ نُـزْهَـةُ الأَبْصَـارِ
مَـوْشِيَّةُ الأَعْـطَافِ رَائِقَةُ الحُلَى رَقَمَتْ بَـدَائِعَهَـا يَـدُ الأَقْـدَارِ
رَاقَ العُيُـونَ أَدِيمُهَـا فَكَـأَنَّـهُ رَوْضٌ تَفَتَّـحَ عَنْ شَقِيقِ بَهَـارِ
مَـا بَيْنَ مُبْيَضٍ وَأَصْفَرَ فَـاقِـعٍ سَـالَ اللُّجَيْنُ بِهِ خِـلاَلَ نُضَارِ
يَحْكِي حَدَائِقَ نَرْجِسٍ في شَاهِقٍ تَنْسَـابُ فِيـهِ أَرَاقِمُ الأَنْـهَـارِ
تَجْذُو قَوَائِمُ كَالْجُذُوعِ وَفَوْقَهَا جَبَـلٌ أَشَمُّ بِـنُـورِهِ مُتَـوَارِ
وَسَمَتْ بِجِيدٍ مِثْلِ جِذْعٍ مَائِلٍ سَهْـلِ التَّعَـطُّفِ لَيِّنٍ خَـوَّارِ
تَسْتَشْـرِفُ الجُدْرَانُ مِنْهُ تَرَائِبـاً فَكَـأَنَّمَـا هُـوَ قَـائِمٌ بِمَنَـارِ
تَـاهَتْ بِكَلْكَلِهَا وَأَتْلَعَ جِيـدُهَـا وَمَشَى بِهَا الإِعْجَابُ مَشْيَ وَقَارِ(٣)

وكما وصف ابن زمرك حفلات الأعذار، وصف كذلك حفلات الترفيه التي كان يقدم فيها البهلوان عرضاً بهلوانياً، فقال يصفه:

وَمُنَوَّعِ الحَرَكَاتِ قَدْ رَكِبَ الهَوَا يَمْشِي عَلَى خَطٍّ بِـهِ مُتَـوَهَّمِ

(١) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٧٦.
(٢) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٧٠ - ١٧٣ و«نفح الطيب..»، ٧: ١٥١ - ١٥٤. وابن الخطيب: الإحاطة..»، ٢: ٢٢٧ - ٢٣٠.
(٣) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٧٠ - ١٧٣ و«نفح الطيب..»، ٧: ١٥١ - ١٥٤. وابن الخطيب: «الإحاطة..»، ٢: ٢٢٧ - ٢٣٠.

فَإذَا هَوَى مِنْ جَوِّهِ ثُمَّ اسْتَوَى أَبْصَرْتَ طَيْراً حَلَّ صُورَةَ آدَمِ
يَمْشِي عَلَى فَنَنِ الرِّشَاءِ كَأَنَّهُ فِيهِ مُسَاوِرُ ذَابِلٍ أَوْ أَرْقَمِ (١)

ومع أنه لم يكن يشرب الخمر، كما يقرر هو في بعض أبياته(٢)، فقد وصفها ووصف النديم فقال:

قُمْ هَاتِهَا وَالْجَوُّ أَزْهَرُ بَاسِمٌ شَمْساً تَحُلُّ مِنَ الزُّجَاجَةِ فِي قَمَرْ
إنْ شَجَّهَا بِالمَاءِ كَفُّ مُدِيرِهَا تَرْمِيهِ مِنْ شُهْبِ الحَبَابِ بِهَا شَرَرْ
نَارِيَّةٌ نُورِيَّةٌ مِنْ ضَوْئِهَا يَقِدُ السِّرَاجُ لَنَا إذا اللَيْلُ اعْتَكَرْ
لَمْ يُبْقِ مِنْهَا الدَّهْرُ إلاَّ صِبْغَةً قَدْ أَرْعَشَتْ فِي الكَأْسِ مِنْ ضَعْفِ الكِبَرْ
مِنْ كَفِّ شَفَّافٍ تَجَسَّدَ نُورُهُ مِنْ جَوْهَرٍ لأْلاءُ بَهْجَتِهِ بَهَرْ
قَدْ خَطَّ نُونَ عِذَارِهِ فِي خَدِّهِ قَلَمَانِ مِنْ آسٍ هُنَاكَ وَمِنْ شَعَرْ
وَالَى عَلَيْكَ بِهَا الكُؤُوسَ وَرُبَّمَا يَسْقِيكَ مِنْ كَأْسِ الفُتُورِ إذَا فَتَرْ(٣)

وأكتفي، أخيراً، بذكر وصفه المصباح الذي رافقه في ليل كثيف الظلام، فراحا يتطارحان الجوى وكأن كلًا منهما عاشق مغرم، يشكو إلى صاحبه لوعة الحب:

لَقَدْ زَادَنِي وَجْداً وَأَغْرَى بِيَ الجَوَى ذُبَالٌ بِأَذْيَالِ الظَّلَامِ قَدِ الْتَفَّا
تُشِيرُ وَرَاءَ اللَّيْلِ مِنْهُ بَنَانَةٌ مُخَضَّبَةٌ وَاللَّيْلُ قَدْ حَجَبَ الكَفَّا
تَلُوحُ سِنَاناً حِينَ لَا تَنْفَحُ الصَّبَا وَتُبْدِي سِوَاراً حِينَ تُثْنِي لَهُ العِطْفَا
قَطَعْتُ بِهِ لَيْلاً يُطَارِحُنِي الجَوَى فَآونَةً يَبْدُو وَآونَةً يَخْفَى
إذَا قُلْتُ لَا يَبْدُو أَشَالَ لِسَانُهُ وَإنْ قُلْتُ لَا يَخْبُو الضِّيَاءُ بِهِ كَفَّا

---

(١) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٦٥ و«نفح الطيب..»، ٧: ١٨٧ و١٨٨.
(٢) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٤٠ و١٣٨ و«نفح الطيب..»، ٧: ١٧٨.
(٣) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٣٥ و٣٦ و«نفح الطيب..»، ٥: ١٧٧ و١٧٨

إلَى أَنْ أَفَاقَ الصُّبْحُ مِنْ غَمْرَةِ الدُّجَى وَأَهْدَى نَسِيمُ الرَّوْضِ مِنْ طِيبِهِ عَرْفَا
لَكَ اللَّهُ يَامِصْبَاحُ أَشْبَهْتَ مُهْجَتِي وَقَدْ شَفَّهَا مِنْ لَوْعَةِ الحُبِّ مَا شَفَّا[(١)]

المبحث الرابع: غزلـه

على الرغم من أن الغزل يشكل نصف ديوان الشعر العربي، وعلى الرغم من أنه غرض وجداني صميم، فيه نغم الحب وحكاية القلب، وفيه يتحدث الشاعر عن مشاعره وعواطفه، ويرسم حنينه ووجده، ويصور جمال الحبيبة وحسنها، ويذكر أسى الفراق وحرقته، ونعيم اللقاء وحلاوته، على الرغم من هذا كله، لا نجد لابن زمرك قصيدة واحدة مستقلة بالغزل.

ولئن أورد لسان الدين لابن زمرك قصيدة ميمية في كتاب «الإحاطة..»[(٢)]، وزعم أنها في غرض النسيب، فالواقع أنها ليست كذلك. بل هي قصيدة مدحية استهلها الشاعر بالنسيب كعادته. وإلاّ فما معنى قوله:

وَوَاللَّهِ مَا فِي الحَيِّ حَيٌّ وَلَمْ يَنَلْ رِضَـاكَ وَعَـمَّتْـهُ أَيَـادٍ وَأَنْعُمُ
وَمِنْ قَبْلِ مَا طَوَّقْتَنِي كُلَّ نِعْمَةٍ كَأَنِّي وَإِيَّاهَـا سِوَارٌ وَمِعْصَمُ؟[(٢)]

وإذا كان علينا أن نعلل خلو شعره من قصيدة غزلية مستقلة، فالأمر جدّ يسير، إذ يسهل القول إن شاعرنا لم يقع في الحب مطلقاً! فهل هذا صحيح؟! الواقع أننا لا نعرف شيئاً عن أسرار ابن زمرك الغرامية، فالمصادر تسكت تماماً عن ذلك. على أن الشاعر حريص، هو أيضاً، على الكتمان:

يَـا سَائِلِي عَنْ سِـرِّ مَنْ أَحْبَبْتُهُ السِّـرُّ عِنْـدِي مَيِّتُ الإِحْيَـاءِ[(٣)]

---

(١) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٦٩ و«نفح الطيب..»، ٧: ١٥٨. وابن الخطيب: «الإحاطة..»، ٢: ٢٣٥.
(٢) ابن الخطيب: «الإحاطة..»، ٢: ٢٣٤.
(٣) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٤٧ و«نفح الطيب..»، ٧: ١٨٠.

والنسيب، عنده، يقع دائماً في مطالع قصائده المدحية. فإذا استقرأنا ما نظمه، في هذا الشأن، لم نجد فيه من العاطفة المشبوبة ما يثبت لنا أنه أحب! ذلك بأن هذا النسيب غير مقصود لذاته وإنما هو غرض ثانوي يمهد به للمدح.

ولئن كنا نعرف من الشعراء القدامى من انفرد بحبيبة واحدة. يتغزل بها بحيث التصق اسمها باسمه كقيس ليلى وجميل بثينة وعباس فوز... فإن لابن زمرك حبيبات كثيرات، وهميات بالطبع، ذكر أسماءهن وكنية إحداهن. ففي إحدى قصائده تغزل بليلى:

فَهَلْ عِنْدَ لَيْلَى نَعَّمَ اللَّهُ لَيْلَهَا بِأَنَّ جُفُونِي مَا تُلِمُّ مِنَ السُّهْدِ(١)

وفي ثانية ذكر لمياء:

بِاللَّهِ يَا لَمْيَاءُ مَا مَنَعَ الصَّبَا أَنْ لَا تَهُبَّ بِعَرْفِكِ المِعْطَارِ(٢)

وفي ثالثة شبب بأسماء:

يُذَكِّرُنِي ثَغْراً لِأَسْمَاءَ أَشْنَبَا إِذَا ابْتَسَمَتْ تَجْلُو مِنَ اللَّيْلِ غَيْهَبَا(٣)

وفي رابعة تحدث عن أم مالك:

وَبِالخَيْفِ يَوْمَ النَّفْرِ يَا أُمَّ مَالِكٍ تَخَلَّفْتِ قَلْبِي فِي حِبَالِكِ عَانِيَا(٤)

وهو في هذا الغزل، لا يأتي بشيء جديد، إنما يكرر ويقلد معاني من سبقوه، بل إن شعره الغزلي أكثر تقليدية من كل أشعاره. وهذا شيء

(١) ابن خلدون: «العبر..»، ٧: ٤٥٦ و«التعريف..»، ص ٢٦٤.
(٢) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٠٤ و«نفح الطيب..»، ٧: ١٥٥، وابن الخطيب: «الإحاطة..»، ٢: ٢٣١.
(٣) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٨٣ و«نفح الطيب..»، ٧: ١٩٧.
(٤) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٥٦ و«نفح الطيب..»، ٧: ١٤٨. وابن الخطيب: «الإحاطة..»، ٢: ٢٢٤.

بدهي، لأن الغزل، ككل غرض يوجب المعاناة، قد استنفدت معانيه واستهلكت، وقل أن يأتي الشاعر فيه بجديد ما لم يكن محباً صادق الحب منفعلًا به، تماماً كالخمر التي استنفدت أيضاً معانيها بحيث يصعب على الشاعر التجديد فيها إلّا من خلال ما تتركه فيه من أثر بعد معاقرتها.

ولما كان شاعرنا بعيداً عن الانفعال بالحب والمعاناة فيه، فلا يمكن له أن يأتي بجديد ذي قيمة في هذا الغرض. فهو إن تحدث عن الحب فإن حديثه مجرد تقليد واتباع، شأنه في هذا شأن معشر الشعراء:

أَتْبَعْتُ فِي دِينِ الصَّبَابَةِ أُمَّةً مَا بَدَّلَتْ فِي حُبِّهَا تَبْدِيلَا[1]

ويكفي أن يستعرض القارىء أشعاره الغزلية حتى يتأكد من هذه الاتّباعية. فاسمعه وهو يقول من قصيدة دالية:

وَكَمْ صَارِمٍ قَدْ سُلَّ مِنْ لَحْظِ أَحْوَرٍ ... وَكَمْ ذَابِلٍ قَدْ هُزَّ مِنْ نَاعِمِ القَدِّ
سِهَامُ جُفُونٍ مِنْ قِسِيِّ حَوَاجِبٍ ... يُصَابُ بِهَا قَلْبُ البَرِيءِ عَلَى عَمْدِ
وَرَوْضُ جَمَالٍ ضَاعَ عَرْفُ نَسِيمِهِ ... وَمَا ضَاعَ غَيْرُ الوَرْدِ فِي صَفْحَةِ الخَدِّ
وَنَرْجِسُ لَحْظٍ أَرْسَلَ الدَّمْعَ لُؤْلُؤاً ... فَوَشَّى بِمَاءِ الوَرْدِ رَوْضاً مِنَ الوَرْدِ[2]

وانظر إلى قوله من رائية له:

عَجَباً لِلَيْلِ ذَوَائِبٍ مِنْ شَعْرِهِ ... وَالْوَجْهُ يُسْفِرُ عَنْ صَبَاحٍ قَدْ سَفَرْ
عَجَباً لِعِقْدِ الثَّغْرِ مِنْهُ مُنَظَّماً ... وَالعِقْدُ مِنْ دَمْعِي عَلَيْهِ قَدِ انْتَثَرْ
مَا رُمْتُ أَنْ أَجْنِي الأَقَاحَ بِثَغْرِهِ ... إِلَّا وَقَدْ سَلَّ السُّيُوفَ مِنَ الحَوَرْ[3]

ألا نرى إلى هذه الأبيات الخالية من العاطفة، يتكىء فيها الشاعر على

(١) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٩٧.
(٢) ابن خلدون: «العبر..»، ٧: ٤٥٦ و«التعريف..»، ص ٢٦٣ و ٢٦٤.
(٣) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٢٢ و«نفح الطيب..»، ٧: ٢١٦.

المعاني التقليدية، فيصوغها ببراعة قد تعجبنا ولكنها لا تترك في نفوسنا أي أثر. قس على هذا كل الغزل الزمركي.

ولقد أتى شاعرنا في مطلع قصائده المدحية بمائتين وأربعة وثلاثين بيتاً من النسيب[١]. وقليلة هي القصائد التي لم يبدأها بالنسيب، منها قصائد الرثاء بالطبع، وبعض القصائد الجهادية[٢].

أما كيف عالج ابن زمرك هذا الموضوع؟ وما المعاني الغزلية التي ضمنها نسيبه؟ وهل رافق هذا النسيب غرض آخر؟ فهذه أسئلة يمكن الإجابة عنها بالقول إن الشاعر قد كان له من الحب، كغرض فني، مواقف مختلفة، فبينا نراه يميل إلى الحب العذري العفيف في أكثر نسيبه فيقول:

هِيَ شِيمَـةٌ عُـذْرِيَّـةٌ عَـوَّدْتُهَـا ... قَلْباً شَعَاعاً مَا يُرَى بِالسَّالِي[٣]
وَلَيْسَ سِـوَى لَحْظٍ خَفِيٍّ نُجِيلُهُ ... وَشَكْوَى كَمَا ارْفَضَّ الجُمَانُ مِنَ العِقْدِ[٤]
خَلَوْتُ بِمَنْ أَهْوَاهُ مِنْ غَيْرِ رِقْبَةٍ ... وَلَكِنْ عَفَافِي لَمْ أَكُنْ عَنْهُ خَالِيَا[٥]

نجده أحياناً قد خرج عن مذهبه هذا وابتعد عن العفة والطهارة:

وَلَيْلَةَ بَاتَ البَدْرُ فِيهَا مُضَاجِعِي ... وَبَاتَتْ عُيُونُ الشُّهْبِ نَحْوِي رَوَانِيَا
كَرَعْتُ بِهَا بَيْنَ العُـذَيْبِ وَبَارِقٍ ... بِمَـوْرِدِ ثَغْرٍ بَـاتَ بِالـدُّرِّ حَالِيَـا
رَشَفْتُ بِهِ شُهْدَ الرِّضَابِ سُلاَفَةً ... وَقَبَّلْتُ فِي مَاءِ النَّعِيمِ الأَقَاحِيَا
فَيَا بَرْدَ ذَاكَ الثَّغْرِ رَوَّيْتَ غُلَّتِي ... وَيَا حَرَّ أَنْفَاسِي أَذَبْتَ فُؤَادِيَا[٦]

(١) أي ما نسبته ٩٪.
(٢) تراجع رائيته (المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٢٨ و«نفح الطيب..»، ٥: ١٧٢) ولامياته (المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١١١ و١١٦ و٧٤ و«نفح الطيب..»، ٧: ٢٠٦ و٢١٠) وميميته (المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٤٦).
(٣) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٠٨.
(٤) ابن خلدون: «العبر..»، ٧: ٤٥٧ و«التعريف..»، ص ٢٦٥.
(٥) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٦١ و«نفح الطيب..»، ٧: ١٨٤.
(٦) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٦٦ و٦٧ و«نفح الطيب..»، ٧: ١٨٩.

وفي حين يخبرنا أنه لا يزال يحب على الرغم مما لحقه من شيب:

أَدِرْهَا ثَلَاثاً مِنْ لِحَاظِكَ وَاحْبِسِ فَقَدْ غَالَ مِنْهَا السُّكْرُ أَبْنَاءَ مَجْلِسِ
إِذَا مَا نَهَانِي الشَّيْبُ عَنْ أَكْؤُسِ الطِّلَا تُدِيرُ عَلَيَّ الخَمْرَ مِنْهَا بِأَكْؤُسِ (١)

يعود إلى التصريح بأنه ترك حب الحسان حين ولّى شبابه:

هذَا عَلَى أَنِّي نَزَعْتُ عَنِ الصِّبَا وَصَرَمْتُ مِنْ حُبِّ الحِسَانِ حِبَالِي (٢)

ولعل هذه المواقف المترددة والآراء المختلفة تؤكد لنا، من جديد، أن الشاعر لم يعانِ الحب حقيقة على الرغم من قوله:

تَجَاوَزْتُ حَدَّ العَاشِقِينَ الأُلَى مَضَوْا وَأَصْبَحْتُ فِي دِينِ الهَوَى أُمَّةً وَحْدِي (٣)

ومن قوله كذلك:

كَيْفَ التَّجَمُّلُ بَعْدَهُمْ وَأَنَا الَّذِي أَنْسَيْتُ قَيْساً فِي الهَوَى وَجَمِيلاَ (٤)

ولقد أكثر ابن زمرك من التعابير التقليدية في نسيبه، فتغنى بسلطان الجمال، وتحدث عن غنج اللحاظ ونرجسها وخمرها، وعن سلافة الرضاب وشهده وعذوبته، وذكر قسي الحواجب وسهام الجفون وأقاح الثغر وورد الخد وناعم القد وغصن القوام، وأشار إلى نار الصبابة وزند الشوق وخفوق القلب وضرم الأحشاء، ولم يترك مفردة من قاموس الحب والغزل إلاّ أتى على ذكرها: فالطيف والخيال والأرق والسهر والسهد والجفوة والنفار والعشق والوصل واللقاء والرقيب والعاذل والسلوان والصبر.. كل هذا نجده في نسيبه.

(١) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٤٠ و«نفح الطيب..»، ٧: ١٧٨.
(٢) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٠٩.
(٣) ابن خلدون: «العبر..»، ٧: ٤٥٧ و«التعريف..»، ص ٢٦٥.
(٤) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٩٧.

ثم إن الشاعر لم يكتفِ بهذا حتى قرن بالنسيب الوقوف على طلل المنازل ورسومها الدارسة، فقال:

وَلَقَدْ أَجَدَّ جَوَايَ لَمَّا زُرْتُهُ رَسْماً كَحَاشِيَةِ الرِّدَاءِ مُحِيلَا
قَدْ أَنْكَرَتْهُ العَيْنُ إِلَّا لَمْحَةً عَرَفَتْ بِهِ آثَارَهُ تَخْيِيلَا
وَإِذَا الطُّلُولُ تَعَرَّضَتْ لِمُتَيَّمٍ غَادَرْنَ دَمْعَ جُفُونِهِ مَطْلُولَا(١)

وقال أيضاً:

وَلَقَدْ أَجَدَّ هَوَايَ رَسْمٌ دَارِسٌ قَدْ كَادَ يَخْفَى عَنْ خَفِيٍّ تَوَهُّمِ(٢)

وقال كذلك:

مَا لِلْحُمُولِ تَحِنُّ لِلأَطْلَالِ وَيَشُوقُهَا ذِكْرُ الزَّمَانِ الخَالِي
يُثْنِي أَزِمَّةَ هِيمِهَا شَوْقٌ إِلَى ظِلِّ الأَرَاكِ وَأَزْرَقٍ سَلْسَالِ
دَعْنِي أُطَارِحْهَا الحَنِينَ فَإِنَّنِي لَا أَنْثَنِي لِمَقَالَةِ العُذَّالِ
وَهْيَ المَنَازِلُ أَشْبَهَتْ سُكَّانَهَا أَعْمَارُهَا تُفْضِي إِلَى الآجَالِ
بَلِيَتْ مَحَاسِنُهَا وَخَفَّ أَنِيسُهَا وَالشَّوْقُ وَالتَّذْكَارُ لَيْسَ بِبَالِ(٣)

وكأني بابن زمرك عاد إلى الوراء قروناً وعصوراً ونسي حدائق الحمراء وقصورها.

والخلاصة أن الغزل الزمركي يصدر عن فن الشاعر لا عن قلبه، وعن رغبته في السير على خطى المتقدمين لا عن رغبة في التعبير عما يجيش في صدره من عاطفة صادقة سامية. وإن كان في هذا الغزل من تجديد فهو نادر، سأتحدث عنه في فصل لاحق.

---

(١) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٩٧.
(٢) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٦١، و«نفح الطيب..»، ٧: ١٨٤.
(٣) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٠٧ و١٠٨.

المبحث الخامس: المسحة الصوفية في شعره

نشأ التصوف في الأندلس، كما نشأ في المشرق، في القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي)، واستمر بين ضعف وازدهار، ولكنه لم ينقطع أبداً، إذ لم يكن عصر من العصور الأندلسية يخلو من التصوف(١).

وفي مملكة غرناطة ذاتها كان التصوف منتشراً بين الخاصة والعامة. وكان فيها كثير من الفرق الصوفية. وقد عرفنا أن ابن زمرك قد انضوى إلى بعضها، إلّا أنه لم يتأثر كثيراً بما تنطوي عليه طرائقها من تعاليم. ولهذا السبب لا نرى في نتاج ابن زمرك شعراً صوفياً. ولكننا نجد فيه مسحة صوفية تتمثل في هائيته التي يذكر فيها الله ويمجده، وفي مولدياته التي يثني فيها على الرسول، وفي تأثره بالآيات القرآنية، وفي تركيزه على وصف جهاد الغني بالله. ولئن كان الجهاد لا يشكل إلّا لوناً باهتاً من ألوان التصوف الزاهية، فقد كان له في القرن الهجري الثامن (الرابع عشر الميلادي) أهمية كبيرة لدى المتصوفة. إذ كان للحركة الصوفية في غرناطة دوران أساسيان هما الإرفاق والجهاد(٢). ولما كانت أهم الحركات الجهادية قد حصلت في عهد الغني بالله إذ بلغت غزواته ذورتها في الفترة ما بين عام ٧٦٧هـ وعام ٧٧١هـ (١٣٦٦ ـ ١٣٧٠م)، فقد برز الجهاد كغرض فني في تلك الفترة، وأصبح لزاماً على شعراء البلاط، ومنهم ابن زمرك، أن يتغنوا بجهاد الغني بالله في مدائحهم.

فأما مديحه النبوي ووصفه الجهادي فقد سبق الكلام عليهما(٣). وأما قصيدته الهائية فهي قصيدة عيدية لم تورد المصادر منها سوى ثلاثة وخمسين

---

(١) أمين، أحمد: «ظهر الإسلام»، ٣: ٨٠ و ٨١.

(٢) يراجع البحث القيم: «مفهوم الجهاد والاتحاد في الأدب الأندلسي» لمحمد مفتاح»، عالم الفكر، العدد الأول من المجلد ١٢، ص ١٧١ ـ ٢٠٠. يقصد بالارفاق: الايثار.

(٣) في ص ١٣٢ و١٤٤ من هذا الكتاب.

بيتاً، يهنىء فيها ابن زمرك سلطانه الغني بالله ويمدحه. وقد استهلها بمطلع طويل[١] توجه فيه الشاعر إلى الله، سبحانه وتعالى، فتحدث عن عظمته وجلاله ونوره الذي أضاء الكون وإيجاده الأشياء من عـدم، وذكر نعمـه وعطاياه التي لا تعد ولا تحصى ثم سأله اللطف به والإحسان إليه والعفو عنه:

مَا أَقْبَحَ العَبْدَ أَنْ يَنْسَى وَتَذْكُرُهُ ... وَأَنْتَ بِاللُّطْفِ وَالإِحْسَانِ تَـرْعَاهُ
غُفْرَانَكَ اللَّهُ مِنْ جَهْلٍ بُلِيتُ بِهِ ... فَمَنْ أَفَادَ وُجُودِي كَيْفَ أَنْسَاهُ[٢]

ثم انطلق، بعد هذا، إلى مدح رسول الله، ﷺ، في عشرة أبيات ختمها بالصلاة عليه:

صَلَّى عَلَيْـكَ إِلَهٌ أَنْتَ صَفْـوَتُـهُ ... مَا طُيِّبَتْ بِلَذِيذِ الذِّكْرِ أَفْـوَاهُ[٣]

ثم انتقل بعد ذلك إلى مدح الغني بالله في سائر أبيات القصيدة.

وأما تأثره بالقرآن الكريم فواضح في شعره. ونحن نعلم أن ابن زمرك كان يحفظ كثيراً من الآيات القرآنية في الوقت الذي لم يكن فيه يتجـاوز السابعة من عمره[٤]. وقد ذكر في شعره أسماء بعض السور كسورة الأنعام[٥] وسورة الناس[٦] وسورة العاديات[٧]، كما اقتبس من معاني القرآن الشيء

---

(١) بلغ ستة وعشرين بيتاً.
(٢) المقّـري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٩٤ و«نفح الطيب..»، ٥: ١٧١.
(٣) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٩٤ و«نفح الطيب..»، ٥: ١٧٢.
(٤) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٥: ٣٤٠ و٣٤١.
(٥) هي السورة السادسة في القرآن. (يراجع المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٤٢ و«نفح الطيب..»، ٧: ٢٣١).
(٦) هي السـورة ١١٤. (يراجع المقّري: «أزهـار الريـاض..»، ٢: ١٣٣ و١٥٩ و«نفح الطيب..»، ٧: ٢٢٥ و٢٣٨).
(٧) هي السورة ١٠٠. (يراجع المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١١٩ و«نفح الطيب..»، ٧: ٢١٣).

الكثير وأدخله في شعره. ويكفي، هنا، أن أذكر أبرز الأبيات التي ظهر فيها التأثر بالقرآن واضحاً.

قال ابن زمرك:

نَاشَدْتُكُمْ عَهْـدَ المَودَّةِ بَيْنَنَـا وَالعَهْدُ فِينَا لَمْ يَزَلْ مَسْؤُولاَ[١]

وأخذ معنى العجز من الآية الكريمة: «وَأَوْفُوا بِالعَهْدِ إِنَّ العَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاَ»[٢]. وقـال:

وَأَتَيْتَ بِالذِّكْـرِ الحَكِيمِ مُبَيِّناً قَـدْ فُصِّلَتْ آيَاتُـه تَفْصِيلاَ[٣]

وأخذ هذا من الآية الكريمة: «كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ»[٤]. وقـال:

أَنْتَ الـمُشَفَّعُ وَالأَبْصَارُ شَاخِصَةٌ أَنْتَ الغِيَاثُ وَهَوْلُ الخَطْبِ قَدْ فَدَحَا[٥]

وأخذ معنى الصدر من الآية الكريمة: «إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ»[٦].

وأخذ معنى العجز التالي:

بَحْرُ الوُجُودِ وَفُلْكُ الكَوْنِ جَارِيَةٌ وَبِاسْمِكَ اللَّهُ مَجْرَاهُ وَمُرْسَاهُ[٧]

من الآية الكريمة: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾[٨].

(١) المقّري. «أزهار الرياض..»، ٢: ٩٨.
(٢) «الإسراء» ١٧/٣٤.
(٣) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٩٩.
(٤) «فصّلت» ٤١/٣.
(٥) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٥٥.
(٦) «إبراهيم» ١٤/٤٢.
(٧) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٩٣ و«نفح الطيب..»، ٥: ١٧١.
(٨) «هود» ١١/٤١.

وقــال:

وَكُلُّهَــا نِعَمٌ لِلْخَلْقِ شَــامِلَةٌ تَبَارَكَ اللَّهُ لاَ تُحْصَى عَطَايَاهُ[١]

وهو مأخوذ من: ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوْا نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا ﴾[٢].

وصدر بيتـه القـائل:

يَا فَاتِقَ الرَّتْقِ مِنْ هٰذَا الوُجُودِ كَمَا فِي سَابِقِ العِلْمِ قَدْ خُطَّتْ قَضَايَاهُ[١]

مأخوذ من الآية الكريمـة: ﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الَّـذِيْنَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمٰـوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا.. ﴾[٣].

وقــال:

أَفِيضُوا عَلَيْنَا وَانْظُرُونَا بِفَضْلِكُمْ لِنَقْبِسَ نُوراً لاَ يَخِيبُ وَلاَ يَخْبُو[٤]

وهو مأخوذ من الآيتين الكريمتين: ﴿ أُنْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ ﴾[٥] ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ المَاءِ ﴾[٦].

وقـولــه:

وَلِلَّهِ فِيهِ لَيْلَةُ القَدْرِ قَدْ غَدَتْ عَلَى أَلْفِ شَهْرٍ فِي الثَّوَابِ تُقَدَّمُ[٧]

مأخوذ من: ﴿ لَيْلَةُ القَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾[٨].

(١) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٩٤.
(٢) «إبراهيم» ١٤/٣٤. و «النحل» ١٦/١٨.
(٣) «الأنبياء» ٢١/٣٠.
(٤) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٧٤.
(٥) «الحديد» ٥٧/١٣.
(٦) «الأعراف» ٧/٥٠.
(٧) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٤٨.
(٨) «القدر» ٩٧/٣.

وقولـه فـي العجز:

فَافْسَحْ لَهَا أَكْنَافَ صَفْحِكَ إِنَّهَا بِكْرٌ أَتَتْ تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءِ(١)

مأخوذ من: ﴿ فَجَاءَتْ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ ﴾(٢).

وقــولـه:

أَرَادَ اسْتِرَاقَ السَّمْعِ وَهْوَ مُمَنَّعٌ وَأَصْغَى لِأَخْبَارِ السَّمَا يَتَسَمَّعُ
فَـأَتْبَعَـهُ مِنْهَـا ذَوَابِـلُ شُـرَّعُ ....(٣)

مأخوذ من: ﴿ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ ﴾(٤).

وصـدر بيته القائل:

نُـورٌ عَلَى نُورٍ بِـأَبْهَى مَنْـظَرٍ فِي حُسْنِهِ لِمُؤَمِّلٍ مَا يَأْمُلُ(٥)

مأخوذ من: ﴿ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾(٦).

وفـي بيتـه القـائـل:

ثَلَاثَتُهَا فِي الذِّكْرِ جَاءَتْ مُبِيْنَةً مِنَ اللَّاءِ سَمَّاهَا لَنَا اللَّهُ زِينَةً(٧)

إشـارة إلى الآية الكـريمـة: ﴿ وَالْخَيْـلَ وَالْبِغَـالَ وَالْحَمِـيرَ لِتَـرْكَبُـوهَـا وَزِيْنَةً ﴾(٨).

(١) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٥١ و«نفح الطيب..»، ٧: ١٨٣.
(٢) «القصص» ٢٨/٢٥.
(٣) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٩٠ و«نفح الطيب..»، ٧: ٢٠٤.
(٤) «الحجر» ١٥/١٨.
(٥) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١١٢ و«نفح الطيب..»، ٧: ٢٠٧.
(٦) «النور» ٢٤/٣٥.
(٧) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٩١ و«نفح الطيب..»، ٧: ٢٠٥.
(٨) «النحل» ١٦/٨.

وقــال:

يَتْلُو عَلَيْكَ الدَّهْرُ فِي كُلِّ عَامْ «نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيْبْ»[١]

يَتْلُوَ عَلَيْكَ الدَّهْرُ بَعْدَ السَّلَامْ «نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيْبْ»[٢]

وَيَكْتُبُ الفَالُ عَلَى كُلِّ بَابْ «نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيْبْ»[٣]

والعجز المكرر في الأبيات الثلاثة هو آية كريمة: ﴿ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾[٤].

وقـوله فـي الصـدر:

مَنْ تَحْسُدُ السَّبْعُ الطِّبَاقُ عَلاَءَهُ عَالَوْا عَلَيْهِ مِنَ الثَّرى بِطِبَاقِ[٥]

مأخوذ من: ﴿ أَلَمْ تَرَواْ كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ طِبَاقاً ﴾[٦].

وفـي بيتـه القائـل:

أَثْنى عَلَيْكَ كِتَابُ اللَّهِ مُمْتَدِحاً فَأَيْنَ يَبْلُغُ فِي عَلْيَاكَ مَنْ مَدَحَا[٧]

إشارة إلى الآية الكريمة: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيْمٍ ﴾[٨].

وفـي بيتـه:

وَأَكْـرِمْ بِآيَـاتٍ تَحَدَّيْتَنَـا بِهَـا وَلاَ مِثْلَ آياتٍ لِمُحْكَمِ فُرْقَانِ[٩]

---

(١) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٩٨ و«نفح الطيب..»، ٧: ٢٦٠.
(٢) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٢٠٣ و«نفح الطيب..»، ٧: ٢٦٤.
(٣) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٢٠٤ و«نفح الطيب..»، ٧: ٢٦٥.
(٤) «الصف» ٦١/١٣.
(٥) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٦٠ و«نفح الطيب..»، ٥: ١٩٥.
(٦) «نوح» ٧١/١٥.
(٧) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٥٤.
(٨) «القلم» ٦٨/٤.
(٩) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٤٥ و«نفح الطيب..»، ٥: ٤٩.

إشارة أيضاً إلى الآيات البيِّنات:

﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ ﴾[1].

﴿ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾[2].

﴿ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ ﴾[3].

(١) «البقرة» ٢/٢٣.
(٢) «يونس» ١٠/٣٨.
(٣) «هود» ١١/١٣.

الفَصل الثالث

فنيته

فنية الشاعر هي الطريقةالتي يعبر بوساطتها عن مشاعره، بل هي الكيفية التي يظهر فيها أحاسيسه ومشاعره إلى الوجود. وهذه الكيفية تتجسد تجسداً حياً في لغة الشاعر. وقد ترتبط هذه الفنية بفنية شعراء سابقين له، ممهدين لنموذج فني صادف من نفسه قبولاً، ولاقى استحساناً، فسار فيه إلى أبعد مدى. وقد يكون قَبِلَه بكل حسناته وسيئاته، وقد يكون فيه عالة على أساتذة له سبقوه، كان قد رأى فيهم المثال الذي يحتذى.

ولقد ورد في «نفح الطيب..»، على لسان ابن الخطيب قوله: «وشعره (أي شعر ابن زمرك) مترام إلى هدف الإجادة، خفاجي النـزعة، كلف بالمعاني البديعة والألفاظ الصقيلة، غزير المادة»[1]. فابن الخطيب يؤكد، إذاً، على أن ابن زمرك كان خفاجي النزعة. وقد أخذ غرسيا ـ غومس هذا التعبير فصاغه بشكل آخر حين قال في كتابه «الشعر الأندلسي»: «ولقد كان ابن زمرك آخر وتر رجع أنغام ابن خفاجة، وأشبهه كذلك في أن ديوان أشعاره نشر في آنق ثوب وأفخره: لقد زينت جدران الحمراء بأشعاره ونقشت أبياته فيها حول الكوى وعلى أحواض النوافير»[2].

---

(١) المقّري: «نفح الطيب..»، ٧: ١٤٧ و٦: ٧٥.

(٢) «الشعر الأندلسي»، ص ٧٢.

وليؤكد غرسيا ـ غومس على هذا التشابه، لجأ في كتابه «مع شعراء الأندلس..» إلى الموازنة بين طرديتين: إحداهما لابن خفاجة والثانية لابن زمرك. والذي يقرأ هذه الموازنة قد لا يشك في أن ابن زمرك كان يقتدي في نظمه بابن خفاجة، وأن هذا الأخير إنما كان أستاذه الروحي ينهل من مدرسته ومن طريقته ما يشاء!. فقد ذكر غرسيا ـ غومس أن الموازنة بين الشاعرين ذات طرافة بالغة، «وهي تكشف لنا عن حقائق جوهرية لأنها تدعم الاتهام الذي رمى به في وجه ابن زمرك معاصروه، وتؤكد في نفس الوقت التأثير الهائل للشعر الرائع ذي الاتجاه المجدد المحافظ الذي عرفته الأندلس على امتداد القرن الحادي عشر الميلادي والنصف الأول من القرن التالي. وكان ابن خفاجة واحداً من خيرة ممثليه، وتأثيره ليس واضحاً جلياً في شعر ابن زمرك وحده وإنما أثر بالتالي أيضاً وتبعاً، في شعر أستاذه لسان الدين بن الخطيب..»(١).

والواقع أنه إذا كان هناك من تشابه بين الطرديتين من حيث الوزن (الكامل) والروى (الراء) وبعض كلمات القافية فإن هذا النوع من التشابه لا يعد تأثراً بمذهب ولا تقليداً لفنية، لأننا لو فعلنا هذا لاستطعنا أن نعد كل قصيدة على بحر الكامل وروى الراء مشابهة لقصيدة ابن خفاجة، وهذا لا يقبله منطق! ذلك أن عناصر التشابه المذكورة ليست رئيسة ولا أساسية، فهناك الصياغة والألفاظ المختارة والوجوه البلاغية والأخيلة والموسيقى... وكلها عناصر تختلف باختلاف الشاعر واختلاف الغرض على الرغم من توافق البحر والروى. وقد ذكر غرسيا ـ غومس نفسه، في الصفحة نفسها التي تحدث فيها عن التشابه، أن موسيقى ابن خفاجة أبلغ رقة، وهذا صحيح، ولكنه لم يتحدث عن سائر العناصر.

ويستطيع دارس الطرديتين أن يجد بينهما فروقاً كثيرة تجعل وجوه

(١) «مع شعراء الأندلس..»، ص ٢٢٠ و٢٢١.

الاختلاف بينهما أظهر من وجوه الاتفاق. وعلى فرض أن هذا غير صحيح فإن هناك رداً آخر، في هـذه القضية، نستـطيع استخـلاصه، حتى من قـول غرسيا ـ غومس نفسه. ألم يقل أن الاتجاه المجدد المحافظ في الشعـر ترك بصمـاته واضحـة في شعر الأنـدلس، وأن شعر ابن خفـاجة يحمـل هذه البصمات؟ أليس ابن خفاجة، إذاً، هو المقلد وهو المقتبس وهو المتأثر؟ لماذا لا يكون ابن زمرك قد تأثر، بدوره، بذلك الاتجاه الشعري مباشرة فاقتبس منه وقلده؟!.

ألم يعترف ابن خفاجة في مقدمة ديوانه أنه قد جنح إلى الأدب يرتاده فتصفح «مثل شعر الرضي ومهيار الديلمي وعبد المحسن الصوري، وما حذا حذوه وأخذ مأخذه، حتى تملكني من تلك المحاسن ما يناسب برد الشباب رقة وبرد الشراب ريقة. فما كان إلّا أن ملت إليه وأقبلت عليه أروقه وأرويه وأحاول التشبه بواحد واحد فيه»[(١)].

وأنا لا أقصد من هذه المقدمة أن أقرر أن ابن زمرك لم يقلد ابن خفاجة، بل أقصد أن أقول: إن مجرد التشابه الطفيف بين قصيدتين لشاعرين مختلفين زمناً وظروفاً، لا يسمى، بالضرورة، تقليداً. وأنا لا أشك الآن، بعد قراءتي المتأنية لشعر ابن زمرك ولديوان ابن خفاجة أن الأول قد تأثر بالثاني، وخاصة في مجال الطبيعة، ولكني أستطيع أن أؤكد أن هذا التأثر ضئيل، وأن شاعرنا لم يتأثر بابن خفاجة وحسب، إنما تأثر في البدء بأساتذته وعلى رأسهم لسان الدين نفسه، كما تأثر، في خـلال دراسته لكتب المشـارقة ودواوين شعرائهم، بطائفة من هؤلاء الشعراء أمثال أبي تمام والبحتري وابن الرومي والمتنبي وأبي العلاء...[(٢)]. كل هؤلاء نستطيع أن نجد شيئاً من خصائصهم في شعر ابن زمرك، بل لعلنا نجد فيه شيئاً من خصائص الشعر الجاهلي.

---

(١) «ديوان ابن خفاجة، تحقيق السيد مصطفى غازي، منشأة المعارف، ١٩٦٠م، ص ٦.

(٢) تراجع الصفحات ٢١٦ و ٢١٩ من هذا الكتاب.

فليس غريباً، بعد هذا، أن يتأثر بابن خفاجة، جنان الأندلس الذي استطاع أن يؤسس مدرسة أدبية يمكن أن تسمى بالمدرسة الخفاجية في وصف الطبيعة. فالنزعة الخفاجية أسلوب قائم بذاته، ومذهب شعري متفرد له خصائصه وطريقته ونظامه، من حيث السهولة والسلاسة والعذوبة، وانتقاء الألفاظ وتخيرها، ومن حيث رهافة الحس وسرعة التأثر. ولقد شاع ديوان ابن خفاجة في عصره، وتنافسوا في روايته، ثم إن نفراً من الشعراء الأندلسيين تتلمذوا على مدرسته وحبذوا طريقته وتأثروا بمذهبه حتى صار من المألوف أن يوصف بعضهم بأنه خفاجي النزعة. ومن هنا كان قول ابن الخطيب في وصف نزعة ابن زمرك بالخفاجية.

على أن شاعرنا لم يستطع أن يبلغ بشعره مبلغ شعر من تأثر بهم، ولا أن يشأى شأوهم، على الرغم من كونه آخر كبار شعراء الأندلس. ثم إن تأثره بمن ذكرت لم يمنع أن تكون له طريقته الخاصة وأسلوبه الخاص. ولقد كان تأثر ابن زمرك بلسان الدين واضحاً في مبتدأ نظمه، الأمر الذي دعا علياً بن لسان الدين إلى الزعم بأن أباه لسان الدين كان ينظم لابن زمرك مدائحه، وبخاصة مطالعها التشبيبية. ولا أريد أن أقف عند تأكيد غومس قول علي هذا وتصديقه إياه[1]، فهو حر في أن يصدق ما يشاء. ولكنني أنفي هذا القول كما نفيت، في السابق، أقوال علي المتعلقة بأخلاق ابن زمرك، وذلك لسببين قويين ذكرت أحدهما، سابقاً، وهو أن علياً كان يكتب بسواد الحقد لا بسواد المداد، أما السبب الثاني فهو قول صادر عن المقّري جاء فيه:

«أما ما ذكره ابن لسان الدين بن الخطيب من أن أباه كان ينظم لابن زمرك فذلك ـ **والله أعلم** ـ كان في ابتداء أمره، وإلّا فقد جاء ابن زمرك في آخر أيام لسان الدين وبعد موته بالبدائع التي لا تنكر كما سنذكر»[2].

---

(١) «مع شعراء الأندلس..»، ص ٢١٩ و ٢٢٠.

(٢) المقّري: «نفح الطيب..»، ٧: ١٦٢.

وإذا كانت الجملة الأخيرة صحيحة بدليل أن أكثر قصائده وأفضلها منظوم بعد موت ابن الخطيب كما سنرى، فإن الجملة الأولى بما تحمله من ظن تستلزم التدقيق والمناقشة. فالقضية، في الحقيقة، لا تتعـدى تتلمذ شـاعر مبتدىء على أستاذه الماهر. فلا شيء يمنع من أن ينسج ابن زمرك في مبتدأ نظمه على منوال أستاذه وأن يترسم خطاه، ولا شيء يمنع، كذلك، من أن يعرض التلميذ على أستاذه شيئاً من شعره فيبدي الأستاذ رأيه الصريح فيه ويتعهده بالتنقيح والتهذيب والإصلاح، ويوجه تلميذه الوجهة الصحيحة، ويأخذ بيده في معارج الشعر البديع.. وبهذا المعنى، فقط، يمكن أن نربط بين الجملتين الواردتين في ما ساقه المقّري من قول. مع الاعتراف بأن شعر لسان الدين ابن الخطيب يتفوق في كثير من أغراضه على شعر صاحبنا.

هذه المقدمة الممهدة للبحث في فنية ابن زمرك، عالجت فيها ناحية مهمة من مناحي القول، عنيت بها تأثر الشاعر بفنية من سبقه. وسأتابع الكلام على فنيته بالحديث عن أسلوبه في النظم وسأقف عند العنصر الفني في شعره.

ودراسة هذا العنصر تعني دراسة ألفاظ الشاعر وتراكيبـه والمحسنات البلاغية التي ضمَّنها قصائده. على أن لي، قبل ذلك، وقفة قصيرة عنـد البحور التي اختارها الشاعر وعند الروى الأكثر استعمالاً في قصائده. ذلك بأن على الشاعر أن يختار البحر المناسب للغرض المناسب. فالطويل بحر خضم يستوعب ما لا يستـوعبه غيـره من المعاني ويصلح للمـدح والفخر والحماسة، ويتسع «للتشابيه والاستعارات وسرد الحوادث وتـدوين الأخبار ووصف الأحوال»[1]. ولهذا نظم المتقدمون أكثر قصائدهم على هذا البحر. والبسيط يقرب من الطويل ولكنه أرق منه وأجزل، وهو لا يتسع لاستيعاب

(١) البستاني، سليمان: مقدمة تعريب «الياذة هوميروس»، دار إحياء التراث العربي، جزءان، ١ : ٩١.

المعاني الكثيرة المختلفة اتّساع الطويل لها. «ولهذا قلَّ في شعر أبناء الجاهلية وكثر في شعر المولدين»[١]. أما الكامل فهو أتم الأبحر، يصلح لكل أغراض الشعر! ولهذا «كان كثيراً في كلام المتقدمين والمتأخرين وهو أجود في الخبر منه في الإنشاء وأقرب إلى الشدة منه إلى الرقة»[٢].

فإذا راجعنا، بعد هذا، الجدول الثاني[٣]، وجدنا أن أكثر قصائد ابن زمرك إنما هو منظوم على الطويل[٤] والكامل[٥] والبسيط[٦]، وأن القسم الأقل من شعره[٧] منظوم على الرمل[٨] والخفيف[٩] والرجز[١٠] والمجتث[١١] والوافر[١٢] والسريع[١٣] والمتقارب[١٤]. ولا يجد الباحث، في شعر ابن زمرك، أثراً لبحور المديد والهزج والمنسرح والمضارع والخبب والمقتضب!.

وحاصل هذا كله، أن ابن زمرك لم يخرج في اختياره بحور قصائده عما سار عليه الشعراء المتقدمون، وأنه لجأ إلى النظم على بحور الطويل والكامل والبسيط، لأنها تلائم غرض المدح كل الملاءمة. هذا الغرض الذي نظم فيه ابن زمرك أكثر أبياته. ولعله يصبح مستحسناً، بعد الحديث عن نزعة ابن

(١) البستاني، سليمان: مقدمة تَعريبَ «الياذة هوميروس»، دار إحياء التراث العربي، جزءان، ١: ٩١.
(٢) البستاني، سليمان: مقدمة تعريب «الياذة هوميروس»، ١: ٩١.
(٣) تراجع الصفحة ٢٤٤ من هذه الدراسة.
(٤) نسبة أبياته ١/٢ ٤٤٪.
(٥) نسبة أبياته ٤٢٪.
(٦) نسبة أبياته ١/٢ ١٠٪.
(٧) أي ما نسبته ٣٪.
(٨) ثمانية عشر بيتاً.
(٩) خمسة عشر بيتاً.
(١٠) أربعة عشر بيتاً.
(١١) اثنا عشر بيتاً.
(١٢) سبعة أبيات.
(١٣) خمسة أبيات.
(١٤) ثلاثة أبيات.

زمرك الخفاجية، أن أذكر، هنا على سبيل المقارنة، النتيجة التي حصلت عليها من استقصائي الأوزان التي نظم عليها ابن خفاجة قصائده. فقد وجدت أن بحر الطويل قد حظيّ لديه بأكبر نسبة من أبياته(١)، ويأتي بعده الكامل(٢) فالمتقارب(٣) فالبسيط(٤). وهذا يفسر مرة أخرى أن بحر الطويل هو أحب بحر لدى الشعراء القدامى والمحدثين. والسبب في هذا يعود، كما قلت، إلى سعته ومدى استيعابه ولين تصرفه وسهولة النظم عليه.

أما الحرف الذي كان أكثر استعمالاً كروّي لدى ابن زمرك فلم يكن الراء كما توهم علي بن لسان الدين الذي انتقد الشاعر لكثرة رائياته... فقد كتب على هامش قصيدة ابن زمرك التي مطلعها: «لولا تألق بارق التذكار...» ما صورته:

«هذا الرجس الشيطان كثيراً ما ينظم في هذا الوزن ويتبع حمارّة هذه الراء حتى لا يتركها جملة»(٥).

وكتب على قوله: «حياك يا دار الهوى من دار...» ما صورته:

«انظر إلى كثرة تحريكه لحمارّة هذه الراء، علقت له بها مالخوليا»(٥).

ويتضح من الجدول الثالث(٦) أن اللام هي الحرف الأكثر استعمالاً كروي من قبل ابن زمرك(٧)، ثم يأتي بعده روي الراء(٨).

---

(١) بلغت هذه النسبة ١/٢ ٤١٪.
(٢) نسبة أبياته ٣٠٪.
(٣) نسبة أبياته ١/٢ ٨٪.
(٤) نسبة أبياته ١/٢ ٥٪.
(٥) المقّري: «نفح الطيب..»، ٧: ١٦١.
(٦) تراجع الصفحة ٢٤٥ من هذه الدراسة.
(٧) بلغت نسبة الأبيات اللامية ١/٢ ٢١٪.
(٨) بلغت نسبة الأبيات الرائية ١/٢ ١٨٪. ويلاحظ أن روي الراء المكسورة أتى في ثلاثمائة وتسعة عشر بيتاً أي ما نسبته ١٢٪.

واستتماماً للمقارنة، أذكر أن الأبيات الرائية عند ابن خفاجة قد بلغت ستمائة وثلاثين بيتاً[١]، ويأتي بعدها الأبيات الميمية[٢]، ثم الأبيات اللامية[٣].

وهكذا نرى أن حرف الراء هو الروي الأكثر استعمالاً لدى ابن خفاجة، لا لدى ابن زمرك. على أني لا أرتاب لحظة في أن الراء من أكثر الحروف استعمالاً كروي لدى الشعراء كافة. وهذا شيء بدهي بالنسبة إلى من يعرف أن الكلمات التي تنتهي بالراء هي أكثر الكلمات العربية إطلاقاً.

ولقد قمت بإحصاء بسيط شمل بعض المعاجم اللغوية فتبين لي صحة ما ذكرت[٤] كما قمت بإحصاء آخر شمل فهرست القوافي في كل من كتاب «نفح الطيب..» للمقّري و«زاد المسافر..» لابن ادريس[٥]، فتبين أن الأحرف الأكثر شيوعاً كروي هي: الراء واللام والباء والدال والميم والنون، وتجمعها كلمتا «رمل بند».

وجاء في كتاب «القافية في العروض والأدب» للدكتور حسين نصار أن كلًا من الدكتور إبراهيم أنيس والدكتور علي حلمي موسى قام بدراسة إحصائية لهذا الموضوع، تبين بنتيجتها أن الحروف الأكثر شيوعاً كروى هي: الراء واللام والميم والنون والباء والدال[٦]، وهي الحروف التي ذكرتها آنفاً مع اختلاف جزئي في الترتيب.

---

(١) أي ما نسبته ١٩٪.

(٢) وتبلغ ٥٥١ بيتاً أي ما نسبته ١/٢ ١٦٪.

(٣) وتبلغ ٣٣٨ بيتاً أي ما نسبته ١٠٪.

(٤) الكلمات المنتهية بالراء ملأت ٩٢٥ صفحة من «لسان العرب» أي ما نسبته ١٢٪ من عدد الصفحات الاجمالي، و٢٨٦ صفحة من «الصحاح» أي ما نسبته ١/٢ ١١٪، و١٩٨ صفحة من «القاموس المحيط» أي ما نسبته ١٢٪.

(٥) ابن ادريس التجيبي المرسي: ديوانه الموسوم «زاد المسافر وغرة محيا الأدب السافر»، عدّه وعلق عليه: عبد القادر محداد، دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٨٠م.

(٦) نصار، حسين: «القافية في العروض والأدب»، ص ٥٧ و٥٨.

وغير خافٍ أن للروى دوراً بـارزاً في إضفاء النغم عـلى القصيدة، فالشعر يحسن وقعه على السمع لحسن وقع قافيته، ويسوء وقعه لضعف قافيته وسوء وقع رويه حتى ولو كان يتضمن المعاني البليغة والصور الشعرية الرائعة.

وإذا كان بعض القوافي يتضمن حروفاً تتكرر بتكرارها في كل بيت كالتأسيس والدخيل والوصل والخروج، فإن الروى جزء لا يتجزأ من كل قافية، وهو الحرف الوحيد الذي يلازم القوافي كلها جميعاً، لأنه الحرف الذي تنبني عليه القصيدة، وتسمى به، فنقول بائية أبي تمام وسينية البحتري ولامية الطغرائي . . .

وإذا كان لكل بحر صفات تلائم غرضاً من الأغراض الشعرية، بحيث لا يجوز، مثلاً، أن ينظم الرثاء على بحر الخبب، فالأمر كذلك بالنسبة إلى الروى، فلا يحسن استعمال القاف، مثلاً، روياً في قصيدة غزلية لأنه حرف استعلاء يتصف بالشدة ويجود في غرض الحرب والقتال، والدال يصلح للفخر والميم واللام يحسنان في الوصف، والباء يلائم الغزل والنسيب، أما الراء فهو يصلح لكل الأغراض، تماماً كبحر الكامل، لأنه الحرف الوحيد الذي يتصف بصفتين متضادتين هما الاستعلاء والاستيفال وفقاً لشروط معينة. فإذا كان مضموماً أو مفتوحاً كان حرف استعلاء ولاءم مواضيع الجهاد والغزو والفخر والرثاء، وإذا كان مكسوراً صلح للوصف بصورة عامة، وإذا كان ساكناً غير مسبوق بحرف مد كان فيه عسر شديد وربما صلح للهجاء.

على أن هذا التقسيم لا يشكل، بالضرورة، قاعدة مطلقة. إنما يلاحظ على وجه الترجيح، لأن حرف الراء نفسه تتغير نغمته ورنته، لا باختلاف حركته وحسب، بل باختلاف ما قبله، وباختلاف القوافي من مؤسسة وغير مؤسسة، ومردفة وغير مردفة، وباختلاف الأبحر نفسها. والمرشد الأول في هذا الموضوع يظل سليقة الشاعر وسلامة فطرته وحسن ذوقه وجودة اختياره،

إذ كان عليه، بعد تحديد الغرض الذي يريد أن ينظم قصيدته فيه، أن ينتقي له البحر والروي المناسبين.

وبالرجوع إلى الجدول الثالث، يتبين أن ابن زمرك قد تحاشى حروف الألف والثاء والخاء والزاي والشين والصاد والطاء والظاء والغين والواو، فلم يستعمل أياً منها كروي، وأن ما أتى به من أبيات على روي الذال والضاد قليل جداً[١]. وهذا يؤكد حسن اختياره قوافي قصائده كما يؤكد احترامه قارئه.

ولئن كان الروى حرفاً تلزم إعادته، باستمرار، في كل بيت من أبيات القصيدة، فقد التزم ابن زمرك، في بعض أبياته، حروفاً أخرى غير الروي، كررها باستمرار. وهذا ما يسمى في علم العروض بلزوم ما لا يلزم. وهو تقليد سار عليه بعض الشعراء لعل أشهرهم أبو العلاء المعري.

ومن هذه الأبيات ما التزم فيها ابن زمرك تكرار «قوتاً»[٢]:

كَتَبَ الإِلَٰهُ عَلَى العِبَادِ مَحَبَّةً ... لَكَ كَانَ فَرْضُ كِتَابِهَا مَوْقُوتَا
وَأَنَا الَّذِي شَرَّفْتَهُ مِنْ بَيْنِهِمْ ... حَتَّى جَعَلْتَ لَهُ المَحَبَّةَ قُوتَا
مَا زِلْتَ تُتْحِفُهُ بِكُلِّ ذَخِيرَةٍ ... حَتَّى لَقَدْ أَتْحَفْتَهُ اليَاقُوتَا
وَإِلَى المُلُوكِ قَدِ اعْتَزَى مِنْ عِزِّهِ ... فَغَدَا لَهُ يَاقُوتُهَا مَمْقُوتَا[٣]

ومنها ما التزم فيها كلمة «ماليا»[٤]:

يُكَلِّفُنِي مَوْلَايَ رَجْعَ جَوَابِهِ ... وَمَا لِتَعَاطِي المُعْجِزَاتِ وَمَالِيَا
أُحَيِّيكَ لِلْفَضْلِ الذِي أَنْتَ أَهْلُهُ ... وَأكتب مِمَّا قَدْ أَفَدْتُ الأَمَالِيَا

(١) بلغ ثمانية أبيات فقط.
(٢) الروى هو التاء.
(٣) المقري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٢٦ و«نفح الطيب..»، ٧: ٢١٩.
(٤) الروى هو الياء.

فَـأَنْتَ الَّذِي طَـوَّقْتَنِي كُلَّ مِنَّـةٍ وَأَحْسَبْتَ آمَالِي وَأَكْسَبْتَ مَالِيَا[١]

ومنها ما التزم فيها كلمة «سائلا»[٢]:

أَزُورُ بِقَلْبِي مَعْهَدَ الأُنْسِ وَالْهَوَى وَأَنْهَبُ مِنْ أَيْدِي النَّسِيمِ رَسَائِلَا
وَمَهْمَا سَأَلْتُ البَرْقَ يَهْفُو مِنَ الحِمَى يُبَـادِرُهُ دَمْعِي مُجِيباً وَسَـائِـلا
فَيَا لَيْتَ شِعْرِي وَالأَمَانِي تَعَلُّلٌ أَيَرْعَى لِيَ الحَيُّ الكِرَامُ الوَسَائِلَا؟
وَهَلْ جِيرَتِي الأُولَى كَمَا قَدْ عَهِدْتُهُمْ يُوَالُونَ بِالإِحْسَانِ مَنْ جَاءَ سَائِلَا[٣]

وقد ورد في «نفح الطيب..»[٤] أن قارئاً اتّهم شاعرنا بالوقـوع في الايطاء المذموم حين كرر كلمة «سائلا» مرتين، وزعم أن كليهما من السؤال، والحقيقة التي فاتت إدراك ذلك القارىء أن «سائلا» الأولى من سال والثانية من سأل.

أما الجوازات المباحة التي ضمّنها شعره فقد تراوحت بين صرف ما لا ينصرف[٥] ومنع ما ينصرف[٦] وتحريك ساكن[٧] وتسكين متحرك[٨] وعدم تحريك ياء المضارع المنصوب[٩] وعدم تحريك ياء الفعل الماضي[١٠] وتحويل

---

(١) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٦٧ و«نفـح الطيب..»، ٦: ٧٨. وابن الخـطيب: «الكتيبة الكامنة..»، ص ٢٨٨.
(٢) الروى هو اللام.
(٣) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٧٠ و«نفح الطيب..»، ٧: ١٥٨. وابن الخطيب: «الإحاطة..»، ٢: ٢٣٥.
(٤) ٧: ١٦٢.
(٥) في مائة وخمس وعشرين كلمة.
(٦) في كلمتين.
(٧) في اثنتين وعشرين كلمة.
(٨) في ست كلمات.
(٩) في ست كلمات.
(١٠) في كلمتين.

همزة القطع إلى همزة الوصل(١) وقصر الممدود(٢) وتسهيل الهمزة إلى ألف(٣) وإلى ياء(٤) وتبادل حركتين بين حرفين(٥).

وفي ما يتعلق بالتدوير، فهو، وإن جاز أن يكون في كل البحور، يستوطن، عادة، بحر الخفيف. والغريب أننا نجد هذا التدوير في تسعة أبيات زمركية كلها على بحر الكامل!!(٦).

نستخلص من هذا كله، أنّ ابن زمرك لم يكن يحب أن يتقعّر في

(١) في كلمتين.
(٢) في ثماني كلمات.
(٣) في كلمة واحدة.
(٤) في ثلاث كلمات.
(٥) في كلمة واحدة.
(٦) وهذه الأبيات هي:

يَا مُظْهِرَ الحَقِّ الجَلِيِّ وَمُطْلِعَ الـ (م) ـنُـورِ السَنِيِّ السَّاطِـعِ الأَضْـوَاءِ
(«المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٤٩ و«نفح الطيب..»، ٧: ١٨١).
حَلَّيْتَـهُ بِحُلَى الكَمَالِ وَجَـوْهَرِ الـ (م) خُلُقِ النَّفِيسِ وَكُـلُّ خَلْقٍ يَجْمُـلُ
(المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١١٦ و«نفح الطيب..»، ٧: ٢١١).
هَذَا وَوَجْدِي مِثْلُ وَجْدِي عِنْدَمَا اسْـ (م) تَشْعَرْتُ مِنْ رَكْبِ الحِجَازِ رَحِيـلاَ
(المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٩٧).
أَثْنَى عَلَيْـكَ بِكُتْبِهِ مَنْ أَنْـزَلَ الْـ (م) قُـرْآنَ والـتَّـوْرَاةَ والإنْـجِـيـلاَ
(المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٩٩).
حَيْثُ الـوُجُـوهُ صَبِيحَةٌ وَالْمَكْرُمَـا (م) تُ صَـرِيحَةٌ وَالعِـزُّ غَيْـرُ مُـزَالِ
قَدْ عَوَّدُوا النَّصرَ العَزِيزَ وَخُوِّلُوا الْـ (م) فَتْـحَ الْمُبِيـنَ بِمُـلْتَقَـى الأَبْـطَالِ
(المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٠٩).
هُوَ مُظْهِرُ المُلْكِ العَلِيِّ وَمُطْلِعُ الـ (م) نُـورِ الـجَلِيِّ بِـمَـرْقَبٍ مُـتَـعَـالِ
(المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١١٠).
يَا ابْنَ الإِمَامِ ابْنِ الإِمَامِ ابْنِ الإِمَا (م) مِ ابْنِ الإِمَـامِ وَقَدْرُهَـا لاَ يُجْهَلُ
(المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١١٥) و«نفح الطيب..»، ٧: ٢٠٩).
أَنْتَ الإِمَـامُ ابْنُ الإِمَامِ ابْنِ الإِمَـا (م) مِ ابْنِ الإِمَـامِ وَفَخْرُهَـا لاَ يُعْدَلُ
(المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٢١ و«نفح الطيب..»، ٧: ٢١٥).

كلامه، إنما يحبّ القوافي السهلة التي لا يضطر معها إلى الاستنجاد بمعاجم اللغة. وهذا لا يطعن في الشاعر أبداً. إنه، على العكس تماماً، دليل على حسن اختياره ألفاظه وعلى الابتعـاد عن المفردات الغـريبة التي تستـوجب التنقيب في بطون القواميس.

وعلى ذكر الألفاظ أقول: كلنا يعرف أن اللفظ مادة الكلام، ففيـه تتجسد المعاني والأفكار والأخيلة، وبه يستطيع الشاعر بلورة ما يعتمل في نفسه من عواطف ومشاعر. وقد وضع القدامى مقاييس لنقد الألفاظ فتحدثوا عن دقة اللفظ وسهولته وعذوبته، وفرقوا بين مأنوسه وغريبه، وتطرقوا إلى الحديث عن جرسه وإيقاعه، وتكلموا عـلى ملاءمتـه للمعنى وإيحائـه به، وضربوا الأمثلة اللازمة للتدليل على كل ما ذهبوا إليه من آراء وأقوال.

ولو أردنا أن نطبق هذه المقاييس على ألفاظ ابن زمرك في أدبه، لوجدنا أن الصفتين الغالبتين عليها هما السهولة والدقة. فقد وفق، في أكثر الأحيان، إلى استعمال ألفاظ سهلة تعبر تمام التعبير عن المعنى المطلوب، وهي بعيدة كل البعد عن الغرابة والابتذال. ولا نستغرب هذا إذا عرفنا أن الشاطبي(١)، زميل الشاعر، قد ذكر في كتابه «الإنشادات والإفادات» ما صورته:

«إفادة: أفادني صاحبنا الفقيه الكاتب أبو عبد الله بن زمرك إثر إيابه إلى وطنه من رحلة العدوة، في علم البيان فوائد أذكر منها ثلاثاً: الفقه في اللغة، وهو النظر في مواقع الألفاظ وأين استعملتها العرب، ومن مثل هذا الوجه «قرم» و«عام» إذا اشتهى، لكن لا يستعمـل «قرم» إلاّ مـع اللحم ولا يستعمل «عام» إلاّ مع اللبن، فتقول عمت إلى اللبن، وكذلك قولهم أصفر فاقع وأحمر قان، ولا يقال بالعكس، وهذا كثير، والثانية تحري الألفاظ البعيدة عن طرفي الغرابة والابتذال، فلا يستدل بالحوشي من اللغات، ولا

(١) سبق التعريف به في الصفحة ٦٧ من هذه الدراسة.

المبتذل في ألسن العامة. والثالثة اجتناب كل صيغة تخرج الذهن عن أصل المعنى أو تشوش عليه، إذ المقصود الوصول في بيان المعنى إلى أقصاه، والإتيان بما يحصله سريعاً ويمكنه في الذهن، وتحري كل صيغة تمكّن المعنى وتحرّض السامع على الاستماع. . .»[١].

وقد اتبع ابن زمرك، غالباً، هذه القواعد في ما نظم. فاسمعه وهو يصف زرافة:

تَـاهَتْ بِكَلْكَلِهَـا وَأَتْلَعَ جِيـدُهَـا وَمَشَى بِهَا الإِعْجَابُ مَشْيَ وَقَارِ[٢]

وأتلع جيدها يعني امتد عنقها وطال. ولما كان عنق الزرافة طويلاً فلا يمكن الباحث، مهما نقب وفتش، أن يجد كلمة تعبر عن المعنى المقصود سوى هذا الفعل: أتلع.

وأضع مثلاً آخر على دقة ألفاظه: كلمة «استدرج» في قوله من عيدية لامية:

وَاللَّهُ جَلَّ جَلاَلُهُ إِنْ أَمْهَلَتْ أَحْكَامُهُ مُسْتَدْرِجاً لاَ تُهْمِلُ[٣]

و «مستدرجاً»، هنا، قد تظهر لأول وهلة، وكأنما قد جيء بها لتكملة الوزن، إلّا أنها، في الحقيقة، حال مؤسسة مبينـة، تفسر كيفيـة الإمهال والمقصد منه. فالله، سبحانه وتعالى، إذا أراد أن يستدرج عبده جدد له نعمة كلما جدد خطيئة وأنساه الاستغفار ثم أخذه قليلاً قليلاً ولم يباغته. وقد ورد هذا الفعل في القرآن مرتين: في الآية ﴿ وَالَّذِيْنَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُـوْنَ ﴾[٤] وفي الآية: ﴿ فَـذَرْنِيْ وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهـٰذَا الحَـدِيْثِ

(١) المقّري: «نفح الطيب..» ٧: ٢٧٩.
(٢) نفسه، ٧: ١٥٣.
(٣) المقّري: «نفح الطيب..»، ٧: ٢٠٨.
(٤) «الأعراف» ١٨٢/٧.

سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[١]. ولو أراد أي بليغ أن يعبر، بدقة، عن هذا المعنى، بحيث يبرزه دون أن يزيد فيه أو يقصر عنه، لما استطاع أن يأتي بسوى هذه اللفظة، ذلك بأن المعنى الواحد الدقيق لا يمكن، في رأيي، أن يعبر عنه إلّا بألفاظ بعينها دون سواها.

فإذا وجدنا ألفاظاً ما لا تعبر عن المعنى المطلوب المفهوم من السياق، فإن الخطأ يكون خطأ الأديب الذي خانه اللفظ الملائم فاستبدل به لفظاً غير نازل منزلته. واختيار الألفاظ الدقيقة المصاقبة للمعنى يعد من الفصاحة. وليس كل من كتب أو تحدث فصيحاً بالضرورة.

ولقد وقعت في شعر صاحبنا على لفظتين بعيدتين من الفصاحة لتنافر الحروف فيهما وثقل محملهما على اللسان مما يستدعي صعوبة النطق بهما لتقارب المخارج بين أحرفهما. الأولى لفظة «سجسج»، وقد وردت في البيت الآتي:

كَسَوْهُ مِنَ الْوَشْيِ الْيَمَانِيِّ هَوْدَجَا   يَمُدُّ عَلَى مَا فَوْقَهُ الظِّلَّ سَجْسَجَا[٢]

والثانية لفظة «مستحصف» التي وردت في داليته لابن خلدون:

وَإِنِّي بِبَابِ الْمُلْكِ حَيْثُ عَهِدْتَنِي   مَدِيْدَ ظِلَالِ الجَاهِ مُسْتَحْصَفَ العَقْدِ[٣]

كما وقعت أيضاً على لفظين غريبين يستوجبان فتح المعاجم ليفهم معناهما وهما: «كعّت»[٤] في قوله:

فَإِنْ كَعَّتِ الأَبْطَالُ فِي حَوْمَةِ الوَغَى   يُشِيرُ لَنَا مِنْهُ البَنَانُ المُطَرَّفُ[٥]

---

(١) «القلم» ٦٨/٤٤.

(٢) المقّري: «نفح الطيب..»، ٧: ٢٠٥. والسجسج: الأرض ليست بصلبة ولا سهلة وما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس. (محيط المحيط، ص ٣٩٧).

(٣) ابن خلدون: «العبـر..» ٧: ٤٥٨. واستصحف الشيء: استحكم. (محيط المحيط، ص ١٧٣).

(٤) كعّ: جبن وضعف (محيط المحيط، ص ٧٨٣).

(٥) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٥٢.

و «يتوقل»(١) في قوله:

يَهْنِي المَعَالِيَ وَالمَفَاخِرَ أَنَّهُ ... فِي مُرْتَقَى أَوْجِ العُلَى يَتَوَقَّلُ(٢)

على أن هذا لا يؤثر على حكمنا السابق، فهو استثناء يؤكد القاعدة التي تقول: إن ألفاظ ابن زمرك سهلة مألوفة بعيدة من الغرابة والوحشية، يتسم معظمها بالدقة ويتصف بالعذوبة. ويكفي، للتدليل على هذا، أن أذكر هنا بعض أبياته من غير أن أتعمد اختيارها:

حَيَّاكِ يَا دَارَ الْهَوَى مِنْ دَارِ ... نَوْءُ السِّمَاكِ بِدِيمَةٍ مِدْرَارِ
وَأَعَادَ وَجْهَ رُبَاكِ طَلْقاً مُشْرِقاً ... مُتَضَاحِكاً بِمَبَاسِمِ النُّوَّارِ
أُمُذَكِّرِي دَارَ الصَّبَابَةِ وَالْهَوَى ... حَيْثُ الشَّبَابُ يَرِفُّ غُصْنَ نُضَارِ
عَاطَيْتَنِي عَنْهَا الحَدِيثَ كَأَنَّمَا ... عَاطَيْتَنِي عَنْهَا كُؤُوسَ عُقَارِ
إِيهٍ وَإِنْ أَذْكَيْتَ نَارَ صَبَابَتِي ... وَقَدَحْتَ زَنْدَ الشَّوْقِ بِالتَّذْكَارِ
يَا زَاجِرَ الأَظْعَانِ وَهْيَ مَشُوقَةٌ ... أَشْبَهْتُهَا فِي زَفْرَةٍ وَأُوَارِ
حَنَّتْ إِلَى نَجْدٍ وَلَيْسَتْ دَارَهَا ... وَصَبَتْ إِلَى هِنْدِيِّهِ وَالْغَارِ(٣)

أما تراكيبه فواضحة، لا معاظلة فيها ولا تعقيد، ولا غموض ولا التواء. فهي مصوغة في قوالب تقليدية، إن خلا أكثرها من الطرافة، فهي لم تخلُ من نبض القوة وسهولة الانسياب. اسمعه وهو يمدح الغني بالله:

ظِلُّ الإِلَهِ عَلَى البِلَادِ وَأَهْلِهَا ... فَخْرُ المُلُوكِ السَّادَةِ الخُلَفَاءِ
كَالدَّهْرِ فِي سَطَوَاتِهِ وَسَمَاحِهِ ... تَجْرِي صَبَاهُ بِزَعْزَعٍ وَرُخَاءِ
رَقَّتْ سَجَايَاهُ وَرَاقَتْ مُجْتَلَى ... كَالنَّهْرِ وَسْطَ الرَّوْضَةِ الغَنَّاءِ(٤)

(١) توقّل في الجبل: صعّد. (محيط المحيط، ص ٩٨٢).
(٢) المقّري: «نفح الطيب..»، ٧: ٢١١.
(٣) المقّري: «أزهار الرياض..» ٢: ١٠٣ و«نفح الطيب..»، ٧: ١٥٤. وابن الخطيب: «الإحاطة..»، ٢: ٢٣٠.
(٤) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٤٩ و«نفح الطيب..»، ٧: ١٨٢.

على أن الحديث عن الفنية لا يتم، بالطبع، إلّا بالحديث عن الوجوه البلاغية التي ضمّنها الشاعر قصائده. وذلك للصوقها بالأسلوب الأدبي، ولأنه لا معنى للأدب بدونها. وتجب الإشارة إلى أن هذه المحسنات قد نظمتها علوم ثلاثة هي علم المعاني وعلم البيان وعلم البديع. والـذي لاحظتـه، بعد إحصائي هذه المحسنات في شعر ابن زمرك، أن المحسنات البيانية والبديعية ظاهرة وكثيرة بحيث يجب إيثارهـا بالتبيـين والكشف، فهي تشكـل حجر الزاوية في شعره كله، وسنرى، في فصل لاحق أفردته للحديث عن جا يد الشاعر، أن أكثر هذا الجديد إنما تأتى له من استعمال الوجوه البيانية بصورة خاصة والاستعارة بصورة أخص.

ولا أريد، هنا، أن أحصي، حصراً، كل ما أتى به الشاعر من وجوه بيانية وبديعية، فالمجال لا يتسع، بالتأكيد، إلّا للتمثل ببعض الأبيات التي تتضمن هذه الوجوه.

فمن تشبيهاته، وهي كثيرة، قوله يشبّه الغني بالله بالجبل الراسي:

هُوَ الجَبَلُ الرَّاسِي تَصَدَّعَ بَعْدَمَا أَقَرَّتْ بِهِ شُمُّ الجِبَالِ رَوَاسِيهَا(١)

وبـالمسـك:

وَمَا أَنْتَ إِلَّا الْمِسْكُ إِنْ تَخْفَ ذَاتُهُ يَنِمَّ بِهَا العَرْفُ الذَّكِيُّ فَيُفْشِيهَا(١)

والمجاز لديه قليل، منه لفظ «ذقت» في قوله:

وَقَدْ عِشْتُ حَتَّى ذُقْتُ فَقْدَكَ قَلَّمَا تُبَلَّغُ نَفْسٌ مَـا تُرِيـدُ أَمَانِيهَـا(٢)

ولفظ «الأيادي» في قوله:

---

(١) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٥٥.
(٢) نفسه، ٢: ١٥٦.

وَلَكَ الأَيَادِي البِيضُ قَدْ طَوَّقْتَهَا صِيدَ المُلُوكِ ذَوِي التِّلَادِ الأَقْدَمِ (١)

ومن كناياته الكثيرة قوله:

أَعِنْدَكَ أَنَّ العِلْمَ وَالْحِلْمَ والحِجَى وَزَهْرَ الحِلَى قَدْ أُدْرِجَتْ طَيَّ مَلْحَدِ (٢)

وقـولـه:

وَإِنْ طَوَتِ الْبُرْدَ اليَمَانِي يَدُ البِلَى فَقَدْ نُشِرَ البُرْدُ الجَدِيدُ المُفَوَّفُ (٣)

أما الاستعارة فهي تفوق الوجوه البيانية الأخرى كماً وكيفاً. وقد تجلت، أكثر ما تجلت، في تشخيصه الأشياء وبعثه الحياة والحركة في الجمادات، ومنها قوله:

وَتَبْكِيهِ حَتَّى الشُّهْبُ فِي أُفُقِ العُلَا وَتَلْبَسُ جِلْبَابَ الظَّلَامِ جَوارِيهَا (٤)

وقـولـه:

أُسَـامِرُ نَجْمَ الأُفْقِ حَتَّى كَـأَنَّنَا وَقَدْ سَدَلَ اللَّيْلُ الرِّوَاقَ حَلِيفَانِ (٥)

ومن الوجوه البديعية نجدُ ألواناً كثيرة. أولها الطباق ومنه: «أذكرني وناسياً» في قوله:

وَأَذْكَـرَنِي ثَغْـراً ظَمِئْتُ لِـوِرْدِهِ وَلَا والْهَوَى العُذْرِيِّ مَا كُنْتُ نَاسِيَا (٦)

ومنه: يطع ويعصي، ونصيحاً ولاحيا في قوله:

وَمَنْ يُطِعِ الأَلْحَاظَ فِي شِرْعَةِ الْهَوَى فَلَا بُدَّ أَنْ يَعْصِي نَصِيحاً وَلَاحِيَا (٧)

---

(١) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٦٣ و«نفح الطيب..»، ٧: ١٨٦.
(٢) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٥٣ و«نفح الطيب..»، ٧: ٢٣٥.
(٣) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٤٩.
(٤) نفسه، ٢: ١٥٥.
(٥) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٤٣ و«نفح الطيب..»، ٥: ٤٧.
(٦) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٦٦ و«نفح الطيب..»، ٧: ١٨٩.
(٧) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٦٦ و«نفح الطيب..»، ٧: ١٨٨.

وتأكيد الذم بما يشبه المـدح:

وَلَـدُ الْفَقْـرِ وَالـرِّبَـاطِ وَلكِنْ نَفْسُـهُ لِلسُّلُوكِ ذَاتُ افْتِقَـارِ(١)

وتأكيد المدح بما يشبه الذم في قوله:

وَلَا عَيْبَ فِيـهِ غَيْـرَ أَنَّ بَنـانَـهُ تُغَرِّقُ مُسْتَجْدِيهِ فِي أَبْحُرِ النَّدَى(٢)

وفـي قـولـه:

وَلَا عَيْبَ فِيـهِ غَيْـرَ أَنَّ سِنَـانَـهُ إِذَا شَمَّ رِيحَ النَّقْعِ فِي الْحَرْبِ يَرْعُفُ(٣)

والارصاد في قوله:

أَبْكِي وَيَبْسِمُ وَالْمَحَاسِنُ تُجْتَلَى فَعَلِقْتُ بَيْنَ تَبَسُّمٍ وَبُكَاءِ(٤)

وفـي قـولـه:

وَلَا أَدَرْتُ كُؤُوسَ العَزْمِ مُغْتَبِقاً إِلَّا أَدَرْتُ كُؤُوسَ العِزِّ مُصْطَبِحَا(٥)

والمبالغة، وهي على أقسام ثلاثة: تبليـغ وإغراق وغلو، ولئن كـان التبليغ والإغراق مقبولين فإن الغلو مستكره. فاسمع الشاعر كيف غلا في قوله:

كَتَبْتُ وَدَمْعِي بَلَّلَ الرَّكْبَ قَطْرُهُ وَأَجْرَى بِهِ بَيْنَ الخِيَامِ السَّوَاقِيَا(٦)

فلو أن ديمة مدراراً هطلت ساعات طوالاً لما استطاعت أن تجـري السواقي بين الخيام!!.

(١) المقّري: «نفح الطيب..»، ٧: ١٦٧.
(٢) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٨٣ و«نفح الطيب..»، ٧: ١٩٧.
(٣) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٥١.
(٤) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٤٧ و«نفح الطيب..»، ٧: ١٨٠.
(٥) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٥٢.
(٦) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٣٤ و«نفح الطيب..»، ٧: ٢٢٧.

قال أيضاً وفي قوله غلو واضح:

يَا ابْنَ الَّذِيْنَ إِذَا تُعَدُّ خِلاَلُهُمْ نَفِدَ الحِسَابُ وَأَعْجَزَتْ مِنْهَا الْقَدَرْ[١]

واللف والنشر في قوله:

يَا ابْنَ الَّذِينَ جَمَالُهُمْ وَنَوالُهُمْ شَمْسُ الضُّحَى وَالعَارِضُ الْمُتَهَلِّلُ[٢]

وفي قوله:

طَاوَلْتَ عُلْوِيَّ النُّجُومِ بِهِمَّةٍ لَا فَاقِداً عِزّاً وَلَا مِكْسَالِ[٣]

وقلب الوصف وإبدال الحكم في قوله:

وَالتَّاجُ تَاجُ الْبَدْرِ فِي أُفُقِ العُلاَ مَا زَالَ بِالزُّهْرِ النُّجُومِ يُكَلَّلُ[٤]

والجناس وهو على نوعين: تام وناقص. فمن التام قوله:

سَلِ الأُفْقَ بِالزُّهْرِ الكَوَاكِبِ حَالِيَا فَإِنِّي قَدْ أَوْدَعْتُهُ شَرْحَ حَالِيَا[٥]

ومن الناقص قوله:

إِنَّ الحِجَازَ مَغَانِيهِ بِأَنْدَلُسٍ أَلْفَاظُهَا طَابَقَتْ مِنْهَا مَعَانِيهَا[٦]

---

(١) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٢٤ و«نفح الطيب..»، ٧: ٢١٧.

(٢) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٢١ و«نفح الطيب..»، ٧: ٢١٥.

(٣) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١١٠.
وهذا البيت يحير السامع لأول وهلة، فيظن أن الشاعر أخطأ حين عطف «مكسال» المجرورة على «فاقداً» المنصوبة، حتى إذا دقق النظر فيه قليلاً أدرك أن البيت صحيح وأن فيه وجهاً بديعياً يدعى باللف والنشر، فـ«فاقداً» حال من التاء في طاولت، و«مكسال» صفة لهمة. على أني، بالرغم من هذا، لا أوافق الشاعر على أن يداخل بين الكلام ففي هذا تعمية على القارىء.

(٤) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١١٦ و«نفح الطيب..»، ٧: ٢١٠. والمقصود هنا النجوم الزهر.

(٥) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٦٥ و«نفح الطيب..»، ٧: ١٨٨.

(٦) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٢٢ و«نفح الطيب..»، ٧: ١٧١

والسجع في قـوله:

كَـالزَّهْـرِ فِي إيرَاقِـهِ وَالْبَدْرِ فِي إِشْـرَاقِـهِ وَالـزُّهْـرِ فِي لألاءِ(١)

وفـي قـولـه:

كَـالزَّهْـرِ فِي لألاَئِهِ وَالْبَـدْرِ فِي عَلْيَـائِهِ وَالـزُّهْـرِ فِي الإِبْـرَاقِ(٢)

والترصيـع في قـوله:

غُيُـوثُ سَمَاحٍ وَالْعُفَـاةُ مَسَايِـلُ لُيُـوثُ كِفَاحٍ وَالْكُمَـاةُ تُنَازِلُ(٣)

وفـي قـوله:

أَلَسْتَ الَّذِي تَرْجُو الْعُفَاةُ نَـوَالَهُ فَتُخْجِلُ جَدْوَاهُ السَّحَابَ الغَوَادِيَا
أَلَسْتَ الَّذِي تَخْشَى الْبُغَاةُ صِيَالَهُ فَتُوجِلُ عَلْيَاهُ الصِّعَابَ العَوادِيَا(٤)

وتزاوج الجمل في البيت الواحد، ومنه قوله:

الْبِشْرُ فِي وَجْهِهَا وَالْيُمْنُ فِي يَدِهَا وَالسِّحْرُ فِي لَفْظِهَا وَالدُّرُّ فِي فِيهَا(٥)

وقــوله:

فَلاَ الْحَفْلُ مَرْهُوبٌ وَلاَ الْخَطْوُ قَاصِرٌ وَلاَ السِّرْبُ مُرْتَاعٌ وَلاَ الرَّوْعُ هَائِلُ
وَلاَ الْقَلْبُ مَنْخُوبٌ وَلاَ الْحِلْمُ طَائِشٌ وَلاَ العَقْلُ مَعْقُولٌ وَلاَ الفِكْرُ ذَاهِلُ(٦)

والتضمـين في قولـه:

يُقَيِّدُ طِرْفَ الطَّرْفِ مَهْمَا نَظَرْتَهُ «وَمَنْ وَجَدَ الإِحْسَانَ قَيْداً تَقَيَّدَا»(٧)

(١) المقري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٤٩ و«نفح الطيب..»، ٧: ١٨٢.
(٢) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٦٢ و«نفح الطيب..»، ٥: ١٩٦.
(٣) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٧٥.
(٤) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٦٨ و«نفح الطيب..»، ٧: ١٩٠.
(٥) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٢٧ و«نفح الطيب..»، ٧: ١٧٦.
(٦) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٧٨.
(٧) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٩٢ و«نفح الطيب..»، ٧: ٢٠٥.

=

وفي قوله: «أَنَا مُنْشِدٌ: مَا فِي وُقُوفِكَ سَاعَةً مِنْ بَاسٍ»(١)

والتذييل في قوله، مذيلاً على بيتين لابن المعتز:

«سَقَتْنِي فِي لَيْلٍ شَبِيهٍ بِشَعْرِهَا شَبِيهَــةَ خَــدَّيْهَــا بِغَيْـرِ رَقِيبِ»
«فَأَمْسَيْتُ فِي لَيْلَيْنِ لِلشَّعْرِ وَالدُّجَى وَشَمْسَيْنِ مِنْ خَمْرٍ وَخَدٍّ حَبِيبِ»
إِلَى أَنْ بَـدَا الصُّبْحُ المُبِينُ كَـأَنَّـهُ مُحَيَّا ابْنِ نَصْرٍ لَمْ يُشَنْ بِغُرُوبِ(٢)

وفي قوله، مذيلاً على بيت لابن وكيع:

«هِيَ فِي أَوْجُـهِ النَّـدَامَى عَقِيقٌ وَهْيَ مِثْلُ النُّضَارِ فِي الأَقْدَاحِ»
كَابْنِ نَصْرٍ تَرَاهُ فِي الْحَرْبِ لَيْثاً وَهْوَ بَدْرُ النَّدَى وَغَيْثُ السَّمَاحِ
ذِكْـرُهُ قَـدْ ثَنَى قُـدُودَ النَّـدَامَى وَأَعَــادَ الْحَيَـاةَ فِي الأَرْوَاحِ(٢)

ويلاحظ من هذه الأبيات جميعها، أن الوجوه البيانية والبديعية قـد كست شعر ابن زمرك بهاءً وزادته ألقاً، لما لها من أثر في تحسين الكلام وتزويقه وإضفاء الجمال والرونق عليه. وبهـذا ينماز الأسلوب الأدبي عن الأسلوب العلمي في الكتابة. فالأسلوب العلمي هادىء بعيـد من الخيال والانفعال، يناجي العقل ويشرح الحقائق، لذلك كان الوضوح أظهر ميزاته، وهو يكاد يخلو من المحسنات إلّا ما أتى منها عفو الخاطر أو قصد به تقريب الحقائق إلى الإفهام وتوضيحها كاستعمال التشبيه. بينا نرى الأسلوب الأدبي

= والعجز هنا هو عجز بيت للمتنبي وصدره: «وقَيَّدْتُ نَفْسِي فِي ذُرَاكَ مَحَبَّةً». (ديوان المتنبي، بشرح العكبري، دار المعرفة، ١٣٩٧هـ/١٩٧٨م، ١: ٢٩٢).

(١) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٣٣ و«نفح الطيب..»، ٧: ٢٢٥.
هو صدر بيت لأبي تمام، وعجزه: «تَقْضِيْ ذِمَامَ الأَرْبُعِ الأَدْرَاسِ». (ديوان أبي تمام، بشرح الخطيب التبريزي، تحقيق: محمد عزام، سلسلة ذخائر العرب رقم ٥، دار المعارف بمصر، ٢: ٢٤٢.

(٢) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٤٢ و١٤٣ و«نفح الطيب..»، ٧: ٢٣٢.

يمتاز بما فيه من خيال وتصوير وتلمس لوجوه الشبه البعيدة بين الأشياء وتجسيم وتشخيص. . . ولهذا كان الجمال أبرز صفاته. من هنا كانت الوجوه البيانية والبديعية روح الأدب وجنانه.

ولئن كانت المحسنات البديعية تزيد النص الأدبي حسناً وجمالاً، بشرط أن يلزم فيها الشاعر سجية الطبع فلا يتعمد الإتيان بها تعمداً ولا يستكثر منها، فإن الوجوه البيانية تضفي على النص الصفة الأدبية البحتة، فهي، من جهة، تبرز المعنى الواحد في صور متعددة، الأمر الذي لا تتيحه الدلالة اللغوية أو الوضعية للمفردات، وهي، من جهة أخرى، تكسب مفردات اللغة معاني جديدة.

ففي المجاز يُسقط الشاعر المعنى الحقيقي للفظ ليعطيه معنى آخر جديداً، على أن تكون بينه وبين المعنى الأصلي علاقة معينة، وعلى أن تشتمل الجملة الحاوية ذلك اللفظ المجازي على قرينة تنفي إيراد المعنى الأصلي الحقيقي. فكلمة «الأيادي» في قول ابن زمرك:

وَلَكَ الأَيَادِي الْبِيضُ قَدْ طَوَّقْتَهَا صِيدَ المُلُوكِ ذَوِي التِّلَادِ الأَقْدَمِ (١)

مفردها يد، ولليد في اللغة معنى وضعي يدل على الكف. إلاّ أن الشاعر استعملها في البيت بمعنى النعمة. وحقّ له ذلك لأن بين اليد بمعنى الكف واليد بمعنى النعمة علاقة آلية واضحة، إذ اليد هي آلة العطاء والعون. ولما كان المجاز أبلغ من الحقيقة كما يؤكد علماء البلاغة وأربابها، كان استعمال كلمة الأيادي أبلغ وأبدع من استعمال كلمة النعم، لما يفيده المعنى الأول من التأكيد على إثبات المعنى والتلطف في إيراده.

وللتشبيه، أيضاً، دور في تجميل النص الأدبي. ويكفي، لإثبات هذا،

(١) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٦٣ و«نفح الطيب..»، ٧: ١٨٦.

إيضاح الفرق الكبير بين أن يقول ابن زمرك في مدح الغني بالله: إنه قوي مرهوب، خصاله فاضلة مشهورة ووجه مشرق جداً وقسماته مليحة واضحة... وأن يقول:

كَالدَّهْـرِ فِي سَطَوَاتِـهِ وَسَمَاحِـهِ تَجْـرِي صَبَاهُ بِـزَعْـزَعٍ وَرُخَـاءِ
رَقَّتْ سَجَـايَـاهُ وَرَاقَتْ مُجْتَلَى كَـالنَّهْـرِ وَسْطَ الـرَّوْضَـةِ الغَنَّـاءِ
كَـالزَّهْـرِ فِي إِيرَاقِـهِ وَالْبَدْرِ فِي إِشْـرَاقِـهِ وَالـزُّهْـرِ فِي لَأْلَاءِ[١]

فإن هذه التشبيهات التي أتى بها الشاعر، بغض النظر عن تقليديتها، جعلت المعاني أفخم وأنبل إذ نقلتها من المعلوم إلى المحسوس، فكانت أعلق بالسمع وأدعى للحفظ. هذا إلى أن التشبيه، والبليغ منه بوجه خاص، يؤدي إلى تقوية المعنى بألفاظ أقل[٢].

أما الاستعارة فهي، بلا ريب، أقوى من التشبيه وأبدع، لأنها تكسو المعاني أبهة، وتضاعف تحريك النفوس لها، وتستثير ما في القلوب وما في الأسماع من كلف وشغف بالجمال، وتجعل الأبيات الشعرية أسير على الألسن وأحسن وقعاً على الآذان![٣].

فحين قال ابن زمرك:

أُسَـامِرُ نَجْمَ الأُفْقِ حَتَّى كَـأَنَّنَـا وَقَدْ سَدَلَ اللَّيْلُ الرِّوَاقَ حَلِيفَانِ[٤]

---

(١) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٤٩ و«نفح الطيب..»، ٧: ١٨٢.

(٢) فنحن إذا أردنا أن نصف شخصاً بالاحتيال الشديد ولم نلجأ في هذا الوصف إلى استعمال التشبيه، قلنا: «فلان محتال احتيالاً كبيراً لا مثيل له». فإذا استعنا بالتشبيه كفانا مؤونة الإطالة فقلنا: فلان ثعلب، لأن الثعلب رمز الاحتيال، فلا حاجة بنا، بعد هذا، إلى ذكر الألفاظ الكثيرة المؤكدة.

(٣) ففي قولنا: «رأيت ثعلباً يخطب الناس»، إثبات صفة الاحتيال للخطيب بشكل آكد وأبلغ من قولنا: «رأيت رجلاً كالثعلب يخطب الناس»، فالاحتيال، في الاستعارة مقطوع بوجوده، في التشبيه مرجّح.

(٤) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٤٣ و«نفح الطيب..»، ٥: ٤٧.

نسب إلى النجم المسامرة مع أنه جماد، فهو قد استعار شيئاً من لوازم الإنسان (النطق) وألصقه بالنجم بحيث أسبغ عليه حياة وحركة وجعله شخصاً يتكلم، وبتعبير آخر، شخّصه! ولا يخفى ما لهذا التشخيص من أثر في نفس القارىء ومن تحريك لأريحيته.

ولقد كانت الاستعارة في شعر ابن زمرك تطغى على سائر الوجوه البيانية كما كان التجنيس يطغى على سائر الوجوه البديعية. ولئن كان الإكثار من الاستعارة مستحسناً لأنها تعد تحسيناً معنوياً، فإن الإكثار من الجناس مستكره لأنه تحسين لفظي، وعَهْدُنا بالألفاظ أن تكون أبداً خدماً للمعاني!.

على أن ولع شاعرنا بالتجنيس يهون بجانب الأخطاء اللغوية والعروضية التي وقع فيها والتي ستكون موضوع البحث في الفصل الآتي.

الفصل الرابع

سقطاته

كان الشاعر الجاهلي المطبوع لا يعرف شيئاً عما سمّي، في ما بعد، بالوزن والقافية، فقد كانت موهبته الشعرية تأخذ بيده إلى الكلام الموزون المقفى دون تكلف أو عناء. ذلك أن علم العروض والقافية لم يستخرج ويوضع إلّا في القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي)، كما هو معلوم، على يد أستاذ سيبويه والأصمعي: الخليل بن أحمد، سيد العلماء العرب.

وعلى الرغم من أن الشعراء الجاهليين هم أسياد الشعر العربي، فقد ذكر بعض النقاد أن كثيراً منهم وقعوا في ما عدّ، بعد، أخطاء عروضية. وأعطوا على هذا أمثلة كثيرة منها الاقواء الوارد في دالية النابغة[1].

فإذا كان هذا، حال الشعراء الكبار الذين عدّ شعرهم حجة في اللغة والنحو، فما بالنا بمن أتى بعدهم من الشعراء؟! وإذا كان كثير من هؤلاء المتأخرين قد أفادوا من علم العروض والقافية، فلم يقعوا في الاقواء وما شابهه من عيوب عروضية، فقد وقعوا في أخطاء لغوية ونحوية هي أبشع بكثير من الأخطاء العروضية.

أخلص من هذا إلى القول: إن ابن زمرك، كغيره من زملائه

---

(١) «... وبذاك خبرنا الغداف الأسودِ»، (ديوان النابغة، حققه محمد أبو الفضل إبراهيم، سلسلة ذخائر العرب رقم ٥٢، دار المعارف، ١٩٧٧م، ص ٨٩.

الشعراء، لم يستطع أن يتجنب الوقوع في العيب. وإن كنت سأتحدث، بعد قليل، عن سقطاته في شعره، فلأن الحديث عنها جزء من هذه الدراسة.

والأسباب التي تدفع الشاعر إلى السقوط في متاهات الخطأ كثيرة. وليس، هنا، مجال تفصيلها. إلاّ أني أحب أن أقف عند أبرزها وأهمها وأعني به الوزن. فالشاعر مهما بلغ من مستوى عال في الفصاحة واللسن، ومهما سمت موهبته في عالم الفن، ومهما تأنق في التعبير فنقح وبدّل وغيّر، ومهما تحرر من قيود المجتمع والبيئة، يظل مقيداً بتفعيلات البحر الذي ينظم عليه قصيدته ـ حتى شاعر التفعيلة لا يستطيع أن يتفلّت من قيدها ـ فيضطره الوزن في بعض الأحيان إلى حشر لفظ لا يستلزمه المعنى[1]، أو إلى تعدية فعل بغير الحرف الذي يتعدى به أصلاً. . . فيقع في الخطأ من حيث يعلمه ولا يستطيع تفاديه، لأنه يكون واقعاً تحت ضغط التفعيلة[2].

على أنه يجب التمييز بين الجوازات البسيطة التي لا تخل بالمعنى ولا تؤثر في جوهر الكلام ـ وهي ملحقة بالضرورات الشعرية التي تحدث عنها كثيراً منظرو علم العروض ـ والعيوب التي يجب على الشاعر أن يتحاشاها. ولهذا فإن تلك الجوازات المباحة غير داخلة في هذا الفصل لأنها لا تشكل عيوباً ولا تسمّى بسقطات.

---

(١) عاب النقاد، قديماً، على زهير ابن أبي سلمى لفظة «قبله» في قوله:

وَأَعْلَمُ عِلْمَ الْيَـوْمِ وَالأَمْسِ قَبْـلَهُ   وَلكِنَّنِي عَنْ عِلْمِ مَا فِي غَدٍ عَمِ

فعدُّوها حشواً غير مفسد لأن لفظ الأمس يتضمن، أساساً، معنى «القبلية»، فلا ضرورة للاتيان بلفظ «قبله». إلاّ أن الشاعر اضطر لذكرها إقامة للوزن!. (القزويني: «التلخيص في علوم البلاغة»، ضبطه وشرحه عبد الرحمن البرقوقي، الطبعة الثانية، ١٩٣٢م، ص ٢١٢).

(٢) تجدر الإشارة، هنا، إلى أن الجملة الشائعة القائلة: يجوز للشاعر ما لا يجوز لغيره، يجب أن تفهم على حقيقتها، ذلك أنه لا يجوز للشاعر أن يقول ما يشاء متخطياً قواعد اللغة، مخلاً بأصول الصياغة، كأن ينصب الفاعل أو يرفع المفعول مثلاً، فهذا غير وارد إطلاقاً. إنما يجوز له أن يسكن المتحرك أو يحرك الساكن وأن يصرف الممنوع من الصرف، وأن يمد المقصور أو يقصر الممدود. .

فما العيوب والسقطات التي وجدتها في شعر ابن زمرك؟.

أولاً: العيوب العروضية.

أود، قبل كل شيء، أن أبدأ بذكر هذه العيوب، فقد وقع شاعرنا في ثلاثة زحافات مستقبحة:

١ ـ أ ـ الزحاف الأول ورد في البيت الآتي:

فَـيَـا لَـهُ مِـنْ مُـرْتَـدٍ ثَـوْبَ الـتُّـقَـى لَـبَّـاسِ (١)

ب ـ الزحاف الثاني ظهر في قول ابن زمرك:

وَكَأَنَّ الرِّيَاضَ تُهْدِي ثَنَاءً لِلْغَنِيِّ بِاللَّهِ فَوْقَ الطُّرُوسِ (٢)

جـ ـ الزحاف الثالث يكمن في البيت القائل:

حَيْثُ الضَّرِيحُ بِمَا قَدْ ضَمَّ مِنْ كَرَمٍ قَدْ بَذَّ فِي الْفَخْرِ مَنْ سَادَ وَمَنْ نَجَحَا (٣)

---

(١) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٣٣ و«نفح الطيب..»، ٧: ٢٢٥.
هو من قصيدة نظمت على مجزوء الكامل وتفعيلاته:
مُتَفَاْعِلُنْ مُتَفَاْعِلُنْ مُتَفَاعِلُنْ مُتَفَاعِلُنْ
ويجوز في مُتَفَاعِلُنْ الإضمار فقط، أي تسكين الثاني المتحرك فتصبح مُتْفَاْعِلُنْ وتنقل إلى مُسْتَفْعِلُنْ. ولا يجوز حذف الحرف الثاني، في مُسْتَفْعِلُنْ إلاّ في الرجز. وقد حذفه الشاعر في البيت المذكور حين قال: «فَيَاْ لَهُ» (مُتَفْعِلُنْ). وبهذا يكون قد خلط بين الكامل والرجز إذ جمع مُتَفَاْعِلُنْ وَمُتَفْعِلُنْ في قصيدة واحدة.

(٢) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٤٣ و«نفح الطيب..»، ٧: ٢٣٣.
هذا البيت على الخفيف وتفعيلاته:
فَاْعِلَاتُنْ مُسْتَفْعِلُنْ فَاْعِلَاتُنْ فَاْعِلَاتُنْ مُسْتَفْعِلُنْ فَاْعِلَاتُنْ
يجوز في فَاْعِلَاتُنْ الخبن (أي حذف الثاني الساكن) ولا يجوز فيها الكفّ (أي حذف السابع الساكن). وقد أوردها الشاعر مكفوفة حين قال: لِلْغَنِيِّ: فَاْعِلَاتُ. ولو كانت الياء من الحروف التي يمكن إشباعها كالضمير الهاء وكالميم المتحركة في الضميرين هُمُ وكُمُ لصحّ الوزن ولكنها ليست كذلك.

(٣) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٥٣. =

٢ ـ سناد التأسيس والردف:

أ ـ وقع ابن زمرك في خطأ سناد التأسيس حين قال:

فَإِذَا هَوَى مِنْ جَـوِّهِ ثُمَّ اسْتَوَى أَبْصَرْتَ طَيْراً حَلَّ صُورَةَ آدَمِ (١)

ب ـ كما وقع في سناد الردف حين قال:

لَئِنْ غَـرَبَ الْبَدْرُ الْمُنِيـرُ مُحَمَّدٌ لَقَدْ طَلَعَ الْبَدْرُ الْمُكَمَّلُ يُوسُفُ(٢)

٣ ـ تغيير تفعيلة الضرب في بحر الطويل:

للشاعر خمسة أبيات طريفة تشكل مقدمة رسالة بعثها إلى لسان الدين، يقول في مطلعها:

وَحقِّكَ مَا اسْتَطْعَمْتُ بَعْدَكَ غَمْضَةً مِنَ النَّوْمِ حَتَّى آذَنَ النَّجْمُ بِالْغُرُوبْ(٣)

ويظهر من التفعلية الأخيرة خروج الشاعر عن ضرب الطويل(٤).

= هذا البيت على البسيط وتفعيلاته:

مُسْتَفْعِلُنْ فَاْعِلُنْ مُسْتَفْعِلُنْ فَعِلُنْ مُسْتَفْعِلُنْ فَاْعِلُنْ مُسْتَفْعِلُنْ فَعِلُنْ

يجوز في مُسْتَفْعِلُنْ الأولى والثالثة الخبن، ولا يجوز ذلك في الثانية والرابعة. إلّا أن مُسْتَفْعِلُنْ الرابعة في البيت قد لحقها الطيّ (أي حذف الرابع الساكن) فأصبحت: مُسْتَعِلُنْ: سَأْدَوَمَنْ. وهذا غير جائز.

(١) المقري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٦٥ و«نفح الطيب..»، ٧: ١٨٧.

في هذا البيت نجد أن «آدم» مؤسسة مع أن القافية في القصيدة بغير تأسيس وقد وقع الشاعر في سناد التأسيس هذا مرة ثانية حين قال:

أَجِـلْ فِي الَّذِي يُبْـدِيـهِ فِكْـرُ تَـوَسُّمِ تَـرَى طَـائِـراً قَـدْ حَـلَّ صُـورَةَ آدَمِ

(المقري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٩١ و«نفح الطيب..»، ٧: ٢٠٤).

بالإضافة إلى خطأ آخر هو أن جواب الطلب أتى غير مجزوم (أَجِلْ... تَرَىْ).

(٢) المقري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٤٩.

أتت «يوسف» مردفة مع أن القافية غير مردفة في الأصل. يضاف إلى هذا أن جواب الشرط «لقد طلع» لم تدخل عليه فاء الجزاء وهي واجبة الدخول.

(٣) المقري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٦٩ و«نفح الطيب..»، ٦: ٨٠.

(٤) تفعيلات الطويل هي:

فَعُـوْلُنْ مَفَـاْعِيْلُنْ فَعُـوْلُنْ مَفَـاْعِلُنْ فَعُـوْلُنْ مَفَـاْعِيْلُنْ فَعُـوْلُنْ مَفَـاْعِيْلُنْ =

وقبل أن أنتقل إلى الكلام على السقطات اللغوية والنحوية أحب أن أشير، هنا، إلى أن لفظ الغني بالله (لقب محمد الخامس) قد أوقع الشاعر في حرج عروضي حين أدخله في شعره[(١)].

ثانياً: السقطات اللغوية والنحوية أو سقطات المعنى والمبنى.

فرض الوزن والقافية على ابن زمرك أن يخرج، في بعض الأحيان، على أصول الصياغة وقواعد النحو، فوقع في أخطاء قليلة. وبسبب هذه القلة فإني سأذكرها حصراً.

١ ـ سقطات المعنى.

أ ـ قال ابن زمرك:

هِيَ نَفْحَــةٌ هَبَّتْ مِنَ الأَنْصَــارِ   أَهْـدَتْكَ فَتْـحَ مَمَالِـكَ الأَمْصَارِ
هَبَّتْ عَلَى قُطْرِ الْجِهَادِ فَرَوَّضَتْ   أَرْجَــاءَهُ بِـالنَّفْحَـةِ الْمِعْـطَارِ[(٢)]

لا معنى لهـذه «النفحة» التي تهب عـلى البلاد فتعـطر أرجـاءهـا «بالنفحة»!.

ب ـ فَطُعِنْتُ مِنْ قَدِّ الْقَوَامِ بِأَسْمَرٍ   وَرُمِيتُ مِنْ غُنْجِ اللِّحَاظِ بِأَسْهُمِ[(٣)]

= يجوز في الضرب أن يأتي مَفَاْعِلُنْ أو مَفَاْعِيْ (وتنقل إلى فَعُوْلُنْ). وقد أتى في البيت المذكور على مَفَاْعِلَانْ، ولا عهد للطويل بمثل هذا الضرب. ولذلك حين أورد المقّري هذه الأبيات في نفحه علق عليها قائلاً: «هذه غاية في معناها لولا خروجها عن القواعد في ترتيب قافيتها ومبناها». وأرى أن هذا الخروج لا يؤثر في موسيقى البحر بل على العكس يزيده إيقاعاً، خاصة وأن هذا الخروج جائز في بحور أخرى كالكامل مثلاً.

(١) فقد أورده في أبياته المدحية إما مشدد الياء فوقع في الزحاف: «لِلْغَنِيِّ بِاللَّهِ فَوْقَ الطُّرُوس» (تراجع الصفحة ٢٠٣ من هذا الكتاب)، وإما مخفف الياء: «كَأَنَّ الْغَنِي بِاللَّهِ فِي الرَّوْضِ قَدْ سَرَى» (المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٨٢ و«نفح الطيب..»، ٧: ١٩٦)، و«لِلْغَنِي بِاللَّهِ قَصْرٌ» (المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٤٠ و«نفح الطيب..»، ٧: ٢٢٩) فوقع في النقص، لأنه إذا جاز هذا في الضرب فلا يجوز في وسط البيت.

(٢) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٢٨ و«نفح الطيب..»، ٥: ١٧٢.

(٣) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٦١ و«نفح الطيب..»، ٧: ١٨٤.

لقد جعل للقوام قداً! أليس القد والقوام بمعنى واحد؟!.

جـ - ذُو سَطْوَةٍ مَهْمَا كَفَى ذُو رَحْمَةٍ ... مَهْمَا عَفَا ذُو عِفَّةٍ مَهْمَا قَدِرْ(١)

يقال: فلان يعفو عند المقدرة. وهذا هو مقصد الشاعر في هذا البيت، إلّا أنه أتى بالعفة بدلاً من العفو ففسد المعنى، إذ لا صلة للعفة - وهي الطهارة وترك الشهوات والترفع عن الدنية - بالعفو - وهو الصفح والغفران -.

د - مَا شِئْتَ مِنْ حُسْنٍ يَفُوقُ كَمَالُهُ ... وَيَرُوقُ مَنْظَرُهُ الْجَمِيلُ الحَالِي(٢)

يقال: فاق رفاقه بالعلم والفضل، أي رجح عليهم، ففعل فاق، إذاً، متعد ومستوجب مفعولاً، وقد ورد في البيت لازماً. فأيَّ شيءٍ يفوقُ كَمالُ حُسنِه؟!.

هـ - فَإِنْ تَصُبْ سُحْبُهُ بِالْمَاءِ حِينَ هَمَتْ ... بِعَسْجَدٍ وَلُجَيْنٍ صَابَ هَامِيهَا(٣)

فإن تصب... حين همت؟! ما هذا التخليط؟ وما هذه المداخلة بين المستقبل والماضي في آن؟.

و - كَسَانِي الْهَوَى ثَوْبَ السَّقَامِ وَإِنَّهُ ... مَتَى صَحَّ حُبُّ الْمَرْءِ لَا شَيْءَ يُسْقِمُ(٤)

يقول الشاعر في الصدر إن الهوى أسقمه. ثم يعود في العجز ليؤكد أن الحب الصحيح لايسقم المرء. ولا نستطيع أن نوفق بين القولين إلّا إذا افترضنا أن حب الشاعر غير صحيح! وكيف يكون كذلك وقد سبق هذا البيت ثمانية أبيات، كل منها يحمل دليلاً على صحة حبه:

عَلَى أَنَّ رُوحِي فِي يَدَيْكَ بَقَاؤُهَا ... بِوَصْلِكَ تُحْيِي أَوْ بِهَجْرِكَ تُعْدِمُ(٣)

(١) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٢٤ و«نفح الطيب..»، ٧: ٢١٧.
(٢) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١١١.
(٣) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٢٣ و«نفح الطيب..»، ٧: ١٧٣.
(٤) ابن الخطيب: «الإحاطة..»، ٢: ٢٣٤.

ز ـ مَا يُنْكِرُ الْمَرْءُ مِنْ نُورٍ جَلاَ غَسَقاً مَا لَمْ يَكُنْ لِأَمَانِي النَّفْسِ مُطَّرِحَا(١)

ومعنى البيت أن الإنسان يستنكر شيب رأسه إذا تخلّى عن أمانيه وأحلامه في الحياة، أو بتعبير آخر: إن الشيب يخيف المرء الذي لا يتبع هواه. وهذا معنى خاطىء لأنه معكوس ذلك أن الذي يعمل لأخراه ولا يطيع هوى نفسه لا يمكن أن يعبأ بالشيب أو يكترث له!.

٢ ـ سقطات المبنى.

أ ـ حذف فاء الجزاء الواجبة الدخول على جواب الشرط. ومن هذا ما جاء في الأبيات التالية:

إنْ يَحْمِلُوكَ عَلَى الْكَوَاهِلِ طَالَمَا قَدْ كُنْتَ مَحْمُولاً عَلَى الأَحْدَاقِ
أَوْ يَرْفَعُوكَ عَلَى الْعَوَاتِقِ طَالَمَا رُفِّعْتَ ظَهْرَ مَنَابِرٍ وَعِتَاقِ(٢)
إنْ رُدَّتِ الشَّمْسُ مِنْ بَعْدِ الْغُرُوبِ لَهُ قَدْ ظَلَّلَتْهُ غَمَامُ الْجَوِّ حَيْثُ نَحَا(٣)

ب ـ التعدية المباشرة أو بالحرف:

سَبِيلُكَ فِي سُبْلِ الْمَكَارِمِ يَقْتَفِي وَهَدْيُكَ يَا خَيْرَ الأَئِمَّةِ يَقْتَدِي(٤)

في هذا البيت نلاحظ أن الشاعر عدّى فعل اقتدى مباشرة وهو لا يتعدى إلّا بحرف الباء.

قَدْ لاَثَ صُبْحاً فَوْقَ بَدْرٍ بَعْدَمَا لَبِسَ الْمَكَارِمَ وَارْتَدَى بِوَقَارِ(٥)

وهنا فعل الشاعر العكس، إذ عَدَّى فعل ارتدى بالباء مع أنه يتعدى مباشرة.

(١) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٥١.
(٢) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٦٣ و«نفح الطيب..»، ٥: ١٩٧.
(٣) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٥٤.
(٤) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٥٤ و«نفح الطيب..»، ٧: ٢٣٦.
(٥) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٣٤ و«نفح الطيب..»، ٥: ١٧٦.

جـ ـ رفع المضارع الذي أتى جواباً لشرط جازم فعلين مضارعين:

وَرُبَّ نَهْرِ حُسَامٍ رَقَّ رَائِقُـهُ مَتَى تَرِدْهُ نُفُوسُ الْكُفْرِ يُرْدِيهَا(١)

رفع المضارع الذي أتى مباشرة بعد أداة جزم:

وَيَأْسَفُ لَمَّا يُبْصِرُ الْبَرَّ يَـرْتَمِي بِفُرْسَانِهِ وَالْبَحْرُ بِالسُّفْنِ يَقْذِفُ(٢)

د ـ جزم المضارع بلا مسوّغ:

يَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أُعَرِّسُ لَيْلَةً فَـأَشُمَّ حَوْلِي إِذْخِـراً وَجَلِيـلاَ

أَوْ تَـرِوْنِي يَـوْمـاً مِيَـاهُ مَجَنَّـةٍ وَيَشِيمُ طَرْفِي شَامَـةً وَطَفِيلاَ(٣)

هِيَ نُسْخَةٌ لِلشَّيْخِ فِيهَـا نِسْبَةٌ مَا إِنْ يَزَالاَ يَرْعَشَانِ مِنَ الْكِبَرْ(٤)

---

(١) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٢٦ و«نفح الطيب..»، ٧: ١٧٥.

«متى» أداة شرط تجزم فعلين مضارعين: الأول (تَرِدْهُ) وهو فعل الشرط والثاني (يُرْدِيهَا) وهو جواب الشرط، وقد أتى غير مجزوم وكان من الواجب أن يجزم فيأتي (يُرْدِهَا). ولكن الشاعر آثر إقامة الوزن.

(٢) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٥١.

تأتي «لمّا» قبل الفعل الماضي فتقتضي جملتين وتسمى حرف وجود لوجود (أو حرف وجوب لوجوب) وتعرب أيضاً ظرفاً لفعل وقع لوقوع غيره وتكون حينئذ بمعنى حين. وتأتي قبل المضارع فتختص بجزمه ونفيه وقلبه ماضياً. ولما كان الفعل الذي يلي «لمّا» في البيت المذكور فعلاً مضارعاً، فلا محيص عن جزمه. فإذا جزم تحولت علامة الجزم ـ وهي السكون ـ إلى كسرة منعاً لالتقاء الساكنين (لَمَّا يُبْصِرِ الْبَرَّ). ولكن المشكلة تبقى قائمة، ذلك أن فعل يرتمي يظل متعلقاً من حيث المعنى بلمّا التي قصد الشاعر أن يستعملها، بالفعل، بمعنى حين أو عندما، وكل منها تقتضي جملتين قد تأتيان ماضويتيـن أو مضارعتين. وإذاً، فإن الشاعر قصد أن يرفع «يُبْصِرُ» بعد «لَـمَّا» لأنه أرادها ظرفاً. وهنا يكمن الخطأ.

(٣) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٩٨.

في البيت الثاني ورد المضارع «تَرْوِنِي» مجزوماً بغير عامل. والأصل فيه أن ينصب فيكـون «تَرْوِيَنِي» لأنه معطوف على «أَشُمَّ» المنصوب بأن المضمرة بعد فاء السبب الواردة بعد جملة انشائية (هَلْ أُعَرِّسُ). ويجوز أن تكون الفاء حرف عطف (تعطف «أَشُمُّ» على «أُعَرِّسُ») فيكون المضارع «تَرْوِيني» مرفوعاً.

(٤) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٢٣ و«نفح الطيب..»، ٧: ٢١٦.

في هذا البيت أتى فعل «يَزَالاَ» مجزوماً، وهذا خطأ، لأن «إِنْ»، هنا، ليست حرف شرط جازم، كما قد يُظن لأول وهلة، بل هي حرف نفي أتت بعد ما النافية، فكانت زائدة لا =

هـ - عطف شيء على غير مثيله.

من المعروف أن حرف العطف قد يعطف جملة على جملة أو لفظة على لفظة. وشرط العطف أن يكون المعطوف من جنس المعطوف عليه، فلا يجوز أن يعطف مضارع على ماض ولا نكرة على معرفة كما فعل ابن زمرك حين قال:

إِذَا احْتَفَلَ الإيوَانُ يَوْمَ مَشُورَةٍ ... وَتَضْطَرِبُ الآرَاءُ مِنْ كُلِّ ذِي حِجْرِ(١)

صَدَعْتَ بِفَصْلِ الْقَوْلِ غَيْرَ مُنَازَعٍ ....

حَمَلَتْ مِنَ الأَبْطَالِ كُلَّ مُشَمِّرٍ ... لاَ يَقْتَنِي سُمْرَ الْقَنَا وَنُصُولاَ(٢)

و - وصف المعرفة بالنكرة.

لَئِنْ بَلَغُوا دُونِي وَخُلِّفْتُ إِنَّهُ ... قَضَاءٌ جَرَى مِنْ مَالِكِ الأَرْضِ دَيَّانِ(٣)

ز - نصب المرفوع:

قَضَى اللَّهُ مِنْ فَوْقِ السَّمَاوَاتِ أَنَّهُ ... عَلَى مَنْ أَبَى الإِسْلاَمَ فِي الأَرْضِ قَاضِيًا(٤)

= عمل نحوياً لها، إنْ هي إلاّ لتقوية المعنى وتأكيده. وعلى هذا الأساس كان من الواجب على الشاعر أن يقول «مَا إِنْ يَزَالاَنِ»، ولا مسوغ هناك لجزم الفعل. فإذا صحح الفعل بزيادة النون التي هي علامة إعرابه، فسد الوزن.

(١) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٦٥ و«نفح الطيب..»، ٦: ٧٦.
ففي البيت الأول عطف الشاعر الفعل المضارع «تَضْطَرِبُ» على الماضي «احْتَفَـلَ» بحرف الواو. وهذا لا يجوز. فإذا لم تكن الواو للعطف، وكانت حرف استئناف مثلاً، لم يعد هناك من صلة واضحة بين الصدر والعجز. مع أن الصدر لا يتم معناه إلاّ في البيت الثاني. ولا يمكن أن يكون العجزُ جملة اعتراضية، لأن المعنى المقصود من الشاعر هو الآتي: «إذا كان يوم المشورة، وراح أصحاب العقول يدلون بآرائهم المضطربة، استطعت، أنت، أن تأتي بالرأي الصحيح والقول الفصل».

(٢) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٠٢.
عطف الشاعر «نُصُولاَ»، وهي نكرة، على «سُمْرِ» المعرفة بإضافة القنا إليها.

(٣) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٤٤ و«نفح الطيب..»، ٥: ٤٨.
وصف «مَالِكِ»، وهي معرّفة بإضافة الأرض إليها، «بدَيَّانِ» وهي نكرة.

(٤) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٦٨ و«نفح الطيب..»، ٧: ١٩١. =

وَاللّهُ مَـا آثَـارُ هَـدْيِـكَ عِنْـدَنَـا إِلاَّ نُجُـوماً مَـا عَرَفْنَ ذُبُـولاَ(١)

حـ ـ معاملة الجمع كالمفرد.

وَسَوَّغْتَنِي الآمَالَ عَذْباً مُسَلْسَلاً وَأَسْمَيْتَ مِنْ ذِكْرِي وَرَفَّعْتَ مِنْ قَدْرِي(٢)

أَرَى الْمَالَ يَرْمِيهِ الْجَدِيدَانِ بِالبِلَى وَمَا إِنْ أَرَى إِلاَّ الْمَحَامِدَ بَاقِيَا(٣)

مَلِكٌ إِذَا لَثَمَ الْـوُجُـودُ يَمِينَـهُ فَالْبَحْرُ عَذْباً وَالرِّيَاضُ بَلِيلاَ(٤)

ط ـ معاملة المثنى كالمفرد.

بَلِيَتْ مَحَـاسِنُهَا وَخَفَّ أَنِيسُهَـا وَالشَّوْقُ وَالتَّذْكَارُ لَيْسَ بِبَالِ(٥)

ي ـ معاملة العاقل كغير العاقل وبالعكس:

يَفْتُكْنَ مِنْ قَـامَاتِهَـا وَلِحَـاظِهَـا بِـالْمَشْـرَفِيَّـةِ وَالْقَنَـا الْخَـطَّارِ(٦)

= جاءت «قَاضِيَا» منصوبة وحقها الرفع لأنها خبر أنَّ. وهذا خطأ بشع! على أنه إذا أمكن القول إن خبر «أَنَّ» هو شبه الجملة «على من. .» ـ وهذا يصح ـ فما محل «قاضيا» من الإعراب حينئذ؟ لو كانت «قضاء» لاعربناها مفعولاً مطلقاً بصفتها مصدراً عامله «قضى»، ولكنها أتت اسم فاعل، فليس لها من وجوه الإعراب، غير كونها خبر «أنَّ»، إلاَّ وجه واحد وهو أن تكون حالاً. وهو احتمال ضعيف جداً، يزيده ضعفاً كون حرف الجر الذي يبدأ به شبه الجملة هو الحرف «على» الذي يتعدى به اسم الفاعل «قاضيا»، وهو هنا مُتَعَلَّقُهُ.

(١) المقّري: «أزهار الرياض. .»، ٢: ١٠١.

إذا عدّت «مَا» حرف نفي كانت «نُجُوم» خبراً مرفوعاً للمبتدأ آثار. أما إذا عدّت عاملة عمل ليس فقد بطل عملها باقتران خبرها بإلا وعادت مجرد حرف نفي لا عمل له. ولا صحة لقول من يذهب إلى أعمال «مَا» عمل ليس بالرغم من انتقاض خبرها بإلا. فقد وردت «ما» في القرآن عاملة في الخبر الذي لم يقع عليه نقض ولا تقديم: ﴿مَا هَـٰذَا بَشَراً﴾ («يوسف» ٣١/١٢)، فحين انتقض خبرها بإلاّ بطل عملها: ﴿مَا هَـٰذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ («المؤمنون» ٢٤/٢٣)، و﴿مَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِـدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَـرِ﴾ («القمر» ٥٤/٥٠).

(٢) المقّري: «أزهار الرياض. .»، ٢: ١٦٥ و«نفح الطيب. .»، ٦: ٧٧.

(٣) المقّري: «أزهار الرياض. .»، ٢: ٦٠ و«نفح الطيب. .»، ٧: ١٥١.

(٤) المقّري: «أزهار الرياض. .»، ٢: ١٠٠.

(٥) نفسه، ٢: ١٠٨.

(٦) المقّري: «أزهار الرياض. .»، ٢: ١٠٤ و«نفح الطيب. .»، ٧: ١٥٥.

خُذُوا الْحِذْرَ مِنْ سُكَّانِ رَامَةَ إنَّهَا ضَعِيفَاتُ كَسْرِ اللَّحْظِ تَفْتُكُ بِالْأُسْدِ(١)
قَدْ زَارَكَ الْعِيدُ السَّعِيـدُ مُبَشِّراً فَـاسْمَحْ لِأَلْفٍ مِنْهُمُ بِمَـزَارِ(٢)

ك ـ معاملة المذكر كالمؤنث وبالعكس:

فَأَيْقِظِ النُّدْمَـانْ يُبْصِرْنَ مَالَمْ يُبْصَر(٣)
قُــلْ لِيَ يَـا رَبَّــةَ الْـوِشَــاحِ هَلْ لِيْ إلَى الْوَصْلِ مِنْ سَبِيْلْ(٤)
لاَ زِلْتَ مَحْرُوساً بِعَيْنِ كَـلاَءَةٍ مَادَامَ عَيْنُ الشَّمْسِ تُعْشِي مَنْ نَظَرْ(٥)

هذه هي معظم سقطات ابن زمرك في شعره، قد تجشمت عناء ذكرها حصراً لتحديدها، نوعاً، وبيان قلتها(٦).

وأرى من واجبي، قبل الانتقال إلى الكلام على تقليد الشاعر وتجديده، أن أشير إلى أن بعض تلك الأخطاء المذكورة، قد لا يكون صادراً عن ابن زمرك، بل عن محقق الكتاب الذي وردت فيه تلك الأبيات، وذلك عن طريق التصحيف أو التحريف.

(١) المقّري: «نفح الطيب..»، ٧: ٤٥٦. وابن خلدون: «التعريب..»، ص ٢٦٣.
(٢) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٤٥ و«نفح الطيب..»، ٧: ٢٣٤.
(٣) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٨٤ و«نفح الطيب..»، ٧: ٢٤٧.
(٤) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٩١ و«نفح الطيب..»، ٧: ٢٥٢.
(٥) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٣٨ و«نفح الطيب..»، ٥: ١٧٩.
(٦) وردت هذه الأخطاء في اثنين وأربعين بيتاً أي ما نسبته $\frac{1}{2}$ ١٪.

الفَصل الخامِس

تقْليدُهُ وَتجْديدُهُ

المبحث الأول: التقليد

تأثر ابن زمرك بكثير من كبار الشعراء المشارقة. فمن يقرأ قصيدة له قد يذكّره بيت فيها ببيت قاله المتنبي وبيت آخر بتعبير شبيه بتعبير حفظه لأبي تمام، وقد يلمح في بيت ثالث معنى قريباً من معنى أتى به بشار... وقد يتوهم ذلك القارىء أن ابن زمرك لا همَّ له سوى السطو على معاني من سبقوه وتقليدهم. والواقع أن الأمر يختلف عن هذا تماماً. فليست القضية قضية سرقة وتقليد مقصود، وإنما هي قضية شاعر قرأ التراث ودرسه فأعجب به وحفظ منه الشيء الكثير، كما درس اللغةالعربية وما يتصل بها من علوم النحو والبلاغة والعروض، وصادف هذا كله هوى في نفسه وميلاً نحو الأدب وموهبة شعرية رافقته منذ صغره، فراح يصقل هذه الموهبة وينميها بممارسة النظم ومعاناة الشعر.

ليستْ القضية، إذاً، قضية تقليد وسرقة، إنها قضية عامة تطال الشعراء جميعهم، قضية مخزون ثقافي في داخل كل منهم، مخزون يتلقفه ويهضمه فيتحول إلى دم يسري في عروقه وإلى جرثومة تعشش في أفكاره وإلى شعلة تضيء أمامه طريق الإبداع، مخزون ثقافي يصبح جزءاً لا يتجزأ منه، يتحكم فيه، شاء أم أبى، يفرض عليه تفكيراً خاصاً ومنحى معيناً في القول،

تساعده في ذلك ظروف البيئة التي تضغط، بدورها، على تفكيره وتحمله على مركبها الوعر. . .

من هذا المنطلق أفهم تأثر الشاعر بمن سبقه. فالتقليد سمة تسم الشعراء جميعاً، لا أكاد استثني منهم أحداً. وهو لا يمكن أن يعد سيئة من السيئات لأنه يحمل في ذاته بذور التجديد.

ابن زمرك، إذاً، مقلد: لأنه شاعر ولأنه أندلسي! ذلك أن التقليد صفة طغت على الشعراء الأندلسيين وعلى أشعارهم، بنسب متفاوتة، بحيث لم يبق أديب ولا ناقد ولا باحث إلاّ أدلى كل منهم بدلوه في هذا الموضوع. وقد تراوحت أقوالهم بين الاعتدال والتطرف بل بين الموضوعية والتجني(١).

على أن الدكتور إحسان عباس قد درس موضوع التقليد في صفحات ضافيات من كتابه «تاريخ الأدب الأندلسي - عصر سيادة قرطبة». وقد فعل ذلك بكثير من الموضوعية والدقة حين أكد أن الحياة الثقافية في الأندلس قد وسمت منذ البدء بالاعتماد على المشرق والتقليد لأهله، لأنه كان أرقى حضارة وأوسع ثقافة ولأن الأندلسيين يلتفتون إليه في تجارتهم، ويرونه منبع العلم والدين وموطن القداسة والحج، ويدركون أن موروثهم إنما هو شعر العرب وأدبهم منذ الجاهلية حتى أبي تمام(٢).

من هنا كان التقليد الذي تحدث عنه بعض النقاد بلهجة المستهجن للشعر الأندلسي، ضرورياً، لأنه الخطوة الأولى في طريق تكوين الشخصية الثقافية المتطورة في الأندلس، وكان نافعاً لأنه لم يكن تقليداً بحتاً عادياً، إذ

---

(١) أبي الخشب، إبراهيم علي: «تاريخ الأدب العربي في الأندلس»، ص ١٧٦. وأمين، أحمد: «ظهر الإسلام»، ٣: ١٠٤ و١٠٥. وخالص، د. صلاح: «أشبيلية في القرن الخامس الهجري»، ص ٨٥.

(٢) عباس، د. إحسان: تاريخ الأدب الأندلسي. .»، ص ٣٩ و١٢٧ و١٢٨.

استطاع بعض الشعراء أن يوفقوا إلى صياغة معان مشرقية بتعابير جديدة قوية رائعة.

ولقد بدأ الشعراء الأندلسيون بسلوك طريق جديدة، ابتداءً من أواخر القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، طريق جـديدة أعـطت شعرهم مميزات شكلية وجوهرية. وقد استمر هذاالشعر ينمو ويزدهر حتى بلغ أوجه في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) على يد الشاعر الأندلسي الكبير ابن خفاجة! وليس هذا غريباً إذا عرفنا أن الثقافة الأندلسية لم تكن في يوم من الأيام أكثر ازدهاراً وخصباً منها في خلال هذا القرن.

على أن الشعر الأندلسي لم يستمر طويلاً في ذروته، بل سرعان ما انحدر عنها بالتدريج، حتى إذا جاء القرن الثامن الهجري (الرابـع عشر الميلادي)، وأصبحت الأندلس، بعد سقوط أكثر مدنها، محصورة في حدود مملكة غرناطة، وحتى إذا قوي نفوذ الفقهاء ورجال الدين، وغدت غرناطة قاب قوسين أو أدنى من السقوط في قبضة حملات الاسترداد النهائية، لم يعد للشاعر الغرناطي أن يعمل خياله كثيراً ولا أن يساير تقدم الزمن، بل كان عليه أن يسير في الطريق التي حددتها له معـطيات البيئـة وفرضتهـا عليه الظروف. فاكتفى بأن يراوح مكانه في نظم الشعر، من غير أن يسعى، جاهداً، إلى التجديد. بل إن شعره أصبح أكثر اتّباعاً من ذي قبل، فهو ينظم القصيدة العمودية، يقف فيها على الطلل ويبكي رحيل الأحبة وكأنه عاد عصوراً إلى الوراء، لم يتغير لديه سوى التعبير، فكان واضحاً، وسوي اللفظ، فأتى سهلاً، وكلاهما كانا أقل جزالة وقوة.

كل هذا بانتظار النهاية المحتومة. وكأني بابن خلدون، معـاصر ابن زمرك، حين وضع نظريته في أعمار الدول، نظر إلى أطوار الشعر الأندلسي فوجده من حيث التجديد والتطور قد نما وشب ثم اكتهل وشاب.

ولئن نما على يد ابن شهيد وشب على يد ابن خفاجة، فلقد شاب على يد ابن زمرك، إذ أتى أكثر شعره تقليدياً، حتى موشحاته كانت، كما رأينا، مجرد قصائد متعددة القافية والروي.

المعاني التقليدية عند ابن زمرك، إذاً، كثيرة يصعب حصرها. ولهذا السبب سأكتفي بعرض بعضها وسنرى أن التقليد فيها واضح يكشف عن نفسه. يقول ابن زمرك:

لَقَـدْ رَامَ يَـرْقَى لِلسَّمَـاءِ بِسُلَّمٍ   فَيَمْشِي عَلَى خَطٍّ بِهِ مُتَوَهَّمِ (١)

ويذكرنا هذا البيت فوراً ببيت قاله زهير ابن أبي سلمى:

وَمَنْ هَابَ أَسْبَابَ الْمَنَايَا يَنَلْنَـهُ   وَإِنْ يَرْقَ أَسْبَابَ السَّمَاءِ بِسُلَّمِ (٢)

ويقول ابن زمرك من ميمية له البيت الآتي:

وَكَمْ لَيْلَةٍ قَـدْ جِئْتَ فِيهَـا بِلَيْلَةٍ   مِنَ النَّقْعِ فِيهَا لِلأَسِنَّةِ أَنْجُمُ (٣)

وقد قصر فيه كثيراً عما قاله بشار بن برد:

كَأَنَّ مُثَارَ النَّقْـعِ فَوْقَ رُؤُوسِنَـا   وَأَسْيَافَنَا لَيْـلٌ تَهَاوَى كَـوَاكِبُهْ (٤)

ويقول ابن زمـرك:

إِنَّ الْمُلُوكَ كَـوَاكِبٌ أَخْفَيْتَـهَـا   وَطَلَعْتَ وَحْدَكَ فِي مَظَاهِرِهَا قَمَرْ (٥)

وقصر فيه أيضاً عن بيت النابغة:

(١) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٩١ و«نفح الطيب..»، ٧: ٢٠٤.
(٢) ديوان زهير، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتاب سنة ١٣٦٣هـ/١٩٤٤م، ص ٣٠.
(٣) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٤٦.
(٤) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم: «الشعر والشعراء»، نشر دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٤، جزءان، ٢: ٦٤٥.
(٥) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٢٤ و«نفح الطيب..»، ٧: ٢١٧.

بِأَنَّكَ شَمْسٌ وَالْمُلُوكُ كَوَاكِبُ إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوْكَبُ(١)

قال شاعرنا:

سُكْرُ النَّدَامَى مَنْ يَدَيْهِ وَلَحْظِهِ مُتَعَاقِبٌ مَهْمَا سَقَى وَإِذَا نَظَرْ(٢)

وهو معنى أتى به أبو نواس فأحبه الأندلسيون وأكثروا النظم عليه:

تَسْقِيكَ مِنْ عَيْنِهَا خَمْراً وَمِنْ يَدِهَا خَمْراً فَمَا لَكَ مِنْ سُكْرَيْنِ مِنْ بُدِّ(٣)

وقال يخاطب لسان الدين، من قصيدة رائية:

لَكَ القَلَمُ الأَعْلَى الَّذِي طَالَ فَخْرُهُ عَلَى الْمُرْهَفَاتِ الْبِيضِ وَالأَسَلِ السُّمْرِ(٤)

وواضح أنه تأثر في صدره بصدر بيت لأبي تمام يقول فيه:

لَكَ الْقَلَمُ الأَعْلَى الَّذِي بِشَبَاتِهِ تُصَابُ مِنَ الأَمْرِ الْكُلَى وَالْمَفَاصِلُ(٥)

وقد تأثر بأبي تمام في أبيات كثيرة منها قوله:

ذَكَاءُ إِيَاسٍ فِي سَمَاحَةِ حَاتِمٍ وَإِقْدَامُ عَمْرٍو فِي بَلَاغَةِ سَحْبَانِ(٦)

وهو من قول أبي تمام:

إِقْدَامُ عَمْرٍو فِي سَمَاحَةِ حَاتِمٍ فِي حِلْمِ أَحْنَفَ فِي ذَكَاءِ إِيَاسِ(٧)

---

(١) ديوان النابغة، حققه محمد أبو الفضل إبراهيم، سلسلة ذخائر العرب رقم ٥٢، دار المعارف، ١٩٧٧م، ص ٧٤.

(٢) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٣٦ و«نفح الطيب..»، ٥: ١٧٨.

(٣) ديوان أبي نواس، حققه أحمد عبد المجيد الغزالي، دار الكتاب العربي، ص ٢٧.

(٤) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٦٤ و«نفح الطيب..»، ٦: ٧٥. وابن الخطيب: «الكتيبة الكامنة..»، ص ٢٨٤.

(٥) ديوان أبي تمام، بشرح الخطيب التبريزي، تحقيق محمد عبده عزام، سلسلة ذخائر العرب رقم ٥، دار المعارف بمصر، أربعة مجلدات، ٣: ١٢٢.

(٦) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٤٧ و«نفح الطيب..»، ٥: ٥٠.

(٧) ديوان أبي تمام، ٢: ٢٤٩. وقد اقتبس لسان الدين بن الخطيب هذا المعنى أيضاً حين مدح السلطان أبا سالم فقال: =

ومنها قوله:

وَكَمْ مِنْ لِوَاءٍ فِي الْفُتُوحِ نَشَرْتَهُ وَلِلرُّعْبِ جَيْشٌ دُونَهُ يَتَقَدَّمُ(١)

وهو من قول أبي تمام:

لَمْ يَغْزُ قَوْماً وَلَمْ يَنْهَدْ إِلَى بَلَدٍ إِلَّا تَقَدَّمَهُ جَيْشٌ مِنَ الرُّعُبِ(٢)

كذلك تأثر ابن زمرك بالمتنبي تأثراً واضحاً، فاسمعه وهو يقول:

مَنْ مُبْلِغٌ قَحْطَانَ آسَادَ الشَّرَى مَا غَابُهَا إِلَّا الْوَشِيجُ الذُّبَّلُ(٣)

فقد نظر فيه إلى قول المتنبي:

صُفُوفاً لِلَيْثٍ في لُيُوسٍ حُصُونُهَا مُتُونُ الْمَذَاكِي وَالْوَشِيجُ الْمُقَوَّمُ(٤)

وقال ابن زمرك:

إِذَا اسْتَبَقَ الأَمْلَاكُ يَوْماً لِغَايَةٍ أَبَيْتَ وَذَاكَ الْمَجْدَ إِلَّا التَّنَاهِيَا(٥)

وهو من قول المتنبي:

مَدًى بَلَّغَ الأُسْتَاذَ أَقْصَاهُ رَبُّهُ وَنَفْسٌ لَهُ لَمْ تَرْضَ إِلَّا التَّنَاهِيَا(٦)

= فَصَاحَةُ قُسٍّ فِي سَمَاحَةِ حَاتِمٍ وَإِقْدَامُ عَمْرٍو تَحْتَ حِكْمَةِ لُقْمَانِ»

(المقري: «نفح الطيب..»، ٥: ٣٥).

(١) المقري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٤٦.

(٢) ديوان أبي تمام، ١: ٥٩.

(٣) المقري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١١٧ و«نفح الطيب..»، ٧: ٢١١.

(٤) ديوان المتنبي، بشرح أبي البقاء العكبري، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، دار المعرفة، بيروت، أعيد طبعه بالأوفست ١٣٩٧هـ/١٩٧٨م، أربعة أجزاء، ٣: ٨٩. و«محيط المحيط»، ص ٣١٠.

(٥) المقري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٥٧ و«نفح الطيب..»، ٧: ١٤٩.

(٦) ديوان المتنبي، ٤: ٢٩٣.

وقـال شاعـرنـا:

وَصِيــدٍ مِنَ الْحَيَّيْنِ أَبْنَـاءِ قَيْلَةٍ تَكُفُّ الأَعَادِي أَوْ تُبِيدُ الأَعَادِيَا(١)

وكان المتنبي قد قال:

يُبِيـدُ عَـدَاوَاتِ الـطُّغَـاةِ بِلُطْفِـهِ فَإِنْ لَمْ تَبِدْ مِنْهُمْ أَبَادَ الأَعَادِيَا(٢)

ولابن زمرك بيت يقول فيه:

فَقَبْلَ مَضَاءِ السَّيْفِ تُمْضَى عَزَائِمٌ وَبَعْدَ بِنَاءِ الرَّأْيِ تُبْنَى الْمَعَاقِلُ(٣)

ولا شك أنه قد أخذ معناه من بيت المتنبي القائل:

الـرَّأْيُ قَبْلَ شَجَـاعَةِ الشُّجْعَـانِ هُوَ أَوَّلٌ وَهْيَ الْمَحَلُّ الثَّانِي(٤)

وقال فـي موشحـه:

خُلِقْتُ مِنْ عَادَتِي أَلُوفَا أَحِنُّ لِلإِلْفِ وَالسَّكَنْ(٥)

وهو تعبيـر نجده عند المتنبـي:

خُلِقْتُ أَلُوفاً لَوْ رَجَعْتُ إِلَى الصِّبَا لَفَارَقْتُ شَيْبِي مُوجَعَ الْقَلْبِ بَاكِيَا(٦)

يظهر من هذه الأبيات جميعها كيف استعان الشاعر بمخزونه التراثي لينظم كثيراً من قصائده. على أن أحداً لا يستطيع أن يؤكد أو ينفي ما إذا كان الشاعر قد تعمد هذا التقليد أم أتى به من غير وعي منه. ولكن الثابت أن هذا التقليد قد دفع بالشاعر دفعاً إلى ميدان التجديد.

(١) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٥٩ و«نفح الطيب..»، ٧: ١٥١.
(٢) ديوان المتنبي، ٤: ٢٨٩.
(٣) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٨٠.
(٤) ديوان المتنبي، ٤: ١٧٤.
(٥) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٧٧ و«نفح الطيب..»، ٧: ٢٤١.
(٦) ديوان المتنبي، ٤: ٢٨٤.

المبحث الثاني: التجديد

بعد العرض السريع لبعض المعاني التقليدية، يبرز سؤال هام: هل هناك من جديد في شعر ابن زمرك؟!.

والجواب عن هذا السؤال يسير وعسير في آن:

- فهو يسير لأن المنطق يفرض الرد الفوري بالإيجاب، ذلك بأن ابن زمرك عاش في غرناطة في خلال القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي)، وهذا يعني، بوضوح، أن بيئته اختلفت عن البيئة المشرقية اختلافاً بيّناً. فمن غير المعقول، والحالة هذه، أن تتشابه الأفكار والتعابير كلياً، وإلاّ فإن التبعية الواقعية التي تفرضها البيئة على الشاعر لا تعود ماثلة، ولا يعود، بالتالي، لعنصري الزمان والمكان أي تأثير على العنصر الإنساني، وهذا غير منطقي وغير واقعي، لأن الأدب ابن البيئة، فإذا اختلفت البيئات فلا يمكن أن تكون آدابها واحدة.

- وهو عسير لأن حصر المعاني الجديدة التي أتى بها الشاعر يتطلب اطّلاعاً واسعاً وذاكرة قوية وجهداً كبيراً ووقتاً طويلاً. فإذا لم يكن الدارس واعياً جميع المعاني الشعرية التي أتى بها الشعراء قبل ابن زمرك، وهم مئات، لم يستطع أن يحدد تماماً كل المعاني الجديدة الموجودة في شعره. ولا أدعي أنني أملك ذلك كله.

من هنا، كان اتمام هذا العمل على أفضل وجه، أكبر من أن يقوم به الدارس بمفرده. ولهذا السبب كان أكثر اهتمامي منصباً على هذا الفصل، بالذات، لأني أدركت، منذ أول الطريق، صعوبته وأهميته على السواء. إذ لا يخفى أن الكشف عن المعاني الجديدة لدى أي شاعر، يساعد على تقويم أدب هذا الشاعر، بل قل إنه لا يمكن أن يقوّم بحق، إلاّ على أساس ما تضمنه من جديد في عالم الشعر.

ولذلك كنت كثيراً ما أعود إلى ما كتبته في هذا الفصل، بعد مطالعتي دواوين الشعراء، فأعيد النظر فيـه وألجأ إلى البحث والتـدقيق والإضافـة والحذف، الأمر الذي استنفد جلّ وقتي وجهدي.

وبالرغم من ذلك لا أستطيع الادّعاء بأني جمعت كل المعاني الجديدة التي أبدعها ابن زمرك، كما لا أحب الادّعاء بأن كل ما جمعته من معان إنما هو جديد، لم يسبق إليه الشاعر.

مع الإشارة إلى أن جدة المعنى، لا تكفي وحدها، لعد البيت الذي تضمن هذاالمعنى جديداً، بل يجب أن يكون لذلك المعنى الجديد قيمة أدبية بما يحمله من صياغة فنية وتعبير جيد ووقع حسن على الآذان.

ولئن قلت، قبلاً، إن الشعر، من حيث التجديد، قد شاب على يد ابن زمرك، فإن من الضروري أن أضيف أن هذا الشيب لا يقدر أن يمنعنا من تذوق بعض المقاطع والأبيات التي هي بمثابة الشعرات السود: يحاول الشيب عبثاً أن يغريها، بشتى الوسائل، للانضمام إلى جيشه، إلاّ أنها تبقى صامدة ثابتة، متحدية بريق السيوف البيضاء. ولعلي مستنقذها وكاشف عنها غطاءها حين أعرضها بأجمل زينتها وأبهى حليتها.

على أنه لا بدّ، قبل ذلك، من أن ألاحظ أن الجديد عند ابن زمرك، كما هو عند كل شاعر، قسمان: تجديد جزئي وابتكار.

التـجديد الجزئي:

وهو الصياغة الفنية المجددة، وأعني بهذا، أن يعيد الشاعر صياغة معنى مطروق، صياغة جديدة تفوق، أو توازي على الأقل، الصياغـة السابقـة للمعنى نفسه.

على أن هذه الصياغة الجديدة، وإن كانت لا تنطوي على ابتكار، فقد

لبست معانيها حللاً بديعة الصنع موشاة بأزاهير الطبيعة الغرناطية الباسرة، ومعطّرة بأريج نواويرها الناضرة، بحيث إذا تأملها القارىء أعجبته واستهوته وسرته، وأنسته ما فيها من لمحات تقليدية. هـذا إلى أن كثيراً من تلك الأبيات يحمل في ثناياه تجديداً جزئياً في الصورة.

ولما كان المجال يضيق عن ذكر الأبيات الزمركية المتضمنـة تجديـداً جزئياً[١]، فسأكتفي بذكر بعضها.

يشعر ابن زمرك بأن شبابه ولّى وهو يمتطي أيام العمر:

أَطْوِي شَبَابِي لِلْمَشِيبِ مَـرَاحِلاً بِرَوَاحِلِ الإِصْبَـاحِ وَالإِمْسَاءِ[٢]

ثم يتهم الزمن بأنه هو الذي أعداه بالشيب:

هٰذَا الصَّبَاحُ صَبَاحُ الشَّيْبِ قَدْ وَضَحَا سَرْعَانَ مَا كَانَ لَيْلاً فَاسْتَنَارَ ضُحَى
لِلدَّهْرِ لَوْنَانِ مِنْ نُورٍ وَمِنْ غَسَقٍ هٰـذَا يُعَـاقِبُ هٰذَا كُلَّمَـا بَرِحَـا
وَتِلْكَ صَبْغَتُـهُ أَعْدَى بَنِيـهِ بِهَـا إِذَا تَرَاخَى مَجَالُ الْعُمْرِ وَانْفَسَحَا[٣]

ولقد ظل سادراً في غيه، فلم يدرك حقيقة أمره إلاّ بعد أن نبهه نور الشيب من رقاده، وأعاده إلى صحوه ورشده:

وَمَنْ نَامَ فِي لَيْلِ الشَّبَابِ فَإِنَّهُ سَيُوقِظُهُ صُبْحُ المَشِيبِ إِلَى الرُّشْدِ[٤]

ويتلخص هذا الغي في أنه وقع في الحب بعد أن أصبح كهلاً، وأن هذا الحب قد أنهكه وانحل جسمه:

وَقُلْتُ لِجِسْمِي: إِنَّهُ ثَوْبُكَ الضَّنَى وَقُلْتُ لِقَلْبِي: إِنَّهُ إِلْفُكَ الْحُبُّ

---

(١) أحصيت هذه الأبيات فبلغت مائة واثنين وستين بيتاً أي ما نسبته ٦٪ تقريباً من مجموع أبياته.
(٢) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٤٨ و«نفح الطيب..»، ٧: ١٨٠.
(٣) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٥١.
(٤) ابن خلدون: «العبر..»، ٧: ٤٥٧ و«التعريف..»، ص ٢٦٥.

وَقَالُوا: صَبَا وَالشَّيْبُ لاَحَ صَبَاحُهُ   فَقُلْتُ: بِبِيضٍ كَالصَّبَاحِ أَنَاصَبُ(١)

ولئن كان يصبو للجمال، بشكل عام، فقد كان يفضل واحدة تمثل هذا الجمال وتستقطبه، وهي تدعى ليلى. ولقد كان مستعداً، من شدة تعلقه بحسنها، أن يجعل خده موطئاً لأخفاف مطيّها:

رَعَى اللَّهُ لَيْلَى لَوْ عَلِمْتُ طَرِيقَهَا   فَرَشْتُ لأَخْفَافِ الْمَطِيِّ بِهَا خَدِّي(٢)

وهو يعرف أن حبه المشتعل المتأجج بين جوانحه يستطيع أن يفعل في الظلام ما لا يفعله البرق نفسه:

يُضِيءُ ظَلاَمَ اللَّيْلِ مَا بَيْنَ أَضْلُعِي   إِذَا الْبَارِقُ النَّجْدِيُّ وَهْناً بَدَالِيَا(٣)

ثم ينطلق هائماً على وجهه يفتش عن سلوى، فلا يجد أمامه إلاّ روضة غناء يحمي خدَّ وردها سيفُ مائها، وتذود عن ثغور زهرها رماحُهـا من العيدان، حتى إذا دنت الريح الشرقية ومسحت بكفها جفون ذلك الزهر، تنفس الصعداء وانتشرت أنفاسه عطراً وعبقاً:

تَمُدُّ لأَكْوَاسِ الْعِرَارِ أَنَامِلاً   مِنَ السَّوْسَنِ الْغَضِّ الْمُخَتَّمِ بِالتِّبْرِ
وَيَحْرُسُ خَدَّ الْوَرْدِ صَارِمُ نَهْرِهَا   وَيُمْنَعُ ثَغْرُ النَّوْرِ بِالذَّابِلِ النَّضْرِ
إِذَا مَسَحَتْ كَفُّ الصَّبَا جَفْنَ نَوْرِهَا   تَنَفَّسَ ثَغْرُ الزَّهْرِ عَنْ عَنْبَرِ الشَّحْرِ(٤)

ثم يرى في الحديقة عواداً يوقع على أوتار عوده لحناً بعد لحن، بكل مهارة وحذق، بحيث كانت ألحانه الرقيقة الشجية المطربة تأخذ طريقها إلى قلبه مباشرة:

---

(١) المقري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٧٤.

(٢) ابن خلدون: «العبر..»، ٧: ٤٥٦ و«التعريف..»، ص ٢٦٤.

(٣) المقري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٥٦ و«نفح الطيب..»، ٧: ١٤٨. وابن الخطيب: «الإحاطة..»، ٢: ٢٢٤.

(٤) المقري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٦٤ و«نفح الطيب..»، ٦: ٧٦. وابن الخطيب: «الكتيبة الكامنة..»، ص ٢٨٥.

جَسَّ القُلُوبَ بِجَسِّهِ أَوْتَارَهُ حَتَّى كَأَنَّ قُلُوبَنَا بَيْنَ الوَتَرْ(١)

ويعود الشاعر إلى تأملاته من جديد، فيجد في كل زاوية من الروضة محاسن جديدة لم يرَ مثلها من قبل، فتتحرك قريحته ويتغزل بتلك المحاسن متغنياً:

كَأَنَّمَا الزَّهْرُ في حَافَاتِهَا سَحَراً دَرَاهِمٌ وَالنَّسِيمُ اللَّدْنُ يَجْبِيهَا
وَأَعْيُنُ النَّرْجِسِ المَطْلُولِ يَانِعَةٌ تَرَقْرَقَ الطَّلُّ دَمْعاً فِي مَآقِيهَا
وَانْظُرْ إِلَى الدَّوْحِ وَالأَنْهَارُ تَكْنُفُهَا مِثْلَ النَّدَامَى سَوَاقِيهَا سَوَاقِيهَا
كَمْ حَوْلَهَا مِنْ بُدُورٍ تَجْتَنِي زَهَراً فَتَحْسَبُ الزَّهْرَ قَدْ قَبَّلْنَ أَيْدِيهَا(٢)

حتى إذا خرج من هذه الروضة أدركه حصان الليل وهو يجرر ذيله الأسود الطويل ويبرق بعيونه اللماعة:

تَأَوَّبَنِي وَاللَّيْلُ يُذْكِي عُيُونَهُ وَيَسْحَبُ مِنْ ذَيْلِ الدُّجُنَّةِ ضَافِيَا(٣)

وتاه الشاعر في العتمة، وانتظر، دون جدوى، طلوع الفجر، ثم تذكر أنه لن يرى الفجر إلاّإذا رأى جبين الغني بالله:

سَرَيْنَا بِلَيْلِ التِّيهِ يَكْذِبُ فَجْرُهُ فَلَمَّا تَجَلَّى فَجْرُهُ صَدَقَ الْفَجْرُ(٤)

فأسرع نحو مليكه، بخطى واسعة، مهتدياً بنوره، فوجده وسط المعمعة يجاهد ويقاتل، وقد شهر سيفه الصقيل اللماع:

وَلَرُبَّ لَمَّاعِ الصِّقَالِ مُشَهَّرٍ مَاضٍ وَلَكِن فِعْلُهُ مُسْتَقْبَلُ
رَقَّتْ مَضَارِبُهُ وَرَاقَ فِرِنْدُهُ فَالْحُسْنُ فِيهِ مُجْمَلٌ وَمُفَصَّلُ

---

(١) المقري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٣٨ و«نفح الطيب..»، ٥: ١٨٠.
(٢) المقري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٢١ و«نفح الطيب..»، ٧: ١٧١.
(٣) المقري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٥٧ و«نفح الطيب..»، ٧: ١٤٨. وابن الخطيب: «الإحاطة..»، ٢: ٢٢٤.
(٤) المقري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٣٦ و«نفح الطيب..»، ٧: ٢٢٨.

فَإِذَا الْحُرُوبُ تَسَعَّرَتْ أَجْزَالُهَا   يَنْسَابُ فِي يُمْنَاكَ مِنْهُ جَدْوَلُ
وَإِذَا دَجَا لَيْلُ الْقَتَامِ رَأَيْتَهُ   وَكَأَنَّهُ فِيهِ ذُبَالٌ مُشْعَلُ(١)

فإذا بفرسان الأعداء المدججين بالسلاح المدرعين بالحديد، المتدفقين كالبحر يستسلمون ويصبحون أسرى الملك، فتستحيل دروعهم الحديدية إلى قيود في أرجلهم:

كَانُوا بِحَاراً مِنْ حَدِيدٍ زَاخِرٍ   أَذْكَتْهُمُ نَارُ الْوَغَى فَتَسَيَّلُوا
كَانَ الْحَدِيدُ لِبَاسَهُمْ وَشِعَارَهُمْ   وَالْيَوْمَ لَمْ تَلْبَسْهُ إِلَّا الْأَرْجُلُ(٢)

ويرى الشاعر عقاباً تطير فوق الغني بالله، لا لتأكل ما يصطاده من الهامات، بل لتهديه، هي، ما اصطادته إعجاباً بشجاعته وإكراماً له على جهاده:

وَسَرَتْ عُقَابُ الْجَوِّ تُهْدِيكَ الَّذِي   تَصْطَادُ مِنْ وَحْشٍ وَمِنْ أَطْيَارِ(٣)

هذا الجهاد الذي أخاف العدى وأيأسهم حين أباح لسيفه المرهف المسلول دماءهم:

وَأَقَامَ مَفْرُوضَ الْجِهَادِ بِعَزْمَةٍ   تَرَكَتْ بِأَفْئِدَةِ الْعِدَاةِ فُلُولَا
وَكَأَنَّ صَفْحَ الْبَرْقِ سَيْفُكَ ظَلَّ مِنْ   غِمْدِ الْغَمَامَةِ مُرْهَفاً مَسْلُولَا
لَمْ يَرْضَ سَيْفُكَ أَنْ يُحَلَّى جَوْهَراً   حَتَّى يُحَلَّى عَسْجَداً مَحْلُولَا(٤)

ويعود الغني بالله مظفراً منصوراً، ويدخل الشاعر إلى بلاطه فيقف بين يديه والحماسة تؤجج عاطفته فينشده قائلاً:

(١) المقري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١١٤ و١١٥ و«نفح الطيب..»، ٧: ٢٠٩.
(٢) المقري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١١٨ و«نفح الطيب..»، ٧: ٢١٢.
(٣) المقري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٠٥ و«نفح الطيب..»، ٧: ١٥٦. وابن الخطيب: «الإحاطة..»، ٢: ٢٣٢.
(٤) المقري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٠١.

حُسَامُكَ رَقْرَاقُ الصَّفِيحِ كَأَنَّهُ بِكَفِّكَ مِنْ مَاءِ السَّمَاءِ يُنَطَّف
ضَعِيفٌ يَصِحُّ النَّصْرُ مِنْ فَتَكَاتِهِ فَيُرْوَى لَنَا مِنْهُ الصَّحِيحُ المُضَعَّفُ
وَرُمْحُكَ مُرْتَاحُ المَعَاطِفِ هِزَّةً كَأَنْ قَدْ سَقَتْهُ مِنْ دَمِ الْكُفْرِ قَرْقَفُ
وَلَا عَيْبَ فِيهِ غَيْرَ أَنَّ سِنَانَهُ إِذَا شَمَّ رِيحَ النَّقْعِ فِي الْحَرْبِ يَرْعَفُ[١]

إنه السلطان الشجاع الذي يُشقي السيوف ويتعبها لشدة ضرباته بها ولكثرة استعمالها:

كَأَنِّي بِهِ يُشْقِي الصَّوَارِمَ وَالظُّبَى وَيَحْطِمُ فِي اللَّأْمِ الصِّلَابِ الْعَوَالِيَا[٢]

ولهذا السبب كانت سيوفه هي التي تروي قصص فتوحاته لما تحمله في متونها من أثر الغزو والقتال بحيث لا يمكن تكذيبها:

مَا صَدَّقُوا مَتْنَ الْحَدِيثِ بِفَتْحِهَا حَتَّى رَأَوْهُ فِي مُتُونِ شِفَارِ[٣]

ويرى الشاعر أن الملك يستحق المدح بأبلغ الكلام وأبدعه، ولهذا انبرى، هو، لهذا المدح فجاء بآيات البلاغة والتبيان وأحسن ما شاء له الإحسان:

مَوْلَايَ خُذْهَا كَمَا شَاءَتْ بَلَاغَتُهَا غَرَّاءَ لَمْ تَعْدَمِ الأَحْجَالَ وَالْقُزَحَا
كَأَنَّ سِرْبَ قَوَافِيهَا إِذَا سَنَحَتْ طَيْرٌ عَلَى فَنَنِ الإِحْسَانِ قَدْ صَدَحَا[٤]

هذه عينة من الأبيات التي جمعتها تحت عنوان التجديد الجزئي. قد يكون فيها تكرار لمعان ألفنا وجود مثلها في شعر المشرق. ولكن ألسنا نشعر ونحن نقرأها بأن فيها شيئاً جديداً؟ ألّا نرى إلى هذا الجمال المتأتى من الصياغة الفنية المجددة التي تنسينا قدم المعنى وتبرز لنا هذه الملاءمة بين رقة

(١) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٥١.
(٢) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٦٠ و«نفح الطيب..»، ٧: ١٥١.
(٣) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٣٠ و«نفح الطيب..»، ٥: ١٧٣.
(٤) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٥٥.

الألفاظ وجزالتها؟ وإلى ذلك النسق الموسيقي البديع الذي ترك في أنفسنا أثراً من جراء مزج الشاعر الناحيتين التصويرية والتعبيرية؟.

الابتكــار:

ونـأتي، أخيراً، إلى الأبيـات التي تتضمن المعاني المبتكـرة فنجـدهـا قليلة[1]. ولئن كنت قد استخرجت في البدء، ضعفي هذه الأبيات، فقد رافقني خوف شديد من أن تكون الذاكرة قد خانتني فذكرت معاني لا يمكن وصفها بالابتكار، فأخذت أحذف بيتاً من هنا وبيتاً من هناك حتى استقر عدد الأبيات على ما سأذكره.

ولقد هممت، مرات كثيرة، بأن اتخلى عن عنوان «الابتكار» وأن أجمع هذه الأبيات تحت عنوان التجديد، لعلمي أن الابتكار شيء صعب لا يقدر عليه إلّا العباقرة، ولظني بأنه لا جديد في الشعر الكلاسيكي إلّا وله جذور في ما سبق قوله من أشعار، لولا أنني وجدت بين هذه الأبيات المستخرجة، أبياتاً لا يشك قارئها بأنها مبتكرة ابتكاراً، معنى وصورة، بحيث يحسب بعضها وكأنه منظوم في هذا العصر على أيدي كبار شعرائه.

وإذا كان عنترة بن شداد، وهو في الجاهلية، يشكو من قلة المعاني غير المطروقة ويتساءل: «هَلْ غَادَرَ الشُّعَرَاءُ مِنْ مُتَـرَدَّمِ؟» فإن هـذا لا يقوم، بالطبع، دليلاً على نفاد المعاني، فالمعاني مطروحة وعلى الشاعر انتقاء مايصلح منها والتعبير عنه بشكل جيد، كما أن هذا لا ينهض، بالتأكيد، حجة على الدارس الذي يرى شيئاً جديداً في شعر شاعر من القرن الثامن الهجري (القـرن الرابـع عشر الميـلادي)، فلكل شـاعر بيئتـه ولكل بيئـة مميزاتهـا وخصائصها، وهذه المميزات والخصائص توحي بمعان لا تنفد. أضف إلى

(١) بلغت تسعة وثلاثين بيتاً أي ما نسبته $\frac{١}{٢}$ ١٪ تقريباً.

هذا كله العنصر الإنساني، فلو افترضنا أن ثلاثة شعراء معاصرين وقفوا أمام مشهد طبيعي جميل وطلبنا من كل منهم أن ينظم قصيدة في وصف هذا المشهد فلا شك في أننا سنحصل على صور ثلاث مختلفة للمشهد نفسه، ذلك بأن لكل شاعر رؤيته الخاصة وانفعاله الذاتي وطريقته في التخيل وأسلوبه في النظم.

وإذا كان الأمر كذلك بالنسبة إلى شعراء من عصر واحد، فما بالنا بشعراء من عصور مختلفة؟.

والواقع أنه لا خلاف حول وجود أشياء جديدة، مهما تكن قليلة، عند كل شاعر يستحق هذا اللقب، وأن الشعراء إنّما يتمايزون بقدر ما لديهم من تجديد، وإن التجديد، كان ولا يزال ضرورة إنسانية ملحّة يسعى إليها الشعراء وغيرهم من أصحاب الفنون.

لكل شاعر، إذاً، حظه من التجديد، قلّ أو كثر. وابن زمرك لم يكن، كما رأيناه، شويعراً بل كان شاعراً. وله من المعاني الجديد المبتكرة ما يعجب ويدهش، كما سنرى. فإن قال قائل: «ولكن جديده قليل» كانت الإجابة بأن العبرة ليست في «الكم» بل في «الكيف».

ولقد كان النقاد القدامى يزعمون أن البيت الفلاني للشاعر فلان يساوي قصيدة، بل إنهم كانوا يحكمون على أفضلية هذا الشاعر أو ذاك لبيت قاله. وإن كنا، نحن، لا نؤمن بأي حكم يؤسس على مثل هذه الطريقة في ميدان نقد الشعر، فعلينا أن نعترف، على الأقل، بأن هذا يؤكد على أن «الكم» الشعري لا يحسب حسابه في النقد.

ولئن كان العرب يفضلون الشاعر المكثر فلأن الإكثار من الشعر يحسّن النظم ويقوّي البديهة فيصبح بمقدور الشاعر أن يبتعد من رديء الشعر

ويقترب من جيده، وبتعبير آخر، لأن الإكثار من الشعر وسيلة إلى نظم الجيد منه، لا غاية في حد ذاته.

وابن زمرك كان شاعراً مكثراً، بلا ريب. ولقد كان يدرك تماماً أن عليه أن يغوص على المعاني الجديدة ويجدّ في طلبها. فكان إذا وجد منها شيئاً صاغه في قالب تعبيري شائق، فأعجب به وأخذ يعيد صياغته في قصيدة أخرى وفي ثالثة... وهكذا دواليك.

من هنا كانت المعاني الجديدة عنده مكررة، فإذا عددنا الأبيات التجديدية، بغض النظر عن التكرار المذكور، بلغت ما يقرب من مائة بيت. على أن هذه الدراسة لا تكترث لعدد الأبيات، وإنما تحفل بالكشف عن المعاني الجديدة. لذلك سأعرض، هنا، هذا الجديد عرضاً مفصلاً شاملاً.

قال ابن زمرك:

وَالْهَادِيَاتُ يَؤُمُّهَا عَبْلُ الشَّوَى ... مُتَدَفِّقٌ كَتَدَفُّقِ التَّيَّارِ
أَثْبَتُّ فِيهِ الرُّمْحَ ثُمَّ تَرَكْتَهُ ... خَضِبَ الجَوَانِحِ بِالدَّمِ المَوَّارِ
حَامَتْ عَلَيْهِ الذَّابِلاَتُ كَأَنَّهَا ... طَيْرٌ أَوَتْ مِنْهُ إِلَى أَوْكَارِ(١)

في هذه الأبيات يصف الشاعر كيف استطاع الغني بالله أن يلحق بذلك الثور الذي يتقدم الهاديات، فيضربه برمحه ويتركه مخضباً بدمائه. حتى إذا وصل رفاقه ورأوا «عبل الشوى» قعيد الطعنة رحيب الفرغ، انهالوا برماحهم عليه فكأن هذا الثور أصبح وكراً وتلك الرماح طيوراً.

وَرَوَى عَنِ الضَّحَّاكِ عَنْ زَهْرِ الرُّبَى ... مَا أَسْنَدَ الزُّهْرِيُّ عَنْهُ عَنْ مَطَرْ
وَتَحَمَّلَتْ عَنْهُ حَدِيثَ صَحِيحِهِ ... رُسُلُ النَّسِيمِ وَصَدَّقَ الخُبْرُ الْخَبَرْ(٢)

---

(١) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٠٦ و«نفح الطيب..»، ٧: ١٥٦. وابن الخطيب: «الإحاطة..»، ٢: ٢٣٢.

(٢) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٢٣ و«نفح الطيب..»، ٧: ٢١٧.

والجديد في هذين البيتين تأثر الشاعر برواية الحديث الشريف. فهذا لا يكون صحيحاً إلّا إذا كان رواته من الثقاة غير المشكوك في أخلاقهم وصدقهم. لذلك لجأ الشاعر إلى هذا التسلسل العنعني فأسند حديث الزهر مسلسلاً حتى وصل النسيم الذي حمل هذا الحديث (العطر) ونشره، فإذا به صحيح يوافق الواقع الصريح ولا يحتاج إلى تعديل أو تجريح.

وَمَسْرَى رِكَابٍ لِلصَّبَا قَدْ وَنَتْ بِهِ   نَجَائِبُ سُحْبٍ لِلترابِ نُزُوعُهَا
تَسُلُّ سُيُوفَ الْبَرْقِ أَيْدِي حُدَاتِهَا   فَتَنْهَلُّ خَوْفاً مِنْ سَطَاهَا دُمُوعُهَا(١)

إنها، لعمري، لوحة رائعة، صوَّرتها ريشة خيال الشاعر الذي استطاع أن يلبس الفكرة الأزلية للغيم والبرق والمطر ثوباً قشيباً موشى بصورة قل مثيلها في الحسن والإبداع!

وَكَتِيبَةٍ لِلشَّوْقِ قَدْ جَهَّزْتُهَا   أَغْزُو بِهَا السُّلْوَانَ غَزْوَ مُصَمِّمِ
وَرَفَعْتُ فِيهَا الْقَلْبَ بَنْداً خَافِقاً   وَأَرَيْتُ لِلْعُشَّاقِ فَضْلَ تَهَمُّمِي(٢)

لعل الشوق والسلوان والقلب والعشاق من أكثر الألفاظ استعمالاً في غرض الحب. وبالرغم من هذا استطاع الشاعر أن يضمن هذه الألفاظ بيتين من الشعر، فإذا به يغزو قلوبنا بهما كما غزا السلوان... وإذا به يصور شوقه غازياً في كتيبة علمها الخفاق هو القلب، فيرينا ما وراء اللفظ من معنى جديد مبتكر، تماماً كما أرى العشاق فضل تحسسه بالحب ومكابدته الجوى والحنين.

تَجْرِي الرُّؤُوسُ حَبَاباً فَوْقَ صَفْحَتِهِ   وَمَا جَرَى غَيْرَ أَنَّ الْبَأْسَ يُجْرِيهَا(٣)

أفلا نرى إلى رؤوس الأعداء كيف يقطعها الغني بالله بسيفه، فتتدحرج على متن السيف وكأنها، لبياضها واستدارتها، حباب الخمر أو زبد الماء؟!.

(١) ابن الخطيب: «الإحاطة..»، ٢: ٢٣٦. والمقّري: نفح الطيب..»، ٧: ١٥٩.
(٢) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٦١ و«نفح الطيب..»، ٧: ١٨٤.
(٣) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٢٦ و«نفح الطيب..»، ٧: ١٧٥.

وَلَـرُبَّ رَوْضٍ لِلْقَنَا مُتَـأَوِّدٍ   نَـابَ الصَّهِيلُ بِـهِ عَنْ الأَطْـيَارِ
مَهْمَا حَكَتْ زُهْرُ الأَسِنَـةِ زَهْرَهُ   حَكَتِ السُّيُوفُ مَعَاطِفَ الأَنْهَارِ(١)

ميدان المعركة أصبح روضاً: الخيول الصاهلة هي أطياره المغـردة، ورؤوس الأسنة هي زهره، والسيوف اللماعة هي ما يجري فيه من مياه!!.

تُقَلِّدُ أَجْيَـادَ الـطُّرُوسِ تَمَـائِمـاً   بِصِنْفَيْ لآلٍ مِنْ نِظَامٍ وَمِنْ نَثْرِ
تَهَيَّبَكَ القِرْطَاسُ فَاحْمَرَّ إِذْ غَدَا   يُقِلُّ بُحُوراً مِنْ أَنَامِلِكَ الْعَشْرِ
كَأَنَّ رِيَاضَ الطِّرْسِ خَدٌّ مُوَرَّدٌ   يُطَرِّزُهُ وَشْيُ العِذَارِ مِنَ الْحِبْرِ(٢)

أفلا ننظر إلى ذلك القرطاس الذي يَوْجَل من توقيع أنامل الكاتب (لسان الدين ابن الخطيب) عليه، فَيحمرُّ ويُشْبِهُ بما فيه من كتابة خداً موشى بنقاط الحبر الأسود.

وَابْلُلْ بِهَا رَمَقَ الأَصِيلِ عَشِيَّةً   وَالشَّمْسُ مِنْ وَعْدِ الْغُرُوبِ عَلَى خَطَرْ
مُحْمَـرَّةٌ مُصْفَـرَّةٌ قَـدْ أَظْهَـرَتْ   خَجَلَ الْمُرِيبِ يَشُوبُهُ وَجَلُ الْحَذِرْ(٣)

يتحدث الشاعر، هنا، عن الخمر، فيصفها بالاحمرار والاصفرار وليس في هذا أي جديد يؤبه له، ولكن أن تكون الخمر قد اصطبغت بهذين اللونين لأنها تبعث على الريبة المخجلة وتتصف بالحذر والخوف، فهنا مكمن الجدة!.

بَاكَرْتُهُ وَالأُفْقُ قَدْ خَلَعَ الـدُّجَى   مِسْحـاً لِـيَلْبَسَ حُـلَّةَ الإِسْفَـارِ
وَجَرَى بِهِ نَهْرُ النَّهَارِ كَمِثْلِ مَا   سَكَبَ النَّدِيمُ سُلَافَةً مِنْ قَارِ(٤)

هل سمعنا مرة بوجود خمر تشبه القار بسوادها وطعمها، يسكبها نديم

(١) المقري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٣٣ و«نفح الطيب..»، ٥: ١٧٥.
(٢) المقري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٦٤ و«نفح الطيب..»، ٦: ٧٥ و٧٦. وابن الخطيب: «الكتيبة الكامنة..»، ص ٢٨٤.
(٣) المقري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٣٦ و«نفح الطيب..»، ٥: ١٧٨.
(٤) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٠٥ و«نفح الطيب..»، ٧: ١٥٦. وابن الخطيب: «الإحاطة..»، ٢: ٢٣٢.

أبيض البشرة لصاحبه؟ إذاً، فَلْنُعِدْ قراءة هذا البيت ونستمتع بما فيه من صورة جميلة: لقد جرف النهار كل ما في طريقه من ظلمة كالنهر يجرف سواد التربة!.

وَلَاحَ عَمُودُ الصُّبْحِ مِثْلَ انْتِسَابِهِ رَفَعْتُ عَلَيْهِ لِلْمَدِيحِ الْمَبَانِيَا(١)

ألا نلاحظ هذا الصبح الذي غدا عموداً، وهذا المديح الذي أصبح بناءً قائماً على ذلك العمود؟!.

فَأَنْشَأَ بُرْجاً صَاعِداً مُتَنَزِّلاً يَكُونُ رَسُولاً بَيْنَهَا مُتَرَدِّدَا(٢)

لا بد أن يلفت انتباهنا هذا البيت، لأننا نرى فيه وجهاً حضارياً غير معهود في زمانه، ألا وهو هذا الرسول المتردد بين طبقات القصر، وأعني به الصاعد الذي ندهش لوجوده في ذلك العصر!!.

وَعَلَى الْكَثِيبِ سَوَابِحٌ حُمْرُ الحُلَى بِيضُ الْوُجُوهِ يُصَدْنَ بِالْأَفْكَارِ(٣)

لكأني بهؤلاء الحسان قد تحولن إلى ظباء ترتع على الكثبان، وكأني بأفكار الشاعر قد استحالت، بما فيها من حب وأمل، سهاماً تسعى إلى إصابة هذه الظباء والإمساك بها. فتأمل معي هذا المعنى الذي لم يسبق إليه.

عَلَى كُلِّ نِضْوٍ مِثْلُهُ فَكَأَنَّمَا رَمَى مِنْهُمَا صَدْرَ المفَازَةِ سَهْمَانِ(٤)

المطية حرف أنضاها الوجى، وراكبها ضامر أنحله النصب، فكأنهما، وهما يفوّزان الفلاة، سهمان سريعان.

لَمْ يَعْرِفِ التَّرْكِيبَ سَيْفُكَ فِي الْوَغَى فَاعْجَبْ لَهُ قَدْ أَحْكَمَ التَّحْلِيلَا(٥)

(١) المقري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٦٧ و«نفح الطيب..»، ٧: ١٩٠.
(٢) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٩٠ و«نفح الطيب..»، ٧: ٢٠٣.
(٣) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٠٤ و«نفح الطيب..»، ٧: ١٥٥.
(٤) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٤٤ و«نفح الطيب..»، ٥: ٤٧.
(٥) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٠١.

إذا كنا لا نَعجب لذاك السيف الجاهل العالم، فإننـا، في الواقـع، نُعجب بهذا المعنى الطريف الذي أتى به الشاعر معتمداً فيه عـلى لفظين علميين هما التركيب (Synthèse) والتحليل (Analyse).

أَوْ أَدْهَمٍ كَـاللَّيْـلِ قُلِّدَ شُهْبَـهُ   خَاضَ الصَّبَاحَ فَأَثْبَتَتْهُ الأَرْجُلُ(١)
وَأَدْهَمُ فِي مِسْحِ الدُّجَى مَتَلَفِّعٌ   وَقَدْ خَاضَ مِنْهُ فِي الصَّبَاحِ الأَسَافِلُ(٢)

ما رأيك بهذا الحصان الأسود الذي ابيضَّتْ أرجله فكأنما كان يخوض نهر الصباح فصبغها بلونه!؟ إنه معنى مبتكر رائع بلا شك.

شَمَـائِلُهُ مَهْمَا أُدِيـرَتْ كُؤُوسُهَـا   قَـلاَئِدُ أَسْمَـاعٍ وَأُنْسُ قُلُوبِ(٣)

ألا ترى إلى هذه السجايا التي يتحلى بها الغني بالله؟ إنها، لعظمتها، تفعل فعل الخمر حين تذكر، إذ تأنس بها القلوب، وتطرب لها الأسماع، بل إنها في الآذان كالقلادة البديعة في الجيد البديع لا يفكها الملوان.

بَرَاهَا الْهَوَى بَرْيَ الْقِدَاحِ وَخَطَّهَا   حُرُوفاً عَلَى صَفْحٍ مِنَ الْقَفْرِ مُمْتَدِّ(٤)

يتحدث الشاعر عن النوق التي تسير في الفلاة. لقد أنحلها شوقها إلى ورود نجد، فأصبحت من نحولها كالحروف المرسومـة على صحيفـة كبيرة بيضاء!.

رَكِبْنَا إِلَى الإِحْسَانِ فِي سُفُنِ الرَّجَا   بُحُورَ عَطَاءٍ لَيْسَ تَجْزُرُ عَنْ مَدِّ(٥)

أن يوصف الغني بالله بأنه بحر سماحة يفيض على الناس عطاءً وكرماً، فهذا معنى تقليدي قديم، ولكن أن يركب الشاعر سفينة الرجاء ويخوض

(١) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١١٩ و«نفح الطيب..»، ٧: ٢١٣.
(٢) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٧٦.
(٣) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٤٢ و«نفح الطيب..»، ٧: ٢٣٢.
(٤) ابن خلدون: «العبر..»، ٧: ٤٥٦ و«التعريف..»، ص ٢٦٣.
(٥) ابن خلدون: «العبر..» ٧: ٤٥٧ و«التعريف..»، ص ٢٦٦.

غمار بحر ممتد لا يَعرف شاطئُه معنى الجزر ـ فهذا من المعاني التي نلمس فيها تجديداً ظاهراً.

لَا يُحْرِزُ المَجْدَ الْخَطِيرَ سِوَى امْرِىءٍ   يُمْطِي الْعَزَائِمَ صَهْوَةَ الأَخْطَارِ(١)

انظر إلى هذه الأخطار وإلى تلك العزائم، فهي لم تعد مجرد معان ذهنية، لقد حولها خيال الشاعر إلى أشياء حسية تلمس وتحس فإذا بعزيمة الغني بالله تصبح فارساً مقداماً لا يهاب، وإذا بالخطر الداهم يغدو مطية ذلولاً تحت فارسها يعطفها حين يشاء ويستوقفها متى يريد!!.

نَتَجَشَّمُ الأَهْوَالَ فِي طَلَبِ الْعُلَا   وَنَرُوعُ سِرْبَ النَّوْمِ بِالأَفْكَارِ(٢)

ما هذا السرب الذي يلوح عن بعد؟ هل هو قطيع ظباء هجم عليها الليث فجفّلها عن مراعيها؟ أم هو سرب قطا حطت على جانب نهر حتى إذا رأت الصياد ارتاعت ولم تعد آمنة في سربها، فهبت تطير هاربة، لعلها تنجو من الموت؟ كلا! لا هذه ولا تلك، إنها سرب هنيهات النوم طردها التفكير فولت عن صاحبها فظل أرقاً مسهداً.

وَبُلْبُلُ الدَّوْحِ إِنْ تَغَنَّى   أَسْهَرَ لَيْلي إِلَى الصَّبَاحْ(٣)

يحدث كثيراً أن يسهر الإنسان إلى الصباح، أما أن يُسهرَ البلبلُ الليلَ حتى الصباح فهذا معنى طريف.

وَكَيْفَ بِالسُّلْوَانْ   وَالْقَلْبُ رَهْنُ الفِكَرِ
وَسُحُبُ الْهِجْرَانْ   تَحْجُبُ وَجْهَ الْقَمَرِ(٤)

(١) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٧١ و«نفح الطيب..»، ٧: ١٥٢.
(٢) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٧٠ و«نفح الطيب..»، ٧: ١٥٢.
(٣) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٧٧ و«نفح الطيب..»، ٧: ٢٤١.
(٤) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٨٤ و«نفح الطيب..»، ٧: ٢٤٧.

حين شبّه الشاعر حبيبته بالقمر، شبّه هجرانها بالسحب التي تحجب القمر فلا يعود إلى الظهور ما لم تنقشع.

وَالْحُبُّ ذُو عُدْوَانْ   يَجْهَدُ فِي ظُلْمِ الْبَرِي[1]

متى كان الحب ذا عدوان؟ وكيف يظلم البريء؟ وهل أتى بهذا المعنى شاعر من قبل؟.

وهكذا نرى، في ما مرّ ذكره من أبيات مبتكرة، كيف استطاع ابن زمـرك أن يتخطى، بسهولة، عتبة التقليد، وأن يصل في بعض هذه الأبيات (حروف النوق... وسحب الهجران... وسهر الليل... وسرب النوم...) إلى قُلّة الإبداع، بل إنه تجاوز التراكم الكمي إلى التحول الكيفي في شكل صور شعرية براقة تأسر وتبهر (خوض الحصان الصباح واصطبـاغ أرجله بلونه... نجائب السحب وسيوف برقها ودموعها الخائفة...).

ولئن كان النقاد المعاصرون يركزون على مكمن الإثارة في الشعـر، ويتحدثون عن الصدمة أو الدهشة التي يبعثها في نفس القارىء، فلعلهم سيجدون ما يثير اهتمامهم وعجبهم في بعض تلك الأبيـات (قلائـد من السمع.. وفكر صياد... وعزيمة تمتطي صهوات الأخطار...).

---

(١) المقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ١٨٥ و«نفح الطيب..»، ٧: ٢٤٨.

الخاتمة

بعد هذا العرض المفصل لنتاج ابن زمرك، لا بدّ من تقويمه. ويجب أن يكون هذا التقويم عادلاً وموضوعياً، ذلك بأن الحكم على الظاهرات الأدبية، بعد تحليل جوهرها، يجب أن يكون حكماً بعيداً عن الانطباعات الشخصية، مبنياً على الاستدلال الصريح غير معتمد على هوى في النفس أو منحازٍ إلى رأي مسبق.

فقد اكتشفت أن الأدب الأندلسي، بصورة خاصة، معرَّض للتهشيم والتجريح بحجة أنه أدب تقليدي لا جديد فيه، ما خلا الموشحات. بل إن هذه الموشحات نالت نصيبها من الطعن بعد القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي).

ولعله من الطريف أن أذكر، هنا، أني قرأت كثيراً من الكتب الأدبية التي تبحث في فنون الأدب، وكان معظمها يمر مرور الكرام بالشعر الأندلسي، فلا يكاد يتعرض له إلّا في أسطر قليلة لا غناء فيها، ولا ينسى بعض هذه الكتب أن يذكر أن الشعر الأندلسي إنما هو مجرد تقليد للشعر المشرقي[1]، وأنه لم يكد يتجدد إلّا في بعض الألفاظ دون المعاني، ثم

(١) أمين، أحمد: «ظهر الإسلام»، ٣: ١٠٤ و١٠٥. وخالص، د. صلاح: «أشبيلية في القرن الخامس الهجري»، ص ٨٥.

يستشهد على هذه الجدة بأشطر قليلة من موشح نظمه... شاعر مشرقي!!؟[١].

ولقد رسخ في ذهني اعتقاد بأن الشاعر الأندلسي مظلوم، وأن على نقاد الأدب أن يرفعوا هذا الظلم عنه. وها أنا اعترف، ببساطة وصدق، أنني ظلمت ابن زمرك نفسه! ذلك بأنني كلما قرأت أشعاره كنت أحس أن له أبياتاً جديدة المعنى لم أذكرها في الفصل الذي عقدته لبيان جديده.

على أن صفتي الجدة والتقليد تنصبان في الأساس على كيفية تعامل الشاعر مع أداته، دون أن يخرج على تراث التشكيل اللغوي. فليس المطلوب من الشاعر، لكي يعدّ مجدداً، أن يغوص دائماً في عالم الأعاجيب ويأتي بما يند عن الفهم لغرابته! ثم إن الشعر من الجماليات التي تجافي العلم. لذلك فإن القصيدة ليست مجرد نص لغوي جامد، إنها بنية رمزية يقيمها تنظيم لغوي وتحمل من عناصر العاطفة والتلوين الجمالي والمسحة الخيالية والقيم الإنسانية والواقعين المكاني والزماني ما يجعلها كائناً حيّاً ينبض بالحركة ولا يخضع لقانون الأشياء والجمادات.

من هنا كان على الناقد، لكي يأمن التعثر فالسقوط، أن يعوّل في أحكامه على موازين فكرية صحيحة أساسها الذوق والفهم السليمان والمخزون الثقافي الواسع، فلا يحكم على قصيدة منظومة قبل قرون، إذالم ينظر إلى تلك القصيدة بمنظار العصر الذي نظمت فيه.

ثم إن قضية الحكم على شعر شاعر لا تنحصر في التأكيد على تقليديته، طالما أن التقليد لا يكون عيباً إذا حمل في ذاته بذور التجديد، بل تتبلور في الأسئلة التالية: هل استطاع تقليد الشاعر سواه أن يحمله على عبور جسر

(١) حاوي، إيليا: «فن الشعر الخمري»، دار الشرق الجديد، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٦٠، ص ٢٠٠. وغريّب، جورج: «شعر اللهو والخمر»، دار الثقافة، الطبعة الأولى، ١٩٦٦، ص ٥٣ و ٥٥.

التقليد إلى مدينة التجديد؟ وما هذا الجديد الذي أتى به؟ وهل له قيمة أو أثر بحيث يستطيع أن يضيف ساقية صغيرة إلى ذلك الخضم المسمّى بالتراث الشعري؟.

من هذا المنطلق، يسهل الحكم على ابن زمرك بأنه شاعر، لأنه اتخذ من تقليده، سبيلاً يعبره إلى تلك المعاني المبتكرة التي أجد بعضها يساير ثقافة عصرنا وذوقه.

على أنه يحسن بي، أن أذكر هنا، آراء النقاد القدامى والمعاصرين في شعر ابن زمرك. وأبدأ بلسان الدين بن الخطيب الذي كان أستاذه وأعلم الناس به وبالشعر الجيد في زمانه، فإذا به يصفه بفارس النظم «اللعوب بأطراف الكلام المشقق»[١]. ويصف شعره بأنه: «مترام إلى هدف الإجادة... كلف بالمعاني البديعة والألفاظ الصقيلة، غزير المادة...»[٢].

وهو يقول في «الكتيبة...» الذي نظمه بعد خلافه مع ابن زمرك: «وآدابه مستميلة... ينظم وينثر، وعلى القيود يعثر، وأكثر إجادته في القصائد التي تطول ويلوى بدينها الطبع المطول...»[٣].

أما إسماعيل بن يوسف بن نصر، صاحب كتاب «نثير فرائد الجمان...»، فيقول عنه إنه «تقلد سيف الشعر المحلى وبالإجادة فيه تجلى، ومن ينبوع أدبه انبجس ماء البديهة وانفجر...»[٤].

ويصف السلطان يوسف الثالث ابن نصر، صاحب «البقية والمدرك من شعر ابن زمرك»، قصائده بأنها «قلائد عقيان وعقود در ومرجان ترتاح النفوس

(١) ابن الخطيب: «اللمحة البدرية..»، ص ١١٨.
(٢) المقري: «نفح الطيب..»، ٧: ١٤٧.
(٣) ابن الخطيب: «الكتيبة الكامنة..»، ص ٢٨٣.
(٤) «نثير فرائد الجمان..»، ص ٣٢٧ و٣٢٨.

النفيسة لانشادها وتحضر الأبصار والأسماع عند إيرادها....»[١].

ويدلي المقّري بدلوه، فيصف نظمه بالبارع ويقول عنه إنه فطن بالمعاريض قد «امتد في ميدان النظم والنثر باعه، فصدر عنه من المنظوم في أمداحه قصائد بعيدة الشأو في مدى الإجادة...»[٢].

أما النقاد المعاصرون فقد أجمعوا، أيضاً، على أنه شاعر وإن اختلفت آراؤهم في شعره!.

فغرسيا ـ غومس يلقبه بـ «بلبل الحمراء الغريد»[٣] وينعته مرة بالشاعر الكبير[٤] وحيناً بالشاعر العظيم[٣]، ومرة ثالثة بالعلم الممتاز[٥].

ويقول إنه «جماع لألوان الجناس والطباق... وموسيقاه غاية في الجمال والاتقان... وهو في ترتيب هذه الأشياء، أقرب ما يكون إلى عبقرية المتنبي، فهو يملك سر الإيقاع... وربما جاء ذلك كله بارداً شاحباً ولكنه يرن بروعة...»[٦].

ووصفه ليفي ـ بروفنسال بالشاعر المشهور[٧]. وقال جان ريد: إنه كان شخصية أدبية بارزة.

أما كراتشكوفسكي فيعده تابعاً، ويرى أشعاره عادية جداً لأنها «تعطينا الإحساس بالفقر الحقيقي لشعر البلاط الذي فقد في الأندلس كما فقد في

(١) المقّري: «نفح الطيب..»، ٧: ١٦٤ و ١٦٥.
(٢) المقّري: «نفح الطيب..»، ٧: ١٤٦.
(٣) «مع شعراء الأندلس» ص ٢٥٤.
(٤) نفسه، ص ٢٣٥.
(٥) «الشعر الأندلسي»، ص ٧٢.
(٦) «مع شعراء الأندلس..»، ص ٢٢٧ و ٢٢٨.
(٧) «محاضرات في أدب الأندلس..»، ص ١٨.

جميع البلاد العربية، كل رابطة مع الإحساس والتنفس الحي وتحول إلى مجرد بلاغة مدرسية»(١).

ويلوح لمحمد عبد الله عنان أن ابن زمرك «أعظم شخصية تزعمت، من بعد ابن الخطيب، الحركة الأدبية في الأندلس»(٢)، وأنه «قد يتفوق في شاعريته على أستاذه ابن الخطيب»(٣).

هذا مجمل آراء النقاد القدامى والمحدثين في شاعرنا ابن زمرك، عرضتها بإيجاز لأبين موقع هذا الشاعر ومبلغ إجادته في عالم النقد.

وإذا كان لي في النهاية، أن أحدد مرتبته في زمنه فإني أرى أنه ولسانَ الدين ابن الخطيب، أكبرُ شاعرين غرناطيين في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي).

أما شعره الذي تكثر فيه ألوان الاستعارة والتجنيس، ويبرز فيه النغم الموسيقي، ويعطي الانطباع بسهولة نظمه، فيكفي أن يتضمن تلك المعاني المبتكرة وتلك الصياغة القوية، فضلاً عما يحمله من قيم تاريخية واجتماعية ظاهرة في وصفه القصور والمباني وما كان يجري فيها من احتفالات المولد وحفلات الأعذار، وفي وصفه غرناطة وما فيها من حدائق ونوافير وفي ذكره ميدان الطراد وسباق الخيل، وفي تخليده غزوات الغني بالله وجهاده، وفي تعبيره أخيراً عن الذوق الأدبي العام في عصره: يكفي هذا كله ليكون شعره صورة صادقة لعصره على الرغم من أنه كان شاعر بلاط. فبلاط ذلك العصر لم يكن يستطيع الخروج على ما يريده الشعب الغرناطي الذي كان يعجب بمليكه ويحبه لغزواته الجهادية ومعاملته الكريمة وعدله.

---

(١) M.S.P.، ص ١٩٧.

(٢) «الشعر العربي في الأندلس»، ص ٩٠.

(٣) «نهاية الأندلس»، ص ٤٨٢ و ٤٨٤.

ولا يفترض، على كل حال، أن لا يمثل شاعر البلاط عصره بشعره، فنحن نعلم، جميعاً، أن الشعراء العرب مثلوا عصورهم الأدبية أفضل تمثيل مع أنهم كانوا شعراء بلاط.

إن ابن زمرك كان شاعراً، أكثر منه كاتباً، وإذا كان شعره قد استحق أن ينقش على جدران قصور الحمراء، فإن أبا عبد الله بن زمرك يستحق، في الواقع، أن يذكره التاريخ مع من يذكرهم من كبار الشعراء العرب.

* * *

جدول رقم ١
بالمصادر المتضمنة شعر ابن زمرك

صاحب المصدر	المصدر		عدد الأبيات	نسبتها المئوية
المقّري	«أزهار الرياض . .»		٢٤٨١	٩٥٪
المقّري	«نفح الطيب . .»		١٩٠٦	٧٣٪
ابن الخطيب	«الإحاطة . .»	٢٧٧		
ابن خلدون	«العبر . .»	٧٦		
ابن خلدون	«التعريف . .»	٧٦	٥٢١	٢٠٪
ابن الخطيب	«الكتيبة . .»	٦٨		
ابن الأحمر	«نثير فرائد . .»	٢٠		
ابن الخطيب	«أعمال الأعلام . .»	٤		
			٤٩٠٨	
			٢٢٩٤ بيتاً مكرراً	
			٢٦١٤	

ملاحظات

١ ـ انفرد «الأزهار» عن «النفح» بذكر		٦٠٦	٢٣٪
وانفرد «النفح» عن «الأزهار» بذكر		٣١	١٪
وانفردت المصادر الباقية عن «الأزهار» و «النفح» بذكر:			
«التعريف . .»	٧٦		
«الإحاطة . .»	١٩		
«أعمال الأعلام . .»	٤	١٠٢	٤٪
«الكتيبة . .»	٢		
«العبر . .»	١		

٢ ـ الموشحات موجودة في «الأزهار» و «النفح» فقط . . وهي لا تدخل، بالطبع، في أرقام هذا الجدول.

جدول رقم ٢
بالبحور التي نظم عليها ابن زمرك قصائده ومقطعاته

اسم البحر		عدد الأبيات	نسبتها المئوية
الطويل		١١٦٩	٪٤٤ ١/٢
الكامل		١٠٩٧	٪٤٢
البسيط		٢٧٤	٪١٠ ١/٢
الرمل	١٨		
الخفيف	١٥		
الرجز	١٤		
المجتث	١٢	٧٤	٪٣
الوافر	٧		
السريع	٥		
المتقارب	٣		
		٢٦١٤	٪١٠٠

جدول رقم ٣
بالأحرف الأكثر استعمالاً كروي

الروي			عدد الأبيات	نسبتها المئوية
الـلام			٥٥٨	٢١ ١/٢٪
	المكسورة	٣١٩		
الراء	الساكنة	١١٤	٤٨٨	١٨ ١/٢٪
	المضمومة	٣١		
	المفتوحة	٢٤		
الياء			٢٥٠	٩ ١/٢٪
الدال			٢٣٤	٩٪
الهاء			٢٣٢	٩٪
الميم			١٨٥	٧٪
النون			١١١	٤ ١/٤٪
الهمزة			١٠١	٤٪
الحاء		٩٧		
الفاء		٧٠		
الباء		٦٩		
القاف		٦٦		
السين		٥٧		
العين		٥٥	٤٥٥	١٧ ١/٤٪
الكاف		٢١		
التاء		١٠		
الذال		٦		
الضاد		٢		
الجيم		٢		
			٢٦١٤	١٠٠٪

جدول رقم ٤
بأغراض ابن زمرك الصرفة

الغرض			عدد الأبيات	نسبتها المئوية
المدح	المدح النبوي	١٧٤	١٥١٦	٪٥٨
	مدح الغني بالله	١١٦٢		
	مدح آخرين	١٨٠		
الوصف			٥٢٥	٪٢٠
النسيب			٢٣٤	٪٩
الرثاء			٢٠٥	٪٨
الفخر			٥٢	٪٢
مختلف			٨٢	٪٣
			٢٦١٤	٪١٠٠

جدول رقم ٥
بأهم الأحداث والماجريات
الواقعة في العهد النصري الثاني
(القرن الهجري الثامن - الرابع عشر الميلادي)

الهجري(١)	الميـلادي	الحـدث
٧٠١ ربيع الثاني	١٣٠١ كانون الأول	تجديد معاهدة «الصلح الثابت والصحبة الصادقة» بين محمد الثاني الملقب بالفقيه سلطان غرناطة وبين خايمي الثاني ملك أراغون(٢).
٧٠١	١٣٠٢	وفاة محمد الثاني ومبايعة ابنه محمد الثالث الملقب بالمخلوع(٣)
٧٠٣	١٣٠٢-١٣٠٣	ثورة أبي الحجاج بن نصر بوادي آش على محمد الثالث الذي بادره فتغلب عليه وقتله(٤).
٧٠٥	١٣٠٥	تمرد والي ألمرية سليمان بن الربيع بتحريض من أراغون وهزيمته(٥).
٧٠٥ شوال	١٣٠٦ نيسان - أيار	استيلاء محمد الثالث على سبتة العائدة لملك المغرب(٦).
٧٠٦ ذو القعدة	١٣٠٧ أيار	اغتيال السلطان أبي يعقوب يوسف بن يعقوب بن عبد

(١) تم تحويل الهجري إلى الميلادي وبالعكس بموجب جدول «توفيق السنين الهجرية مع السنين المسيحية» الوارد في معجم «المنجد في اللغة»، ص ٣٥٦-٣٥٨.

(٢) Alarcón y Santón, M.A. y De Linares, R.G.: «Los Documentos Arabes Diplomaticos del Archivo de la Corona de Aragon», (D.A.D.A.C.A.), Madrid, 1940, p. 7.

(٣) ابن الخطيب: «اللمحة البدرية..»، ص ٢٢. وابن خلدون: «العبر..»، ٧: ٢٢٨. والقلقشندي: «صبح الأعشى..»، ٥: ٢٦١.

(٤) ابن الخطيب: «اللمحة البدرية..»، ص ٥٣ و«أعمال الأعلام..»، ص ٢٩٢. و«الإحاطة..»، ١: ٥٥٩.

(٥) Scott, S.P.: «History of the Moorish Empire in Europe» (H.M.E.E.), 1904, 3: 448.

(٦) ابن الخطيب: «اللمحة البدرية..»، ص ٥٣ و«الإحاطة..»، ١: ٥٦٠.

الهجري	الميلادي	الحدث
		الحق المريني وارتقاء أبي ثابت عامر ابن عبد الله بن يوسف بن يعقوب بن عبد الحق عرش المغرب[١].
٧٠٨ صفر	١٣٠٨ تموز	وفاة السلطان أبي ثابت إثر مرضه ومبايعة أخيه أبي الربيع سليمان[٢].
٧٠٨ منتصفها	١٣٠٨ أواخرها	إبرام معاهدة تحالف بين خايمي الثاني ملك أراغون وفرناندو الرابع ملك قشتالة[٣].
٧٠٨ شوال	١٣٠٩ آذار	مقتل الوزير ابن الحكيم[٤] وإرغام محمد الثالث على التنازل عن العرش لأخيه أبي الجيوش نصر ونفيه إلى المنكّب[٥].
٧٠٩ صفر	١٣٠٩ تموز ـ آب	عودة سبتة إلى بني مرين[٦].

(١) القلقشندي: «مآثر الأنافة..»، ص ١٤٣ وقد ورد فيه أن أبا يعقوب «بقي حتى طعنه خصي من بعض خدمه وهو نائم على فراشه فمات في ٧ ذي القعدة عام ٧٠٦هـ». وإسماعيل بن الأحمر: «روضة النسرين..»، ص ٢١ ورد فيه أن أبا يعقوب «بويع في غرة صفر سنة ٦٨٥هـ (٢٩ آذار ١٢٨٦)، وقتل في ضحى يوم الأربعاء السابع لذي القعدة عام ٧٠٦هـ (١٠ أيار ١٣٠٧).

(٢) ابن الأحمر: «روضة النسرين..»، ص ٢٢. وقد أورد القلقشندي في «مآثر الأنافة..»، ص ١٤٤: «فبقي أبو ثابت حتى مات بطنجه من أقصى المغرب في ٨ صفر سنة ٧٠٧ وملك أخوه أبو الربيع...». وظاهر أن العام ٧٠٧ محرف عن ٧٠٨ إذ ورد في «روضة النسرين..»، ص ٢٢ ما صورته: «... ومات بطنجه مسموماً في صفر عام ٧٠٨ (تموز ١٣٠٨) وكانت دولته سنة واحدة وثلاثة أشهر...».

(٣) مجلة تطوان العدد الثامن، ص ١٩٤.

(٤) هو ذو الوزارتين أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن يحيى... ابن الحكيم اللخمي الرندي (٦٦٠-٧٠٨هـ/١٢٦١ /١٢٦٢-١٣٠٩م). كان شاعراً وخطيباً وكاتباً بليغاً، مؤثراً لأهل العلم والأدب. ترجمه المقّري في «أزهار الرياض..»، ٢: ٣٤٠ و٣٤١ وفي «نفح الطيب..»، ٥: ٤٩٨ و٤٩٩. وابن الخطيب: «الإحاطة..»، ٢: ٢٧٩.

(٥) ابن الخطيب: «اللمحة البدرية..»، ص ٢٢ و«الإحاطة..»، ١: ٣٩٢ و٥٦٠. والمقّري: «أزهار الرياض..»، ٢: ٣٤٠ و٣٤١.

(٦) مجلة تطوان، العدد الثامن، ص ١٩٤. وعنان، محمد عبد الله: «نهاية الأندلس..»، ص ١١٥. و

Lomax, Derek W.: «The Reconquest of Spain» (R.S.) New York, 1978, p. 165.

الهجري	الميلادي	الحدث
٧٠٩	١٣٠٩	محاصرة فرناندو الرابع الجزيرة الخضراء وجبل طارق(١).
١٦ صفر	٢٦ تموز	
٧٠٩	١٣٠٩	محاصرة خايمي الثاني ألمرية(٢).
٣ ربيع الأول	١١ آب	
٧٠٩ شوال	١٣١٠ آذار	سقوط جبل طارق بيد قشتالة بعد محاصرته أشهراً طوالاً(٣).
٧٠٩	١٣١٠	إبرام اتفاق صلح بين قشتالة وغرناطة. وفي كانون الأول سنة ١٣١٠م/ شعبان ـ رمضان سنة ٧١٠هـ تم إبرام الصلح بين خايمي الثاني ونصر(٤).
٧١٠	١٣١٠	وفاةالسلطان المغربي أبي الربيع سليمان ومبايعة أبي عثمان بن يعقوب(٥).
٢ رجب	٢٦تشرين الثاني	
٧١٢	١٣١٢	مهلك فرديناند الرابع وتنصيب ابنه الفونسو الحادي عشر على عرش قشتالة(٦).
٧١٣	١٣١٣	مولد لسان الدين بن الخطيب في لَوْشَة من أعمال غرناطة(٧).
٢٥ رجب	١٦تشرين الثاني	

(١) «اسبيريس»، مجلد ١٦، ص ١٢٤. ومجلة تطوان، العدد الثامن، ص ١٩٤. و:
Lomax, Derek W.: (R.S.), p.p. 164 - 165.

(٢) «اسبيريس»، مجلد ١٦، ص ١٢٦ ـ ١٣١. وفي هذا المرجع تفصيل هذا الحصار الذي انتهى في ٢٢ شعبان سنة ٧٠٩هـ (٢٥ كانون الثاني سنة ١٣١٠). وعنان، محمد عبد الله: «نهاية الأندلس. . »، ص ١١٥. ومجلة تطوان، العدد الثامن، ص ١٩٤ و١٩٥.

(٣) الناصر السلاوي: «الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى»، المجلد الأول، الجزء الثاني، ص ٥٩.

(٤) مجلة تطوان، العدد الثامن، ص ١٩٤.

(٥) ابن الأحمر: «روضة النسرين. . »، ص ٢٣. والقلقشندي: «مآثر الأنافة. . »، ص ١٤٤.

(٦) القلقشندي: «صبح الأعشى. . » ٥: ٢٦٨.

(٧) عنان، محمد عبد الله: «لسان الدين بن الخطيب. . »، ص ٣٢ و«نهاية الأندلس. . »، ص ١٣٩.

الهجري	الميلادي	الحـــدث
٧١٣	١٣١٤	وفاة محمد الثالث(١).
٣ شوال	٢١ كانون الثاني	
٧١٣ أواخرها	١٣١٤ أوائلها	فرار أبي الجيوش نصر بعد هزيمته وجلوس السلطان أبي الوليد إسماعيل الأول على عرش غرناطة(٢).
٧١٦ صفر	١٣١٦ نيسان ـ أيار	غزو القشتاليين بسائط غرناطة واستيلاؤهم على عدة قواعد وحصون وهزمهم المسلمين في وادي فرتونة(٣).
٧١٦	١٣١٦	عقد هدنة جديدة بين قشتالة وغرناطة(٤).
٧١٩ جمادي الأولى	١٣١٩ حزيران	إلحاق هزيمة كبيرة بالقشتاليين في معركة كبيرة جرت في مرج غرناطة وقتل فيها دون بطرة ودون خوان الوصيان على الفونسو الحادي عشر(٥).

(١) ابن الخطيب: «اللمحة البدرية..»، ص ٢٢.

(٢) ابن الخطيب: «اللمحة البدرية..»، ص ٢٢.

(٣) ابن الخطيب: «الإحاطة..»، ١: ٣٩٧ و«اللمحة البدرية..»، ص ٢١ و ٧٢. و«أعمال الأعلام..»، ص ٢٩٤ و«الكتيبة الكامنة..»، ص ١٧٦. وابن خلدون: «العبر..»، ٧: ٢٥٠.

(٤) مجلة تطوان العدد الثامن، ص ١٩٤.

(٥) ابن الخطيب: «الإحاطة..» ١: ٣٩٧ و«أعمال الأعلام..»، ص ٢٩٥.
ذكر دي مارلس:

De Marlès, M.: «Histoire de la domination des Arabes et des Maures en Espagne et en Portugal» (H.D.A.M.E.P.), Paris 1825, p. 169.

أن المؤرخين الأسبان يقولون: «إن الوصيين قد ماتا من شدة التعب دون أن يجرح أحد منهما». ثم يعلق على هذا القول فيذكر إنه «مستغرب وأنه يميل إلى تصديق ما يقوله المؤرخون العرب من أنهما قتلا وهما يحاربان كالأسود». والصحيح أنهما قتلا بدليل ما جاء به ابن الخطيب في «الإحاطة..»، ١: ٣٩٧ و٣٩٨ من أنه حين تفقّد مكان القتيل بعد خمسين سنة وأمر بتكشف عن الرمة لتنقل إلى وعاء ثان «أُلْفِيَ بعظم القَطَن العريض منها، سنانٌ مرهب ثبت في العظم..». وقد أعاد ذكر هذا أيضاً في كتابه «أعمال الأعلام..»، ص ٣٣٤.

ثم إن محقق «الإحاطة..» الجزء الأول، ذكر في الحاشية رقم ٦ من الصفحة ٣٩٧، أن «في التاريخ الذي يورده ابن الخطيب للموقعة (وهو ٧١٩) بعض التحريف ويضع ابن خلدون تاريخ الموقعة في ٧١٨ وهو يوافق تاريخها الميلادي الواقع في مايو ١٣١٨». والحقيقة أن كلا المؤرخين ابن الخطيب وابن خلدون لم يحرفا شيئاً، إنما ذكر أولهما تاريخ نهاية المعركة وذكر ثانيهما تاريخ بدئها. ويمكن التأكد من هذا بمراجعة وصف المعركة لابن خلدون والتدقيق فيه =

الهجري	الميلادي	الحدث
٧٢٠	١٣٢٠	عقد الصلح بين قشتالة وغرناطة لمدة ثمانية أعوام[١].
٧٢١	١٣٢١	عقد معاهدة سلم بين إسماعيل الأول وخايمي الثاني ملك أراغون[٢].
١٧ ربيع الثاني	١٦ أيار	
٧٢٢	١٣٢٢	وفاة أبي الجيوش نصر[٣].
ذو القعدة	تشرين الثاني	
٧٢٤	١٣٢٤	زحف إسماعيل الأول على بياسة ومحاصرتها وإجبارها على التسليم[٤].
أوائل رجب	أواخر حزيران	
٧٢٥	١٣٢٥	زحف إسماعيل الأول على مرتش واستيلاؤه عليها عنوة[٥].
١٠ رجب	٢١ حزيران	
٧٢٥	١٣٢٥	مقتل إسماعيل الأول على يد أحد أقربائه ومبايعة ابنه أبي عبد الله محمد الرابع[٦].
٢٦ ـ ٢٧ رجب	٧ ـ ٨ تموز	

= («العبر..»، ٤ : ١٧٣ و٧: ٢٥٠). ملاحظة: إن معركة سنة ٧١٩ تسمى أيضاً بمعركة هضبة ألبيرة. (تراجع مجلة «الأندلس»، مجلد ٢٤، ص ٤٠٢).

(١) مجلة تطوان، العدد الثامن، ص ١٩٥.

(٢) Alarcón y Santón, M.A. y De Linares, R.G.: «D.A.D.A.C.A.» p. 33.
وعنان، محمد عبد الله: «نهاية الأندلس..»، ص ١١٩ و ١٢٠.

(٣) ابن الخطيب: «اللمحة البدرية..»، ص ٢٢.

(٤) De Marlès, M.: «H.D.A.M.E.P.», p. 173.
وقد ورد فيه: «ويقال إن إسماعيل استعمل في هجومه آلات تقذف كرات ملتهبة تنفجر عند ارتطامها بجدران الحصن وهذه هي المدافع». وعنان، محمد عبد الله: «نهاية الأندلس..»، ص ١٢٠.

(٥) ابن الخطيب: «الإحاطة..» ١: ٣٩٨ و٣٩٩. وقد ورد فيه ما يأتي: «ونشر الحرب عليه ورمى بالآلة العظمى المتخذة بالنفط كرة حديد محماة البرج المنيع من معقله، فاندفعت يتطاير شررها واستقرت بين محصوريه فعاثت عياث الصواعق السماوية، فألقى الله الرعب في قلوبهم».

(٦) ابن الخطيب: «الإحاطة..»، ١: ٤٠٢ و«اللمحة البدرية..»، ص ٢٢ و«أعمال الأعلام..»، ص ٢٩٥ و«كناسة الدكان..»، ص ٢٠. وقد أورد القلقشندي في «مآثر الأنافة..»، ص ١٤٥ «أنه قتل سنة ٧٢٣هـ» وهو تحريف ظاهر.

الهجري	الميلادي	الحدث
٧٢٦	١٣٢٦	تجديد معاهدة الصلح والصداقة بين محمد الرابع وخايمي الثاني ملك أراغون بكامل نصوصها وشروطها[١].
جمادى الثانية	أيار	
٧٢٧	١٣٢٧	وفاة خايمي الثاني ومجيء الفونسو الرابع[٢].
٧٢٩	١٣٢٨	مقتل الوزير ابن المحروق[٣] على يد محمد الرابع لاستئثاره بالسلطة[٤].
٧٣١	١٣٣١	توقيع معاهدة صلح بين الفونسو الحادي عشر ومحمد الرابع[٥]
٧٣١	١٣٣١	وفاة أبي سعيد عثمان بن عبد الحق سلطان المغرب ومبايعة ابنه أبي الحسن علي[٦].
٢٥ ذي القعدة	٣٠ آب	
٧٣٢	١٣٣٢	مولد عبد الرحمن بن خلدون بتونس[٧].
غرة رمضان	٢٧ أيار	

(١) Alarcón y Santón, M.A. y De Linares, R.G.: «D.A.D.A.C.A.» p. 55.
وبجلة تطوان، العدد الثامن، ص ١٩٥.

(٢) Ballester, Rafael: «Histoire d'Espagne», p. 108.
Lomax, Derek W.: «The Reconquest of Spain», p. 163.

(٣) هو محمد بن أحمد بن المحروق. كان وكيل السلطان إسماعيل الأول. وبعد وفاة الأخير رقّاه محمد الرابع إلى الوزارة والحجابة، فاستبد بالأمور واستأثر بكل سلطة فحقد عليه محمد الرابع وأمر بقتله فاغتيل في ثاني يوم من محرم فاتح ٧٢٩هـ/٦ تشرين الثاني ١٣٢٨. (ابن الخطيب: «الإحاطة..»، ص ٥٤٥ و«أعمال الأعلام..»، ص ٢٩٧ و٢٩٨. وقد صحح محمد عبد الله عنان الخطأ الذي وقع فيه حين أورد في الحاشية رقم ٨ من الصفحة ٣٣١ من كتاب «الإحاطة..» الأول أن ابن المحروق قد توفي قتيلاً في سنة ٧٢٨؟!.

(٤) ابن الخطيب: «أعمال الأعلام..»، ص ٢٩٧. والناصر السلاوي: «الاستقصا..»، ص ٥٩.

(٥) De MARLèS, M.: «H.D.A.M.E.P.», p.p. 182 - 183.
وبجلة تطوان، العدد الثامن، ص ١٩٥.

(٦) ابن الأحمر: «روضة النسرين.»، ص ٢٣ و٢٥. والذهبي: «ذيول العبر»، تحقيق: محمد رشاد عبد المطلب، مراجعة: د. صلاح الدين المنجد وعبد الستار أحمد فراج، مطبعة حكومة الكويت، سلسلة التراث العربي رقم ١٧، ص ١٦٨ و١٧٠.

(٧) هو ولي الدين أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون. مؤرخ وفيلسوف اجتماعي من أعلام زمانه في =

الهجري	الميلادي	الحدث
٧٣٣	١٣٣٣	مولد ابن زمرك في غرناطة[١].
١٤ شوال	٢٨ حزيران	
٧٣٣	١٣٣٣ تموز - آب	استعادة جبل طارق من يد القشتاليين بعد مرور أربع وعشرين سنة على سقوطه[٢].
٧٣٣ ذو القعدة، ذو الحجة	١٣٣٣ آب	معاهدة سلم لمدة أربع سنوات بين غرناطة وقشتالة[٣].
٧٣٣	١٣٣٣	اغتيال محمد الرابع ومبايعة أخيه أبي الحجاج يوسف الأول[٤].
١٣ - ١٤ ذي الحجة	٢٥ - ٢٦ آب	
٧٣٤	١٣٣٣	تجديد معاهدة السلم والصداقة بين غرناطة وأراغون[٥].
١٨ محرم	٢٩ أيلول	
٧٣٤	١٣٣٣	عقد معاهدة هدنة بين مملكتي غرناطة وقشتالة لمدة شهرين فقط أي حتى ١٥ كانون الأول ١٣٣٣/٦ ربيع الثاني ٧٣٤[٦].
٥ صفر	١٦ تشرين الأول	
٧٣٤	١٣٣٤	عقد اتفاقية سلم بين غرناطة والمغرب من جهة وقشتالة من جهة أخرى، تم التوقيع عليها في أوائل آذار ١٣٣٤م/ أواخر جمادى الثانية ٧٣٤هـ[٧].
٢٠ جمادى الثانية	٢٦ شباط	

= الإدارة والسياسة والقضاء والأدب والعلوم. أصله من أشبيلية، ولد بتونس وتوفي بالقاهرة. صاحب «المقدمة» الشهيرة لكتاب «العبر..»، أرسى فيها أسس علم الاجتماع فكان الرائد الأول لهذا العلم. (منجد الأعلام، ص ١٠ ومعجم Petit Larousse، ص ١٤٢٥).

(١) ابن الخطيب: «الإحاطة..»، ٢: ١٦٠. والتنبكتي: «نيل الابتهاج..»، ص ٢٨٢ و٢٨٣. والعسقلاني: «الدرر الكامنة..» ص ٣١٤. والمقّري: «نفح الطيب..»، ٧: ١٦٠.

(٢) القلقشندي: «صبح الأعشى..»، ٥: ٢٦٢. والناصر السلاوي: «الاستقصا..»، ص ٥٩.

(٣) ابن الخطيب: «كناسة الدكان..»، ص ١٦٢ و١٦٣.

(٤) ابن الخطيب: «الإحاطة..»، ١: ٥٤٩ و «اللمحة البدرية..»، ص ٢٢، و«كناسة الدكان..»، ص ٢٠ و٢٤. والقلقشندي: «مآثر الأنافة..»، ص ١٤٥.

(٥) مجلة «الأندلس»، مجلد ٢١، ص ٢٩١. ومجلة تطوان، العدد الثامن، ص ١٩٦.

(٦) ابن الخطيب: «كناسة الدكان..»، ص ١٦٣ و ١٦٤.

(٧) ابن الخطيب: «كناسة الدكان..»، ص ١٦١ و١٦٢. ومجلة تطوان، العدد الثامن، ص ١٩٦.

الهجري	الميلادي	الحدث
٧٣٥	١٣٣٥	إبرام معاهدة صلح جديدة بين أراغون وغرناطة[١].
أواخرذي القعدة	تموز	
٧٣٦	١٣٣٦	وفاة الفونسو الرابع ملك أراغون وتولي ابنه بيدرو الرابع مكانه[٢].
٧٣٩	١٣٣٩	مولد الغني بالله محمد الخامس ابن يوسف[٣].
٧٤٠	١٣٣٩	توجه الجيش المغربي بقيادة الأمير أبي مالك ابن أبي الحسن إلى الأندلس وانهزامه على يد جيوش اسبانيا[٤].
أواسطها	أواخرها	
٧٤٠	١٣٤٠	نشوب معركة بحرية بين أساطيل أبي الحسن سلطان المغرب وأساطيل النصارى، انتصر فيها المسلمون[٥].
٦ شوال	٥ نيسان	
٧٤١	١٣٤٠	عبور أبي الحسن بنفسه إلى الأندلس للثأر من مقتل ولده ومحاصرته جزيرة طريف. انضمام يوسف الأول مع جنوده إليه[٦].
٣ محرم	٢٩ حزيران	

(١) ابن الخطيب: «كناسة الدكان..»، ص ١٦٢ و١٦٣

Alarćon y Santón;
M.A. y De Linares, (R.G.) «D.A.D.A.C.A.», p. 61.

وفي هذا المصدر الأخير خطأ مطبعي إذ ورد التاريخ الميلادي ١٣٣٣ وصحته ١٣٣٥.

(٢) عنان، محمد عبد الله: «نهاية الأندلس..»، ص ١٧٧.

(٣) ابن الخطيب: ديوان «الصيب والجهام والماضي والكهام»، دراسة وتحقيق: د. محمد شريف قاهر، الطبعة الأولى، ١٩٧٣م، ص

(٤) عنان، محمد عبد الله: «نهاية الأندلس..»، ص ١٢٧.

(٥) ابن الخطيب: «كناسة الدكان..»، ص ٣٠ و٣١.

«Journal Asiatique», série 9, tome 12, p. 437.
De Marlès, M.: «H.D.A.M.E.P.», p.p. 202 - 203.

(٦) عنان، محمد عبد الله: «نهاية الأندلس..»، ص ١٢٧.

«Journal asiatique», série 9, tome 12, p. 437.
De Marlès, M.: «H.D.A.M.E.P.», p.p. 208 - 209.
Lomax, Derek W.: -The Reconquest of Spain», p. 167.
Watts, Henry E.: «Spain», London, 1893, p. 183.
= Read, Jean: «The Moors in Spain and Portugal» (M.S.P.), London, 1974, p. 194.

الهجري	الميلادي	الحـدث
٧٤١	١٣٤٠	نشوب معركة عنيفة بين الفريقين وهزيمة المسلمين وفرار أبي الحسن مع فلوله إلى المغرب وارتداد يوسف الأول إلى غرناطة[١].
أواسطها	أواخرها	
٧٤٢	١٣٤١	استيلاء ملك قشتالة على قلعة بني سعيد (أو قلعة يحصب) بعد حصار قصير[٢].
٧٤٣	١٣٤٢	نشوب معركة بحرية هائلة بين الاسبان والمسلمين (بقيادة أبي الحسن) مُزّق فيها أسطول المسلمين[٣].
٧٤٤	١٣٤٤	سقوط الجزيرة الخضراء وطريف بأيدي الاسبان[٤].
ذو القعدة	آذار	
٧٤٤	١٣٤٤	إبرام معاهدة صلح لمدة عشر سنوات بين قشتالة وأراغون وغرناطة والمغرب[٥].
ذوالقعدة	آذار	
٧٤٩	١٣٤٨	هزيمة السلطان أبي الحسن المريني في القيروان بتونس على يد ابنه أبي عنان الذي اغتصب عرش المغرب[٦].

= Palencia, Angel G.: «Historia de la Espana Muslamana» (H.E.M.), Barcelona, 1932, p. 113.

ملاحظة: سمّى الاسبان هذه المعركة: معركة ريو سلادو لوقوعها على هذا النهر خارج طريف. ولكنها اشتهرت في الرواية الإسلامية باسم معركة طريف. وقد أطلق عليها ابن الخطيب لقب الوقيعة العظمى (يراجع «أعمال الأعلام..»، ص ٣٠٥ و٣٣٥) أو الوقيعة الكبرى (يراجع «الكتيبة الكامنة..»، ص ٤٦ و٤٧). وفيه أن الخطيب أبا القاسم محمد بن جزى الكلبي قد استشهد فيها.

(١) المصدر السابق.

(٢) الناصر السلاوي: «الاستقصا..»، ص ٦٧. وعنان، محمد عبد الله: «نهاية الأندلس..»، ص ١٢٨.

(٣) عنان، محمد عبد الله: «نهاية الأندلس..» ص ١٢٨.

(٤) ابن الخطيب: «كناسة الدكنـان..»ص ١٦٤. والناصر السلاوي: «الاستقصا..»، ص ٦٧. والقلقشندي: : «صبح الأعشى..»، ٥: ٢٦٢. ومجلة تطوان، العدد الثامن، ص ١٩٦.

(٥) مجلة تطوان، العدد الثامن، ص ١٩٦ و١٩٧. وعنان، محمد عبد الله: «نهاية الأندلس..»، ص ١٣٠.

(٦) ابن الخطيب: «كناسة الدكان..»، ص ١٦٥ و١٦٧.

الهجري	الميلادي	الحـدث
٧٤٩	١٣٤٨	اجتياح الوباء الكبير دول حوض البحر المتوسط[١].
أواخر صفر	أواخر أيار	
٧٥٠	١٣٤٩	محاصرة جبل طارق من قبل القشتاليين[٢].
٧٥١	١٣٥٠	رفع الحصار عن جبل طارق بعد محاصرته عاماً وبعد تفشي الوباء في الجيش القشتالي ومهلك الفونسو الحادي عشر بالوباء وتولي ابنه بيدرو القاسي مكانه[٣].
أواسط محرم	أواخر آذار	

(١) بدأ هذا الطاعون انتشاره في أواخر صفر من عام ٧٤٩هـ/ أواخر أيار ١٣٤٨م، وامتد إلى أواخر المحرم عام ٧٥٠هـ/ منتصف نيسان ١٣٤٩م (يراجع الذهبي: «من ذيول العبر»، ص ٢٧٠). وأورد القلقشندي في «مآثر الأنافة..» أنه «في سنة ٧٤٩هـ (١٣٤٨م) كان الطاعون العظيم الذي عمّ أقطار الأرض وخرّب أكثر البلاد، وخلت فيه الناس... وأقام دائراً في البلاد مدة سنتين وعم جميع الأقطار إلّا المدينة المنورة». (ص ١٥٥ و١٥٦). وقد توفي في غرناطة، بسبب هذا الوباء، كثير من سكانها أشهرهم: الوزير الشاعر الكبير أبوالحسن علي بن الجياب (٦٧٣ ـ ٧٤٩هـ /١٢٧٤ ـ ١٣٤٩م) (يراجع المقّري: «نفح الطيب..»، ٥: ٤٤٥ وابن الأحمر: «نثير فرائد الجمان..»، ص ٢٣٩ و«نثير الجمان..»، ص ١٢٥. وابن الخطيب: «الكتيبة الكامنة..»، ص ١٨٣. وابن فرحون: «الديباج المذهب..»، ص ٢٠٧). والشيخ أبو عبد الله محمد بن علي بن يوسف السكوني الأندلسي المعروف بابن لؤلؤة، وكان خطيباً بحصن قمارش (ت ٧٥٠هـ/١٣٤٩م) (يراجع المقّري: «نفح الطيب..»، ٥: ٥١٦). والشاعر قاسم بن محمد بن الجد الفهري المري (ت ٧٥٠هـ/١٣٤٩م) (يراجع المقّري: «نفح الطيب..»، ٦: ٢٦١ و٢٦٢). وقاضي غرناطة أبو جعفر أحمد بن محمد الأموي المعروف بابن برطال (ابن الخطيب: «الإحاطة..»، ١: ١٧٧ و١٧٩). والأديب أبو عثمان سعد بن ليون التجيبي من أهل المرية (يراجع التنبكتي: «نيل الابتهاج..»، ص ١٢٤). والقاضي أبو بكر محمد بن عبد الله بن منظور والقاضي الخطيب أبو عبد الله محمد ابن أبي جعفر الهاشمي الطنجالي (النباهي: «المرقبة العليا..»، ص ١٥٤ و١٥٥). والشاعر أبو محمد عبد الله بن إبراهيم الأزدي (المقّري: «نفح الطيب..»، ٣: ١٠٦). وقد انشأ ابن الخطيب رسالة سمّاها «مقنعة السائل عن المرض الهائل» تحدث فيها عن هذا الطاعون الجارف وظروف ظهوره وانتشاره وأعراضه وسبل التحوط منه (يراجع «الإحاطة..»، ١: ٧٥). وكذلك انشأ ابن خاتمة، شاعر المرية، رسالة بعنوان: «تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد»، وصف فيها كيف عصف هذا الوباء بثغر المرية. وتوجد هاتان الرسالتان في الأسكوريال برقم ١٧٨٥. (عنان، محمد عبد الله: «نهاية الأندلس..»، ص ١٣٠).

(٢) ابن الخطيب: «كناسة الدكان..»، ص ١٦٦.

(٣) ابن الخطيب: «أعمال الأعلام..»، ص ٣٣٥ و«كناسة الدكان..»، ص ١٦٦ و١٦٧. والنباهي: «المرقبة العليا..»، ص ١٥٦.

المجـري	الميـلادي	الحـدث
٧٥١	١٣٥٠	إبـرام الهدنـة بين المغـرب وأراغون لمـدة أربعة عشـر شهـراً(١). وبـدايـة الحـرب الأهليـة الكبـرى بـين الاسبان(٢).
٧٥٢	١٣٥١	وفاة السلطان أبي الحسن علي بن عثمان(٣).
٢٧ ربيع الأول	٢٣ حزيران	
٧٥٤	١٣٥٣	نشوب معركة بحرية بين السلطان أبي عنان وأخيه أبي الفضل المجهـز بأسطول قشتالة وهزيمة الأخير(٤).
٧٥٥	١٣٥٤	اغتيال السلطان يوسف الأول في أثناء صلاته بالمسجد الأعـظم بيـد مخبـول ومبـايعـة ولـده محمـد الخـامس الغني بالله(٥).
أول شوال	١٩تشرين الأول	
٧٥٦	١٣٥٥	قضاء محمد الخامس على تمرد عيسى بن الحسن ابن أبي منديل حاكم جبل طارق المريني(٦).
أواخرها	أواخرها	
٧٥٨	١٣٥٧	تجديد الصلح لمدة خمسة أعوام بين أراغـون والمغرب وغرناطة(٧).
٧٥٩	١٣٥٨	مقتل السلطان أبي عنان. قتله خنقاً وزيره الحسن بن عمر الفودودي(٨).
٢٨ ذي الحجة	١ كانون الثاني	

(١) مجلة تطوان، العدد الثامن، ص ١٩٧.

(٢) Watts, Henry E.: «Spain», p. 195.

(٣) ابن الأحمر: «روضة النسرين..»، ص ٢٥. والقلقشندي: «مآثر الأنافة..»، ص ١٦٥.

(٤) ابن الخطيب: «كناسة الدكان..»، ص ٢٧.

«Journal asiatique»; série 9, tome 12, p. 437.

(٥) ابن الخطيب: «أعمال الأعلام..»، ص ٣٠٦ و«كناسة الدكان..»، ص ٢٠ و١٦٨. وابن خلدون: «العبـر..»، ٧: ٣٣٢. والنـاصـر السـلاوي: «الاستـقصـا..»، ص ٩٤. والقلقشندي: «مآثر الأنافة..»، ص ١٦٦ و«صبح الأعشى..»، ٥: ٢٦٢.

(٦) عنان، محمد عبد الله: «نهاية الأندلس..»، ص ١٣٩.

De Marlès, M.: «H.D.A.M.E.P.», p. 231.

(٧) مجلة تطوان، العدد الثامن، ص ١٩٧.

(٨) الـذهبي «ذيـول العبـر»، ص ٣٢٢. وابن الأحمـر: «روضـة النسـرين..»، ص ٢٧. =

الهجري	الميلادي	الحـدث
٧٦٠	١٣٥٩	ارتقاء أبي سالم إبراهيم ابن أبي الحسن عرش المغرب(١).
منتصف شعبان	١٢ تموز	
٧٦٠	١٣٥٩	نشوب ثورة في غرناطة ـ مقتل الحاجب رضوان ـ اعتقال ابن الخطيب ـ فرار محمد الخامس إلى وادي آش ـ مبايعة أخيه إسماعيل الثاني الذي كان معتقلاً(٢).
رمضان	آب	
٧٦١	١٣٦٠	لجوء محمد الخامس مع وزيره ابن الخطيب إلى المغرب بعد وساطة السلطان أبي سالم(٣).
٦ محرم	٢٨تشرين الثاني	
٧٦١	١٣٦٠	مقتل إسماعيل الثاني وتولي قاتله محمد السادس مكانه(٤).
٢٧ شعبان	١٣ تموز	
٧٦٢	١٣٦١	مصرع السلطان أبي سالم واستبداد الوزير عمر بن عبد الله بدولة المغرب ومبايعة أبي عمر تاشفين ابن أبي الحسن(٥).
ذو القعدة	أيلول	

= والقلقشندي: «مآثر الأنافة..»، ص ١٦٥ و ١٦٦.
قام الوزير الحسن بن عمر الفودودي، بعد خنقه السلطان أبي عنان، ببيعة ابنه أبي زيان محمد، ثم رجع عنه في اليوم نفسه إلى أخيه السعيد أبي يحيى وقتله خنقاً. وظل السعيد أبو يحيى في الحكم حتى خلع يوم الثلاثاء ١٢ شعبان سنة ٧٦٠هـ/٩ تموز ١٣٥٩م، وقتل غرقاً في البحر وله عشر سنين. وكانت دولته ٧ أشهر و ٢٠ يوماً. (ابن الأحمر: «روضة النسرين..»، ص ٢٩ و ٣٠).

(١) ابن الخطيب: «الإحاطة..»، ١: ٣١٦. وابن الأحمر: «روضة النسرين..»، ص ٣٠ و ٣١. والقلقشندي: «مآثر الأنافة..»، ص ١٦٥ و ١٦٦.
Brémon, Genéral Edouard: «Berbères et Arabes», (B.A.), Paris, 1942, p. 380.

(٢) ابن الخطيب: «اللمحة البدرية..»، ص ٢٢ و «الإحاطة..»، ١: ٣٨. و«نفاضة الجراب..»، ص ١٢. وابن خلدون: «العبر..»، ٧: ٣٠٦. والقلقشندي: «مآثر الأنافة..»، ص ١٦٦ و«صبح الأعشى..»، ٥: ٢٦٣.

(٣) الناصر السلاوي: «الاستقصا..»، ص ١٠٥. وعنان، محمد عبد الله: «نهاية الأندلس..»، ص ١٤٠.

(٤) ابن الخطيب: «اللمحة البدرية..»، ص ٢٣ و«أعمال الأعلام..»، ص ٣٠٧.

(٥) ابن الأحمر: «روضة النسرين..»، ص ٣٠. وابن الخطيب: «الإحاطة..»، ١: ٤٢ و ٣١٧.

الهجري	الميلادي	الحـدث
٧٦٣	١٣٦١	وفاة السلطان أبي عمر تاشفين ومبايعة ابن أخيه أبي زيان محمد ابن أبي عبد الرحمان ابن أبي الحسن(١).
٢١ صفر	٢٠ كانون الأول	
٧٦٣	١٣٦٢	استرداد محمد الخامس عرش ملكه بعد قيام ثورة جديدة في غرناطة ومقتل محمد السادس (على يد ملك قشتالة في ٢ رجب ٧٦٣هـ/٢٧ نيسان ١٣٦٢)(٢).
٢٠ جمادى الثانية	١٦ نيسان	
٧٦٣	١٣٦٢	إعادة ابن الخطيب إلى منصبه بعد عودته إلى غرناطة مستدعًى وبرفقته أسرة السلطان محمد الخامس(٣).
أواخر شعبان	حزيران	
٧٦٧	١٣٦٦	مقتل أبي زيان محمد ابن أبي عبد الرحمان ابن أبي الحسن ومبايعة عمه أبي فارس عبد العزيز ابن أبي الحسن(٤).
٢٢ ذي الحجة	٣٠ آب	
٧٦٨	١٣٦٧	إبـرام معاهـدة صلح بين أراغـون وغرنـاطة، شملت المغرب بمقتضى تفويض أبي فارس سلطان المغرب لمحمد الخامس(٥).
رجب	آذار	
٧٦٧ ـ ٧٦٨ ٧٦٩	١٣٦٦ ـ ١٣٦٧ ١٣٦٨	زحف محمـد الخـامس عـلى بعض المـدن والحصـون القشتالية ومهـاجمتها واسـترداد بعضها وتـدمير بعضهـا الآخر(٦).

(١) ابن الأحمر: «روضة النسرين..»، ص ٣١ و٣٢.

(٢) ابن الخطيب: «اللمحة البدرية..»، ص ١١٧ و١١٨ و«الإحاطة..»، ١: ٤٣ و٢: ١٥ و«نفاضة الجراب..»، ص ١٧. وابن خلدون: «العبر..»، ٧: ٣٣٤.

(٣) ابن الخطيب: «الإحاطة..»، ٢: ١٥.

(٤) ابن الأحمر: «روضة النسرين..»، ص ٣٢ و٣٣.

(٥) Alarćon y Sanfon, M.A. y De Linares, (R.G.).: «D.A.D.A.C.A.». p.p. 146 - 147. ومجلة تطوان، العدد الثامن، ص ١٩٧. وعنان، محمـد عبد الله: «نهايـة الأندلس..»، ص ١٤٨.

(٦) ابن الأحمر: «نثير فرائد الجمان..»، ص ٢٧٣ ـ ٢٨٦. تضمن هذا المصدر رسالة كتبها ابن الخطيب عن سلطانه الغني بالله إلى المستنصر بالله ملك =

الهجري	الميلادي	الحدث
٧٦٧ - ٧٦٨	١٣٦٦ - ١٣٦٧	خروج الكونت هنري دي ترانستمارا (القند) على سلطة أخيه غير الشرعي دون بيدرو القاسي - تحالف هنري مع شارل الخامس ملك فرنسا - فرار دون بيدرو واستغاثته بالأمير ادوارد ولي عهد انجلترا - موقعة بين الفريقين في الثالث من نيسان سنة ١٣٦٧م/٢ شعبان ٧٦٨هـ، هزم فيها الكونت هنري واسترد بيدرو القاسي عرشه بمساعدة قوات غرناطية اشتركت إلى جانبه - تم نشوب معركة حاسمة بين الفريقين في «مُنْتِيل» سنة ١٣٦٨م/٧٦٩هـ وهزيمة بيدرو القاسي ومقتله وجلوس هنري على العرش
٧٦٩ - ٧٧٠	١٣٦٨ - ١٣٦٩	في أوائل ١٣٦٩م/ أواسط ٧٧٠هـ(١).
٧٧٠	١٣٦٩	إبرام معاهدة صلح جديدة بين أراغون وغرناطة، تشمل المغرب أيضاً(٢).

= افريقية وأطرابلس، يشكر له هديته، ويحدثه فيها عن هذه الانتصارات فيقول:
«فتحركنا أولى الحركاتَ... إلى حصن آش... فحولنا أبراجه المنيعة وأسواره، وكففنا عن العباد والبلاد أضراره، بعد أن استضفنا حصن السهلة جاره، ورحلنا منه بعد أن شحناه رابطة وحامية.. إلى مدينة برغة التي سدت بين القاعدة مالقة ورندة الطريق.. فيسّر الله فتحها وعجّل منحها.. وتبع هذه الأم بنات شهيرة... ثم أعملنا الحركة إلى مدينة أطريرة... وحاق بها الويل، فأبيح منها الذمار وأخذها الدمار... وسلطت على هياكلها النار، واستولى على الآلاف العديدة من سبيها الاسار، وانتهى إلى أشبيلية الثكلى المغار... وعدنا والأرض تموج سبياً... إلى غزو مدينة جيان... فاقتحم سور الربض الأعظم لحينه.. ثم دخل البلد بعده غلاباً، وجلل قتلاً واستلاباً... اقمنا بها أياماً نعقر الأشجار ونستأصل بالتخريب الوجار... وهلك بمهلك هذه الأم بنات... شمل التخريب أسوارها وعجلت النار بوارها... ثم تحركنا بعدها حركة الفتح... وقصدنا مدينة أبدة وهي الكبرى من الاختين... ودخلت مدينتها عنوة السيف... ثم تأهبنا لغزو أم القرى... قرطبة... عبرنا نهرها... وضيقنا حصرها... وأقمنا بها أياماً... نرمي الأرواح ببوارها... فلولا عائق المطر لحصلنا من فتح ذلك الوطن على الوطر.. فرأينا أن نروضها بالاجتثاث... فعم الاكتساح... جميع الأحواز... وانتهبت القرى وهدت الحصون... وعدنا...».
تراجع هذه الرسالة أيضاً لدى القلقشندي في «صبح الأعشى..»، ٦: ٥٣٦.

(١) أورد ابن الخطيب في «أعمال الأعلام..»، ص ٣٣٥ و ٣٣٦ وصفاً مفصلاً لهذه المعارك.
يراجع أيضاً القلقشندي: «صبح الأعشى..»، ٥: ٢٦٩. وعنان، محمد عبد الله: «نهاية الأندلس..»، ص ١٧٨.

(٢) مجلة تطوان، العدد الثامن، ص ١٩٧.

الهجري	الميلادي	الحدث
٧٧٠ - ٧٧١	١٣٦٩ - ١٣٧٠	محاصرة محمد الخامس الجزيرة الخضراء حتى الاستسلام ومحاصرة قرمونة واقتحام مرشانة[١].
٧٧٣	١٣٧١	فرار ابن الخطيب إلى المغرب[٢].
غرة جمادى الأخرة	١١ كانون الأول	
٧٧٤	١٣٧٢	وفاة أبي فارس عبد العزيز ومبايعة ابنه السعيد أبي زيان محمد[٣].
٢٢ ربيع الأخر	٢١ تشرين الأول	
٧٧٦	١٣٧٤	خلع السلطان أبي زيان محمد ومبايعة أبي العباس أحمد ابن أبي سالم ابن أبي الحسن[٤].
٦ محرم	١٧ حزيران	
٧٧٦	١٣٧٤	مقتل ابن الخطيب في المغرب[٥].
ربيع الأول، ربيع الثاني	آب - أيلول	
٧٧٨ - ٧٧٩	١٣٧٧	إبرام معاهدة صلح بين أراغون وغرناطة لمدة خمس سنوات[٦].
٧٨٠ - ٧٨١	١٣٧٩	وفاة هنري الثاني ملك قشتالة ومجيء جان الأول[٧].
٧٨٤	١٣٨٢	تجديد معاهدة الصلح بين أراغون وغرناطة لمدة خمس سنوات أخرى[٨].

(١) الناصر السلاوي: «الاستقصا..»، ص ١٣١.
«Journal asiatique», série 9, tome 12, p. 443.

(٢) ابن الخطيب: «أعمال الأعلام..»، ص ٣١٨. وابن خلدون: «العبر..»، ٧: ٣٣٥. والناصر السلاوي: «الاستقصا..»، ص ١٣٢.

(٣) ابن الأحمر: «روضة النسرين..» ص ٣٣.

(٤) نفسه، ص ٣٤.

(٥) عنان، محمد عبد الله: «لسان الدين بن الخطيب»، ص ١٦٩ و«نهاية الأندلس..»، ص ١٤٦. و«اسبيريس»، مجلد ٢٣ ص ٢١٧ ومجلد ١٦، ص ١٧٣ و

(٦) مجلة تطوان، العدد الثامن، ص ١٩٧.

(٧) De Marlès, M.: «H.D.A.M.E.P.», p. 253..
ballester, Rafael: «Histoire d'Espagne», p. 101.

(٨) مجلة تطوان، العدد الثامن، ص ١٩٧.

الهجري	الميلادي	الحدث
٧٨٦	١٣٨٤	خلع السلطان أبي العباس أحمد ومبايعة أبي فارس موسى ابن أبي عنان(١).
٣٠ ربيع الأول	٢٢ أيار	
٧٨٨	١٣٨٦	وفاة السلطان أبي فارس موسى مسموماً ومبايعة أبي زيان محمد ابن أبي العباس(٢).
٣ رمضان	٢٨ أيلول	
٧٨٨	١٣٨٦	خلع السلطان أبي زيان محمد ومبايعة الواثق بالله محمد ابن أبي الفضل ابن أبي الحسن(٣).
١٥ شوال	٩ تشرين الأول	
٧٨٩	١٣٨٧	مقتل الواثق بالله محمد بطنجة (في ٥ رمضان/ ١٩ أيلول) ومبايعة أبي العباس أحمد (في ٧ رمضان/ ٢١ أيلول)(٤).
رمضان	أيلول	
٧٨٩	١٣٨٧	وفاة بيدرو الرابع ملك أراغون ومجيء خوان الأول(٥).
٧٩٢	١٣٩٠	وفاة جان الأول ملك قشتالة ومجيء هنري الثالث(٦).
٧٩٣	١٣٩١	وفاة محمد الخامس ومبايعة ولده أبي الحجاج يوسف الثاني(٧).
١٠ صفر	١٧ كانون الثاني	

(١) ابن الأحمر: «روضة النسرين..»، ص ٣٤ و ٣٦.
(٢) نفسه، ص ٣٦ و ٣٧.
(٣) نفسه، ص ٣٧.
(٤) نفسه، ص ٣٧ و ٣٨.
(٥) عنان، محمد عبد الله: «نهاية الأندلس..»، ص ١٧٨.
Brémon, Général Edouard: «Berbères et Arabes», p. 384.
(٦) عنان، محمد عبد الله: «نهاية الأندلس..»، ص ١٧٤.
Brémon, Général Edouard: «Berbères et Arabes», p. 385.
(٧) القلقشندي: «مآثر الأنافة..»، ص ٢٠٢.

الهجري	الميلادي	الحدث
٧٩٤	١٣٩٢	وفاة أبي الحجاج يوسف الثاني[١] ومبايعة ولده محمد السابع[٢].
١٦ ذي القعدة	٤ تشرين الأول	
٧٩٦	١٣٩٣	وفاة السلطان أبي العباس أحمد (في ٧ محرم/١٢ تشرين الثاني) ومبايعة أبي فارس عبد العزيز بن أحمد ابن أبي سالم (في ٩ محرم/١٤ تشرين الثاني)[٣].
محرم	تشرين الثاني	
٧٩٦	١٣٩٣	مصرع ابن زمرك على يد محمد السابع[٤].
أوائلها	أواخرها	

(١) هناك خلاف حول تاريخ وفاته وسببها. فبينا ذكر بعضهم أنه مات مسموماً قال آخرون إنه توفي بسبب المرض. وقد ذكر محمد عنان في «نهاية الأندلس..»، ص ١٥٠ أنه توفي في أوائل سنة ٧٩٧هـ/١٣٩٤م. وذكر آخرون أن وفاته كانت سنة ١٣٩٥ ومن هؤلاء:

De Marlès, M.: «H.D.A.M.E.P.», p. 262.
Brémon, Général Edouard: «Berbères et Arabes», p. 383.
Hamet, Ismaël: «Histoire du Magreb», Paris, 1923, p. 250.
Coppée, Henry: «History of the Conquest of Spain», Boston, 1881, p. 259.

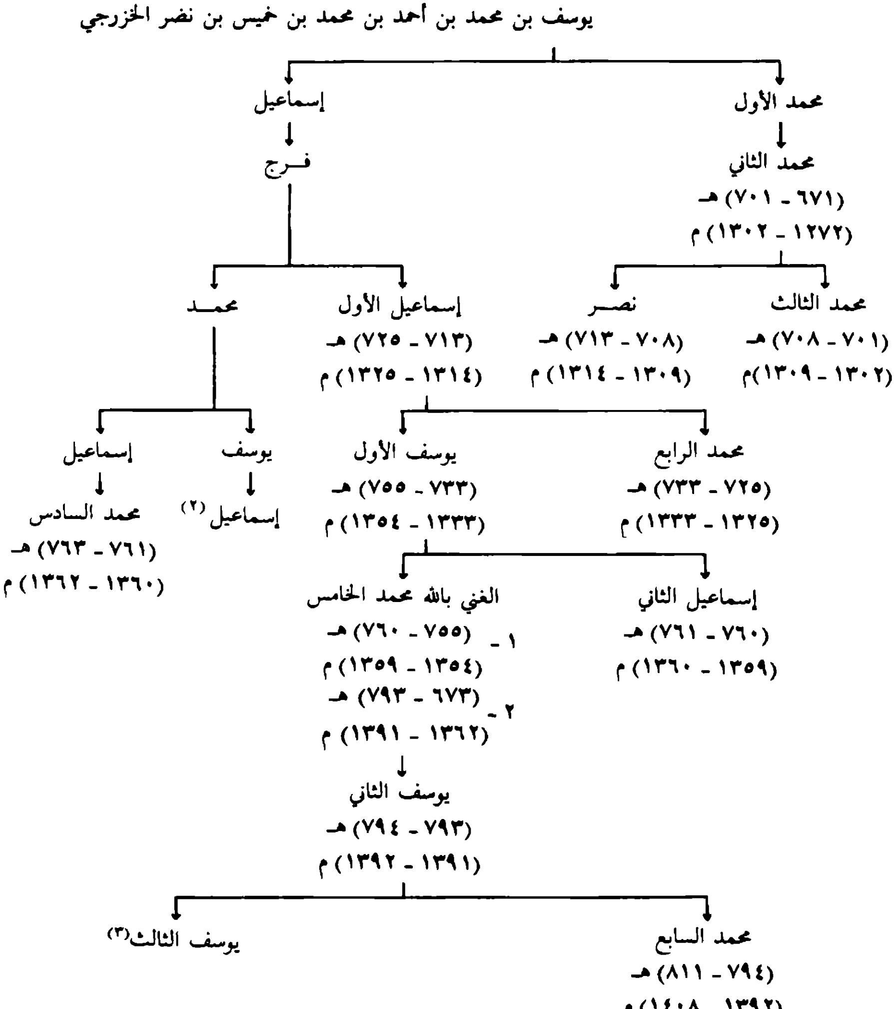
(٢) القلقشندي: «صبح الأعشى..»، ٥: ٢٦٣. ومجلة «الأندلس»، مجلد ٢٤، ص ٤٠٨ ومجلد ٤٢، ص ٤٤٧.

(٣) ابن الأحمر: «روضة النسرين..»، ص ٣٨ و ٣٩.

(٤) تراوح تاريخ وفاته في المصادر والمراجع بين سنتي ٧٩٠هـ و٧٩٧هـ (١٣٨٨ - ١٣٩٤م). تراجع بهذا الشأن الصفحة ٩٦ وما بعدها من هذه الدراسة.

جدول رقم ٦ بأسماء سلاطين غرناطة(١)

المتعاقبين منذ مطلع القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) حتى نهايته



---

(١) ابن الخطيب: «اللمحة البدرية..»، ص ٢٢ و١١٧ و١١٨ و«الإحاطة..»، ١: ٣٨ و٤٣ و٣٩٢ و٤٠٢ و٥٤٩ و٥٦٠ و«أعمال الأعلام..»، ص ٢٩٥ و٢٩٨ و٣٠٦. ابن خلدون: «العبر..»، ٧: ٢٢٨ و٣٠٦ و٣٣٢ و٣٣٤. والقلقشندي: «صبح الأعشى..»، ٥: ٢٦١ - ٢٦٣.

(٢) هو صاحب كتاب «نثير فرائد الجمان..» وكتب أخرى.

(٣) له ديوان مطبوع وهو صاحب كتاب «البقية والمدرك من شعر ابن زمرك».

جدول رقم ٧
بأسماء السلاطين والملوك
المعاصرين لسلاطين غرناطة في كل من المغرب وقشتالة وأراغون

الهجري	الميلادي	غرناطة	المغرب	قشتالة	أراغون
٠٠ _ ٧٠١	٠٠٠ _ ١٣٠٢	محمد الثاني	يوسف بن يعقوب	فرناندو الرابع	خايمي الثاني
٧٠١ _ ٧٠٨	١٣٠٢ _ ١٣٠٩	محمد الثالث	يوسف بن يعقوب	فرناندو الرابع	خايمي الثاني
			عامر بن عبد الله		
			سليمان بن عبد الله		
٧٠٨ _ ٧١٣	١٣٠٩ _ ١٣١٤	نصر	سليمان بن عبد الله	فرناندو الرابع	خايمي الثاني
			عثمان بن يعقوب	الفونسو ١١	
٧١٣ _ ٧٢٥	١٣١٤ _ ١٣٢٥	إسماعيل الأول	عثمان بن يعقوب	الفونسو ١١	خايمي الثاني
٧٢٥ _ ٧٣٣	١٣٢٥ _ ١٣٣٣	محمد الجابع	عثمان بن يعقوب	الفونسو ١١	خايمي الثاني
			علي بن عثمان		الفونسو الرابع
٧٣٣ _ ٧٥٥	١٣٣٣ _ ١٣٥٤	يوسف الأول	علي بن عثمان	الفونسو ١١	الفونسو الرابع
			فارس بن علي	بيدرو القاسي	بيدرو الرابع
٧٥٥ _ ٧٦٠	١٣٥٤ _ ١٣٥٩	الغني بالله	فارس بن علي	بيدرو القاسي	بيدرو الرابع
		محمد الخامس	السعيد بن فارس		
			إبراهيم بن علي		
٧٦٠ _ ٧٦١	١٣٥٩ _ ١٣٦٠	إسماعيل الثاني	إبراهيم بن علي	بيدرو القاسي	بيدرو الرابع
٧٦١ _ ٧٦٣	١٣٦٠ _ ١٣٦٢	محمد السادس	إبراهيم بن علي	بيدرو القاسي	بيدرو الرابع
			تاشفين بن علي		
			محمد ابن أبي عبد الرحمن		
٧٦٣ _ ٧٩٣	١٣٦٢ _ ١٣٩١	الغني بالله محمد الخامس	محمد ابن أبي عبد الرحمن	بيدرو القاسي	بيدرو الرابع
			عبد العزيز بن علي	هنري الثاني	خوان الأول
			محمد بن عبد العزيز	خوان الأول	
			أحمد بن إبراهيم	هنري الثالث	
			موسى بن فارس		

الهجري	الميلادي	غرناطة	المغرب	قشتالة	أراغون
			محمد بن أحمد		
			محمد ابن أبي الفضل		
			أحمد بن ابراهيم		
٧٩٣ ـ ٧٩٤	١٣٩١ ـ ١٣٩٢	يوسف الثاني	أحمد بن ابراهيم	هنري الثالث	خوان الأول
٣٩٤ ـ ٠٠٠	١٣٩٢ ـ ٠٠٠	محمد السابع	أحمد بن ابراهيم	هنري الثالث	خوان الأول
			عبد العزيز بن أحمد		

وضع هذا الجدول بناء على المصادر والمراجع الآتية:

ـ ابن الخطيب: «اللمحة البدرية..»، ص ٢٢ و١١٧ و١١٨ و«الإحاطة..»، ١: ٣٨ و٤٢ و٤٣ و٣١٦ و٣١٧ و٣٩٢ و٤٠٢ و٥٤٩ و٥٦٠ و٢: ١٥ و«أعمال الأعلام..»، ص ٢٩٥ و٢٩٨ و٣٠٦ و٣٣٥ و٣٣٦.
ـ ابن خلدون: «العبر..»، ٧. ٢٢٨ و٣٠٦ و٣٣٢ و٣٣٤.
ـ ابن الأحمر: «روضة النسرين..»، ص ٢١ ـ ٤٢.
ـ القلقشندي: «مآثر الأنافة..»، ص ١٣٢، و١٤٣ و١٤٤ و١٤٥ و١٦٦ و٢٠٢ و«صبح الأعشى..»، ٥: ٢٦١ ـ ٢٦٣ و٢٦٨ ـ ٢٧٠.
ـ مجلة تطوان، العدد الثامن، ص ١٩٧ و١٩٨.
ـ عنان، محمد عبد الله: «نهاية الأندلس..»، ص ١٢٧ ـ ١٣٣ و١٧٢ ـ ١٨٠.
— Ballester, Rafael: «Histoire d'Espagne» p. 98 - 103.
— Brémon, Général Edouard: «Berbères et Arabes», p.p. 384 - 385.
— Lomax, Derek W.: «The Reconquest of Spain», p.p. 163 - 170.
— De marlès, M.: «H.D.A.M.E.P.», p.p. 224 - 253.
— Palencia, Angel G.: «H.E.M.», p.p. 112 - 115.

فهرست الآيات القرآنية

فهرست الأعلام(*)

(*) ذكرت هؤلاء الأعلام متّبعاً التسلسل الهجائي للأحرف الأولى مما اشتهروا به من أسماء أو ألقاب أو كنى بغض النظر عن كلمتي «ابن» و«أبي».

(التاء)

(الجيم)

(الحاء)

(الغين)

(الفاء)

(القاف)

(الكاف)

(اللام)

(الميم)

(النون)

(الهاء)

(الواو)

(الياء)

فهرست البلدان والأماكن

(الواو)

فهرست الأشعار

أولاً: أشعار ابن زمرك

(الراء)

٢ ـ الصدور

ثانياً: أشعار سائر الشعراء

٢ ـ الصدور

فهرست المصادر(*)

أولاً: كتب الأدب والتاريخ والتراجم

١ ـ ابن الأحمر، أبو الوليد إسماعيل، «روضة النسرين في دولة بني مرين» الرباط، المطبعة الملكية، ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م.
٢ ـ ابن الأحمر، أبو الوليد إسماعيل، «نثير الجمان في شعر من نظمني وإياه الزمان» حققه د. محمد رضوان الداية وسماه «أعلام المغرب والأندلس في القرن الثامن». سلسلة دراسات أندلسية رقم ٨، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.
٣ ـ ابن الأحمر، أبو الوليد إسماعيل، «نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان» تحقيق د. محمد رضوان الداية، دار الثقافة، بيروت ١٩٦٧م.
٤ ـ ابن ادريس التجيبي المرسي، «زاد المسافر وغرة محيا الأدب السافر»، أعده وعلق عليه: عبد القادر محداد، دار الرائد العربي، بيروت ١٩٨٠م.
٥ ـ ابن بسام، «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» تحقيق د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.
٦ ـ التبريزي، «شرح القصائد العشر» تحقيق د. فخر الدين قباوة، دار الآفاق الجديدة، بيروت الطبعة الثالثة، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.
٧ ـ حازم القرطاجني، «منهاج البلغاء وسراج الأدباء» تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، تونس، ١٩٦٦م.

(*) ذكرت هذه المصادر تبعاً لأسماء أصحابها وألقابهم وكناهم التي اشتهروا بها مرتبة وفق التسلسل الهجائي بغض النظر عن كلمتي «ابن» أو «أبي».

٨ ـ **ابن حجر العسقلاني**، «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة» مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ببلدة حيدر آباد، سنة ١٣٥٠م، السفر الرابع.
٩ ـ **ابن الخطيب، لسان الدين**، «الإحاطة في أخبار غرناطة» المجلد الأول: حققه محمد عبد الله عنان، دار المعارف سلسلة ذخائر العرب رقم ١٧، الجزء الثاني، الطبعة الأولى، مطبعة الموسوعات ١٣١٩هـ.
١٠ ـ **ابن الخطيب، لسان الدين**، «أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام»، تحقيق: ليفي ـ بروفنسال، دار المكشوف، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٥٦م.
١١ ـ **ابن الخطيب، لسان الدين**، «الصيّب والجهام والماضي والكهام» دراسة وتحقيق: د. محمد شريف قاهر، الطبعة الأولى، ١٩٧٣م.
١٢ ـ **ابن الخطيب، لسان الدين**، ، «الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة»، تحقيق د. إحسان عباس، دار الثقافة، ١٩٦٣م.
١٣ ـ **ابن الخطيب، لسان الدين**، «كناسة الدكان بعد انتقال السكان» تحقيق: د. محمد كمال شبانة، مراجعة: د. حسن محمود، دار الكاتب العربي بالقاهرة.
١٤ ـ **ابن الخطيب، لسان الدين**، «اللمحة البدرية في الدولة النصرية» صححه ووضع فهارسه: محب الدين الخطيب المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٤٧ هـ.
١٥ ـ **ابن الخطيب، لسان الدين**، «نفاضة الجراب وعلالة الاغتراب» تحقيق: د. أحمد العبادي، راجعه: د . عبد العزيز الأهواني، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة.
١٦ ـ **ابن خلدون**، «التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً» دار الكتاب اللبناني، دار الكتاب المصري، ١٩٧٩ م.
١٧ ـ **ابن خلدون**، «العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر»، مصور عن طبعة بولاق، طبعة ١٢٨٤ هـ، الجزء السابع.
١٨ ـ **ابن خلدون**، «المقدمة» دار إحياء التراث العربي، بيروت.
١٩ ـ **الذهبي والحسيني**، «ذيول العبر» تحقيق: محمد رشاد عبد المطلب، مراجعة د. صلاح الدين المنجد وعبد الستار أحمد فراج، مطبعة حكومة الكويت، سلسلة التراث العربي رقم ١٧.

٢٠ ـ ابن سعيد المغربي، «المغرب في حلى المغرب» حققه: د. شوقي ضيف، سلسلة ذخائر العرب رقم ١٠، دار المعارف، الطبعة الثانية.
٢١ ـ ابن سناء الملك، «دار الطراز في عمل الموشحات» حققه د. جودت الركابي، دمشق، ١٣٦٨ هـ / ١٩٤٩ م.
٢٢ ـ السيوطي، جلال الدين، «بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة» حققه: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، الطبعة الثانية، ١٩٧٩ م، جزءان.
٢٣ ـ ابن فرحون، «الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب» وبهامشه: «نيل الابتهاج بتطريز الديباج» لأحمد بابا التنبكتي. مطبعة السعادة، الطبعة الأولى، ١٣٢٩ هـ.
٢٤ ـ الفيروزابادي، «البلغة في تاريخ أئمة اللغة» تحقيق محمد المصري، سلسلة إحياء التراث القديم رقم ٢٧. منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م.
٢٥ ـ ابن قتيبة، عبدالله بن مسلم، «الشعر والشعراء» نشر دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٤، جزءان.
٢٦ ـ القزويني الخطيب، «التلخيص في علوم البلاغة» ظبطه وشرحه عبد الرحمن البرقوقي، الطبعة الثانية، ١٩٣٢ م.
٢٧ ـ القلقشندي، «صبح الأعشى في صناعة الإنشا» نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية، مطابع كوستا توماس وشركاه بالقاهرة، وزارة الإرشاد والثقافة، المؤسسة المصرية العامة.
٢٨ ـ القلقشندي، «مآثر الأنافة في معالم الخلافة» تحقيق: عبد الستار فراج، سلسلة التراث العربي رقم ١٢، الكويت، ١٩٦٤ م، الجزء الثاني.
٢٩ ـ المقّري، «أزهار الرياض في أخبار عياض» حققه: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، الجزء الأول: ١٣٥٨ هـ / ١٩٣٩ م، الجزء الثاني: ١٣٥٩ هـ/ ١٩٤٠ م.
٣٠ ـ المقّري، «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب» حقّقه: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ٨ مجلدات.
٣١ ـ النباهي، «المرقبة العليا في من يستحق القضاء والفتيا» نشره: ليفي ـ بروفنسال، القاهرة، دار الكاتب المصري، ١٩٤٨ م.

٣٢ ـ **الناصر السلاوي،** «الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى» المجلد الأول، الجزء الثاني.
٣٣ ـ **ياقوت الحموي،** «معجم الأدباء» سلسلة الموسوعات العربية، راجعته وزارة المعارف العمومية، مطبوعات دار المأمون، الجزء الثاني عشر.

ثانياً ـ الدواوين

٣٤ ـ **ديوان أبي تمام،** بشرح الخطيب التبريزي، تحقيق: محمد عبده عزام، سلسلة ذخائر العرب رقم ٥، دار المعارف بمصر، ٤ مجلدات.
٣٥ ـ **ديوان ابن خفاجة،** «تحقيق: د. السيد مصطفى غازي، منشأة المعارف، ١٩٦٠ م.
٣٦ ـ **ديوان زهير،** نسخة مصورة عن طبعة دار الكتاب سنة ١٣٦٣ هـ / ١٩٤٤ م.
٣٧ ـ **ديوان المتنبي،** بشرح أبي البقاء العكبري، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، دار المعرفة، بيروت، أعيد طبعه بالأوفست ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٨ م، ٤ أجزاء.
٣٨ ـ **ديوان النابغة،** تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، سلسلة ذخائر العرب رقم ٥٢، دار المعارف، ١٩٧٧ م.
٣٩ ـ **ديوان أبي نواس،** تحقيق: أحمد عبد المجيد الغزالي، دار الكتاب العربي.

ثالثاً ـ المعاجم

٤٠ ـ **«الصحاح» للجوهري،** تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٩ هـ/ ١٩٧٩ م.
٤١ ـ **«القاموس المحيط» للفيروزابادي،** دار العلم للجميع، بيروت.
٤٢ ـ **«لسان العرب» لابن منظور،** دار صادر، بيروت.
٤٣ ـ **«المنجد في اللغة»،** الطبعة ٢٨، سنة ١٩٧٦، المكتبة الشرقية.
٤٤ ـ **«المنجد في الأعلام»،** الطبعة الثامنة، سنة ١٩٧٥، المكتبة الشرقية.
٤٥ ـ **«محيط المحيط» للبستاني،** مكتبة لبنان، ١٩٧٧ م.

فهرست المراجع العربية

أولاً ـ الكتب الأدبية والتاريخية

٤٦ ـ أبي الخشب، إبراهيم علي، «تاريخ الأدب العربي في الأندلس» دار الفكر العربي، الطبعة الأولى، ١٩٦٦ م.

٤٧ ـ أمين، أحمد، «ظهر الإسلام» مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٦٢م، الجزء الثالث.

٤٨ ـ البستاني، سليمان، مقدمة تعريب «الياذة هوميروس» دار إحياء التراث العربي، الجزء الأول.

٤٩ ـ البصير، محمد مهدي، «الموشح في الأندلس وفي المشرق» مطبعة المعارف، بغداد، الطبعة الأولى، ١٣٦٧هـ/١٩٤٨ م.

٥٠ ـ بالنثيا، آنخل جنثالث، «تاريخ الفكر الأندلسي» تعريب: حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الأولى.

٥١ ـ بروكلمان، كارل، «تاريخ الشعوب الإسلامية» تعريب: نبيه فارس ومنير بعلبكي، مطابع الآداب، دار العلم للملايين، بيروت، طبعة ثانية ١٩٥٤ م.

٥٢ ـ بول، ستانلي، «قصة العرب في إسبانيا» تعريب: علي الجارم بك، مطبعة المعارف، ١٩٤٤ م.

٥٣ ـ حمصي، أحمد سليم، «شعر الخمر في الأندلس» رسالة دبلوم الدراسات العليا، سنة ٩٧٧ ـ ٩٧٨، مخطوطة.

٥٤ ـ خالص، د. صلاح، «إشبيلية في القرن الخامس الهجري» دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٥ م.

٥٥ ـ **الداية**، د. **محمد رضوان**، «تاريخ النقد الأدبي في الأندلس» سلسلة دراسات أندلسية رقم ١، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، ١٩٨١ م.
٥٦ ـ **الزركلي**، **خير الدين**، «الأعلام» دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٧٩ م.
٥٧ ـ **عباس**، د. **إحسان**، «تاريخ الأدب الأندلسي ـ عصر الطوائف والمرابطين»، دار الثقافة، بيروت الطبعة الرابعة، ١٩٦٤ م.
٥٨ ـ **العقاد**، **عباس محمود**، «مطالعات في الكتب والحياة» دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م.
٥٩ ـ **عنان**، **محمد عبدالله**، «الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال» مؤسسة الخانجي بالقاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، الطبعة الثانية، ١٣٨١ هـ/ ١٩٦١ م.
٦٠ ـ **عنان**، **محمد عبدالله**، «لسان الدين بن الخطيب ـ حياته وتراثه الفكري»، مكتبة الخانجي بالقاهرة مطبعة الاستقلال الكبرى، الطبعة الأولى، ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م.
٦١ ـ **عنان**، **محمد عبدالله**، «نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين» مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٦٨ هـ / ١٩٤٩ م.
٦٢ ـ **غرسيا ـ غومس**، **اميليو**، «الشعر الأندلسي» تعريب: د. حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثالثة، ١٩٦٩ م.
٦٣ ـ **غرسيا ـ غومس**، **اميليو**، «مع شعراء الأندلس والمتنبي» «Cinco poetas musulmanes» تعريب: د. الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، الطبعة الثانية، ١٩٧٨ م.
٦٤ ـ **فون شاك**، «الفن العربي في إسبانيا وصقلية» تعريب: د. الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، ١٩٨٠ م.
٦٥ ـ **القلماوي**، **سهير**، «... ثم غربت الشمس» سلسلة اقرأ رقم ٧٦، دار المعارف، ١٩٤٩ م.
٦٦ ـ **كراتشكوفسكي**، «الشعر العربي في الأندلس» تعريب: د. محمد منير مرسي، تقديم: د. أحمد هيكل، عالم الكتب بالقاهرة، ١٩٧١ م.
٦٧ ـ **الكفراوي**، د. **محمد عبد العزيز**، «تاريخ الشعر العربي» دار نهضة مصر، الطبعة الأولى، الجزء ٤.

٦٨ ـ **لوبون، غوستاف**، «حضارة العرب» نقله إلى العربية: عادل زعيتر، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٧٩ م.
٦٩ ـ **ليفي ـ بروفنسال**، «حضارة العرب في الأندلس» تعريب: ذوقان قرقوط، دار مكتبة الحياة، بيروت.
٧٠ ـ **ليفي ـ بروفنسال**، «محاضرات عامة في أدب الأندلس وتاريخها» تعريب: محمد عبد الهادي شعيرة، راجعها: عبد الحميد العبادي بك، المطبعة الأميرية بالقاهرة، ١٩٥١ م.
٧١ ـ **المرابط، جواد**، «عبر وعبرات من دمشق الأندلس» دار العربية للطباعة والنشر والتوزيع، ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م.
٧٢ ـ **مكي، د. الطاهر أحمد**، «دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة» دار المعارف، الطبعة الأولى، ١٩٨٠ م.
٧٣ ـ **نصار، د. حسين**، «القافية في العروض والأدب» مكتبة الدراسات الأدبية رقم ٧٩، دار المعارف، ١٩٨٠ م.

ثانياً ـ الدوريات

٧٤ ـ **مجلة** «تطوان»، مجلة الأبحاث المغربية الأندلسية، العدد الثامن، ١٩٦٣ م.
٧٥ ـ **مجلة** «عالم الفكر»، العدد الأول من المجلد الثاني عشر، مطبعة حكومة الكويت، ١٩٨١ م.
٧٦ ـ **مجلة** «عالم المعرفة»، رقم ٣١: «الموشحات الأندلسية» للدكتور محمد زكريا عناني، الكويت، ١٩٨٠ م.
٧٧ ـ **مجلة** «الفكر العربي»، العدد ٢١، السنة الثالثة.

فهرست المراجع الأجنبية(*)

أولاً ـ الكتب الأدبية والتاريخية:

78 - **Alarcon y Santon, M.A. y De Linares, R.G.,** «Los Documentos arabes diplomaticos del archivo de la corona de Aragon» (D.A.D.A.C.A.), Madrid, 1940.
79 - **Balbas, I. Torres,** «La Alhambra y el Generalife» (A.G.), Madrid, 1953.
80 - **Ballester, Rafael,** «Histoire d'Espagne» (H.E.) traduit de l'espagnol par Théodoric Legrand, Payot - Paris, 1938.
81 - **Brémon, Général Edouard,** «Berbères et Arabes» (B.A.) Payot - Paris, 1942.
82 - **Brocklmann, Karl,** «Geschichte der arabischen literatur», 1948.
83 - **Coppée, Henry,** «History of the Conquest of Spain by the Arab - Moors» (H.C.S.) vol. II, Boston, 1881.
84 - **De Gayangos, Pascual,** «The History of the Mohammaden dynasties in Spain» (H.M.D.S.), London, 1843, vol. II.
85 - **De Marlès, M.,** «Histoire de la domination des Arabes et des Maures en Espagne et en Portugal» (H.D.A.M.E.P.). Paris, 1825.
86 - **Hamet, Ismaël,** «Histoire du Maghreb» (H.M.), Paris, édition Ernest Leroux, 1923.
87 - **Imamuddin, S.M.,** «A Political history of Muslim Spain» (P.H.M.S.), Pakistan, 1961.
88 - **Irving, Washington,** «The Alhambra», Hudson edition, first published, 1973, vol. I.

(*) تجدر الإشارة، هنا، إلى أنني راجعت كتباً كثيرة باللغات الفرنسية والانكليزية والاسبانية والالمانية، غير أني لم أذكر منها، في هذا الفهرست، إلاّ المراجع التي استشهدتُ ببعض ما جاء فيها من أقوال وآراء تتصل بهذه الدراسة.

89 - **Lafuente y Alcantara, E.**, -Inscripciones arabes de Granada» (I.A.G.), Madrid, 1859.
90 - **Lambert, Elie,** «Art Musulman et Art Chrétien dans la péninsule ibérique» (A.M.A.C.), Avril 1958.
91 - **Lane - Poole, Stanley,** «The Moors in Spain» (M.S.) London, 10° édition, 1920.
92 - **«Lévi - Provençal, E.**, «Inscriptions arabes d'Espagne» (I.A.E.) (Planches), Leyde, Larose, Paris, 1931.
93 - **Lévi - Provençal, E.**, « La civilisation arabe en Espane - vue générale», 3ème édition, Paris, 1961.
94 - **Lomax, Derek W.**, «The Reconquest of Spain» (R.S.) London and New York, first published, 1978.
95 - Palencia, Angel, G., «Historia de la Espana Muslamana» (H.E,M.), Barcelona, tercera édicion, 1932.
96 - **Piquet, Victor.**, «L'Espagne des Maures» - Esquisses historiques, Paris, 1945.
97 - Read, Jean., «The Moors in Spain and Portugal» (M.S.P.), London, 1974.
98 - **Safadi, Yasin Hamid.**,«Calligraphie islamique» (C.I.) Chêne, Paris.
99 - **Scott, S.P.**, «History of the moorish empire in Europe» (H.M.E.E.), vol. III, March, 1904.
100 - **Terrasse, Henri.**, «Islam d'Espagne» (I.E.) imprimé en Françe, 1958.
101 - **Valéry, Paul.**, -Variétés» Paris, 1945.
102 - **Watts, Henry E.**, «Spain» London, 1893.

ثانياً ـ الدوريات الأجنبية:

103 - **«Al - Andalus».**, «Revista de las escuelas de estudios arabes de Madrid y Granada, vol.: 13 (1948), 21 (1956), 24 (1959), 35 (1970), 38 (1973), 41 (1976), 42 (1977).

104 - **«Annales de l'Institut d'études orientales».**, (A.I.E.O.), faculté des lettres de l'Université d'Alger, tomes II (1936) et XVI (1958).
105 - **«Hespéris».**, Tomes 16 (1923), 23 (1946) et 43 (1956).
106 - **«Journal asiatique».**, (J.A.), série 3, tomes 8 et 13, série 9, tome 12.
107 - **«Revue d'histoire de civilisation de Maghreb».**, (R.H.C.M.), Juillet 1970.

ثالثاً ـ المجلات السياحية:

108 - **«L'Alhambra et le Généralife».**, (A.G.F.), Ricardo Villa - Real,

Miguel Sanchez, Granada, Traduction: Fernande et Marie Laffranque.

109 - **«L'Alhambra: Le Palais Royal».**, (A.P.R.), Emilio Garcia - Gomez et Jesus Bermudez Pareja, Italie, 1967.

110 - **«Tout Granada».**, imprimé en Espagne, Barcelona, 3ème édition, Mars 1981.

رابعاً ـ المعاجم والموسوعات:

111 - **«Encyclopédie de l'Islam».**, nouvelle édition, tome III, Leyde et Paris, 1971.

112 - **«Petit Larousse».**, Illustré, Librairie Larousse, Paris, 1979.

فهرست الأطروحة

القسم الثاني: الجانب الأدبي

تطلب جميع منشوراتنا من:

الشركة المتحدة للتوزيع

بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف: ٨١٥٦٣٢ - ٣١٩٠٣٩ - ص.ب: ٧٤٦٠ - برقياً: بيوشران

مكتبة الإيمان

طرابلس - لبنان ص. ب ٣٢٨ هاتف: ٦٢٨٥٨٢